مشكلة الغد القريب

للدكتور بشير العظمة

في كتابة صينية يعود تاريخها الى أربعة قرون قبل الميلاد يصف الحكيم أوضاع المجتمع بالسطور التالية : «كان الناس في شبابي ينعمون بالرخاء والرزق وفير والبشر قليل والناس هانئون ، فلما شخت رأيت ازدياد الناس وقلة الرزق وشدة المزاحمة وزيادة الرقابة !!! » .

لقد تبدلت الأرض ومن عليها عبر هذا التاريخ الطويل، والمشكلة التي يوجز الحكيم الصيني وصفها في كلماته ، أصبحت خطيرة تهدد الدنيا ومن عليها بالانفجـــار . لقد كانت مشكلة الحكيم محلية فاذا بها اليوم مشكلة الانسانية الكبرى يدرك اخطارها العالم الواعي المتطور بحساب أرقـــامه ، ويشعر بوطأتها مئات الملايين من المعذبين على الأرض ، يدركها الأولون ويعيش ويلاتها الآخرون .

لقد عملت الاوبئة والحروب والمجاعات ، التي ماكانت تنتهي الا لتبدأ ، فأقامت التوازن الحيوي بين الانسان وموارد الطبيعة الغذائية .

وخلال نصف القرن الاخير حققت العلوم الطبية وتطبيق الانظمة الصحية معجزة مضاعفة متوسط عمر الانسان . ومشكلة الغد القريب : الزيادة المتسارعة في عدد البشر وعجز الارض عن تقديم الكفاية لهم من الغذاء .

لقد تعرضت ولا تزال اجناس حيوانية اخرى لطفرات مشابهة كانت تتكاثر فيها دون وعي ، وتتجه دون وعي ايضاً ، منتحرة في المحيطات . كذلك تفعل اسراب الجراد واسراب الجرذان واسراب الاسماك . فهل يفعل الانسان مثلها ويسير الى قدره دون وعي منتحرا ؟!

يقدر المؤرخون عدد سكان العالم ايام السيد المسيح بـ ٢٥٠ مليون نسمة وقد أقتضى مرور ستة عشر قرنا حتى تضاعف العدد . ولم يبلغ تعداد البشر على الارض مليارا ونصف المليار الا عام ١٩٠٠ وبعد ٦١ سنة فقط من هذا التاريخ تضاعف العدد للمرة الثالثة ، وتم هذا التسارع بالزيادة المذهلة بفضل الكشوف الصحية والطبية ، فأصبح عدد سكان الارض ثلاثة مليارات من البشر والزيادة السنوية بعد ذلك تسير بمعدل خمسين مليون انسان ، ويقدر علماء الأحصاء ان الرقم سيبلغ سبعة مليارات بعد اربعين عاما اي في عام ٢٠٠٠ القريب .

معنى هذه الطفرة ان على كل قطر في الارض متخلفا كان ام متطورا ان يضاعف خلال الاعوام الاربعين القادمة من عدد المساكن والمدارس والجامعات والشوارع ووسائل النقل والمستشفيات والفنيين والاداريين اللازمين لكل ذلك . ويضاعف خاصة من انتاجه الغذائي ، كل ذلك ليحتفظ فقط بمستوى العيش الحالي لمواطنيه ، وليلبي او يهمل كاملا تطلع الجيل الحاضر والاجيال القادمة لتحسين احوالها المعاشية . فان لم توفق اقطار الارض ، كل منها بوسائلها الخاصة وأمام مزاحمة قاتلة لاترحم ، اذا عجزت هذه الاقطار ، وخاصة المزدحمة والمتخلفة منها حاليا ، عن ادراك ذلك فان ارضها الوطنية ستنفجر ويتفجر العالم معها .

ان الخطر الذي يتهدد العالم اليوم ليس في زيادة عدد سكانه ولكن في تباعد وازدياد الفوارق بين مجتمعات متطورة واكثرية بشرية متخلفة .

قال ماركس في القرن الماضي : « علم الاقتصاد هو علم البؤس البشري » .

ان تسع عشرة دولة من بلاد العالم الغني يصل دخلها الى ٧٠٪ من دخل العالم ولا يزيد عدد سكانها عن ١٦٪ من سكانه . وبالمقابل لايزيد دخل خمس عشرة دولة من أفقر بلاد العالم وعدد سكانها ٥٠٪ منهم لايبلغ دخلهم سوى ١٠٪ فقط من دخل العالم .

هذه هي الصورة المفزعة لعالم الغد : تباعد متسارع في العدد وفي مستوى العيش بين المتخلفين والمتطورين .

يقول نهرو : وليس الجوع جديدا في الهند ولكن يقظة الضمير الهندي على واقع بؤسه هو الامر الجديد والخطير على الارض القديمة .

ويقول رومان رولان Romain Rolland : لابطولة في العالم اليوم الا برؤية العالم كما هو قائم فعلا ، لا كما تريد ان يكون ، وان تحب بعد ذلك هذا العالم وتعمل فيه ؟!

أستعيد قول الحكمة الصينية التي بدأت بها حديثي لاذكر بأن لاوجود لعـالم بدون مشاكل ومتاعب واني في حدود هذا التفكير الواقعي الواعي لمشاكل العالم أساهم بكلمتي لاعرض الخطوط العريضة للمشكلة القديمة الجديدة والتي تبدو حادة وخطيرة في صورة أرقامها في واقعها وفي تناقضاتهـا .

١ — انفجار الجنس البشري :

كم يمكن للارض ان تستوعب من البشر دون ان يهددهم الجوع ؟ !

يجيب Colin Clark الاقتصادي المعروف فيقول : يمكن للارض أن تستوعب خمسة عشر ملياراً من الناس دون خوف الجوع . ويشترط لذلك أن يكون الجنس البشري بكامله في مستوى علمي وتقني قادر على استثمار الارض بالشكل الافضل ، اى على المستوى الارفع في هولنـدا والولايات المتحدة في الوقت الحاضر مثلا ؟!!

ومتى سيبلغ الجنس البشري في تعداده هـذا الرقم ؟!! يؤكد علماء الجنس البشري Demogroqhie ان الانسان سيتجاوز هـذا الرقم عام ٢٠٥٠ ويرى بعضهم ان عدد سكان الارض سيبلغ في هـذا التاريخ ٢٢ مليار نسمة . وتتحفظ الامم المتحدة فتحدد رقم سكان الارض عام ٢٠٠٠ بسبعة مليارات فقط . ولنبق مع المحافظين ولنعلم بأن عدد سكان الارض في نهاية عام ١٩٦٣ هو ثلاثة مليارات و ٢٠٠ مليون انسان .

ولنرجع الى التاريخ نستقصي الوقائع : لم يبلغ تعداد الجنس البشري المليـار من الانفس الا خلال عـدة ألوف من الاعوام اى حوالي عام ١٨٥٠ « تاريخ البشرية على الارض يعود لمليون سنة تقديرا » . وكانت زيادة الجنس البشري بطيئة جدا قبل ذلك . وسبب هذا البطء : أمراض الطفولة والأوبئة والمجاعات وحروب لاتنقطع .

بعد ثمانين عاما من ١٨٥٠ اي في عام ١٩٣٠ بلغ عدد سكان الارض مليـارين وبعد ثلاثين عاما اى عام ١٩٦٠ بلغ الرقم ثلاثة مليارات وسيبلغ الرقم أكيدا اربعة مليارات عام ١٩٧٥ والمخطط بجانبه يظهر تسارع الزيادة الكبيرة .

في أيام الحربين العالميتين او مابينهما ، وفي سعير اندفاع الانسان يتفنن في ابتكار وسائل القتل والتدمير ، وحفاظا على أرواح الشباب الذين لايسمح لهم بالموت الا بالرصاص وبالنـار ،

عرف العلم اهم اللقاحات ومبيدات الحشرات وقاتلات الجراثيم كما عرف اسباب الوقاية من المرض فانتشرت اساليب حفظ الصحة وتم النصر على عدد من الامراض .

في عام ١٧٩٨ نشر مالتوس كتابه The Crisis ،وعرف الاقتصاد السياسي كعلم يدرس في الجامعات . قال مالتوس نظرية جاء فيها ان سكان العالم يتضاعفون كل ٢٥ سنة وفق متوالية هندسية ، بينما تنمو وسائل العيش وفق متوالية حسابية . وانتهى من ذلك للاستنتاج بأن التطوير الاجتماعي لايمكن أن يكون حـلا للمشكلة ، واعترف مالتوس ضمنا بأن الحرب ضرورة حتمية لابادة الزائد من البشر وقرر ضرورة تحديد النسل على مستوى عالمي !!!

لقد أثبت الواقع بعد ذلك خطل نظرية مالتوس في تنبؤات أرقامه فانها لو صحت لسكان عددهم عام ٢٠٠٠ ثلاثمئة مليار اى أن الفرد الواحد يجب ان يعيش على مساحة لاتزيد عن طوله؟!!

لقد وضع مالتوس نظريته في منتصف القرن الثامن عشر في فترة كان يسود فيها البؤس والشقاء سواد الشعب في بريطانيا ، واراد بقوله هذا ان يرد على وليم غودوين الاشتراكي ،الذي كان يعزو البؤس الى سوء نظام التوزيع في الانتاج . فنظرية مالتوس وجدت لمناهضة آراء المصلحين الاجتماعيين واعتبر الاوبئة والحروب نعمة سماوية لابد منها .

تؤكد المالتوسية بأن كل انسان يولد في عالم مزدحم لن يجد طعاما له ، وان الطبيعة تطلب اليه ان يرحل الى العالم الآخر ، واذا تأخر في الانصراف فان النصر محتوم !!

لم يكشف التاريخ خطل نظرية مالتوس في استنتاجه العددي فحسب بـل وفي استنتاجه الاقتصادي والاجتماعي ايضا ، فانه رغم انقضاء قرن ونصف على قوله هذا ، فان مستوى العيش لايزال يرتفع اطرادا وفي جميع انحاء العالم ، وخاصة في بريطانيا « موضوع تنبؤات مالتوس » بفضل الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي ورغم زيادة السكان .

لقد تعرضت بقاع من الارض للزيادة الكبيرة في سكانها منذ القرن التاسع عشر وأعني بها أوروبا الغربية ولا تزال هذه المنطقة من العالم أشد ازدحاما من غيرها ولم تنفجر الارض ولم يعم الخراب فما هو مصدر الخطر في الزيادة التي تواجه العالم اليوم ؟!!

عودة الى التـاريخ الحديث لنتابع ماجرى في اوروبا الغربيـة وكيف عالجت داء التضخم البشري :

لقد كان متوسط عمر الانسان في القرن الثامن عشر ٣١ عاماً تقريباً في كل من انكلترا وفرنسا والسويد . وارتفع التوسط حتى بلغ ٤١ عام في القرن التاسع عشر .

فزيادة السكان كانت نتيجة لنقص الوفيات عن الولادات رغم أن عدد المواليد بقي ثابتا دون زيادة .

وقد كان رد الفعل لهذه الزيادة غير المنتظرة في السكان أن بدأت موجة الهجرة الىماوراء البحار واستقبلت امريكا واوستراليا وافريقيا الجنوبية مايقدر بـ ٢٧ مليون انسان . وبدل الزيادة في اعداد البشر القاطنين في البلاد الاسكندنافية ظهر نقص في السكان بلغ ثلاثة ملايين عام ١٩١٥ .

ورغم معارضة الكنيسة والدولة كان الاجهاض وكذلك الزواج المتأخر أو الزواج بدون أطفال هي وسائل العائلات لتحديد النسل . وفي عام ١٩٣٠ كانت نسبة المواليد أقل من الوفيات وبدا الوضع وكأن هذه الشعوب في طريقها الى التضاؤل العددي .

وعسير علينا أن نعزو هذه الردة الى عامل محدد واضح ، فان خوف الفقر ، وانتشار فكرة متعة الانسان الفرد بحياته ، دون مسؤوليات الاطفال وتنشئتهم ، وطبيعة الثورة الصناعية التي بدلت وبشكل جذري العلاقات بين البشر وخاصة في الوسط العائلي ، ونقص الوفيات بين الاطفال ، والاندفاع وراء المزيد من الضمانات المالية وتجميع رؤوس الاموال ، كل ذلك ساهم في الحد من زيادة عدد الاولاد . وكان من نتيجة الوعي للمسؤوليات والاوضاع الجديدة أن تأخر سن الزواج وحددت العائلات تلقائياً عدد اولادها .

فاذا استعرضنا اوضاع البلاد الصناعية المتطورة نشاهد أنها جميعاً تعرضت لزيادة فيالانسال ثم الى تحديد عفوي أعقب ذلك ، عدا الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي حيث يشعر الانسان العادي أن الارض الواسعة والثروات الكبيرة ستترك المواليد وحتى المهاجرين القادمين المكان الضروري لعيشهم على الارض .

وبشكل عام يلاحظ في الشعوب المتطورة في اوروبا وشمال امريكا وجنوب افريقيا واوستراليا واليابان أن تسارع زيادةالبشر مرتبط بالظروف المعاشية وازدهارالاقتصاد أوركوده.

فما هو وضع الشعوب المتخلفة ؟

تتعرض هذه الشعوب لزيادة متسارعة في اعدادها وخاصة منذ عام ١٩٣٠ وتبلغ الزيادة البشرية في هذه البلاد ضعف زيادتها في البلاد المتطورة .

ومعنى ذلك أن الشعوب الافقر تزداد فقراً وتعاسة والآخرونيزدادونغنى ورفاهيةوالعالم يصغر ويصغر في ابعاده الجغرافية والفكرية . وهذه هي معضلة الانسانية الكبرى التي يواجهها جيلنا الحاضر .

يبلغ تعداد الكهول القاطنين في البلاد المتخلفة ٦٩٪ من سكان الارض ويعيش على ارض المتخلفين ٨٠٪ من اطفال الارض أيضاً .

فاذا فرضت عدالة توزيع الانتاج قواعدها على الارض كوحدة ، فمعنى ذلك أن البشر على الارض الى فقر وشقـــاء . والزيادة الكبيرة في سكان البلاد المتخلفة يعني تعقيدا ان لم يكن استحالة في امكانيات تطويرها الاقتصادي .

كيف يمكن تعليل أسباب زيادة البشر في بلاد المتخلفين !؟

يقول البعض أن البلاد المتخلفة تجتاز مرحلة زمنية تشبه مرحلة القرن الثـــامن عشر في اوروبا حيث نقصت الوفيـات ثم عاد الميزان البشري للاعتدال بعد ان استقرت الثورة الصناعية بمفاهيمهـــا وعلاقات البشر الجديدة . وان الانسان في البلاد المتخلفة سيواجه مشاكله وسيجد حلولا عفوية لها .

قبل الاسترسال في القول بأن التاريخ يعيد نفسه علينا أن ندرس الظروف الجديدة القائمة في العالم أي أن ندرس الوضع كما هو لا كما نتمنى أن يكون .

ان زيادة السكان في البلاد المتخلفة أعلى بكثير مما كانت عليه الزيادة في بدء القرن الثامن عشر في اوروبا فلم تتجاوز الزيادة في الغرب ١٥ في الالف من السكان سنويا بينما بلغت الزيادة مابين ١٩٥٠ — ١٩٦٠ ، ٣١٫٥ في الالف في تايوان و ٢٦٫٨ في سيلان و ٣٢٫١ في ماليزيا و ٢٧٫٧ في البانيـــا و ٣١٫٨ في المكسيك و ٣٣٫٩ في السالفـــادور و ٣٧٫٧ في كوستاريكا . وليست هذه الارقام الولادات ولكنها الزيادة الصافية بين الولادات والوفيـات . والشعب الذي يزداد بنسبة ٣٠ في الالف يضاعف عدده خلال ٢٣ سنة فقط .

ماهي اسباب الزيادة ؟ الصحة ام الاقتصاد ؟

لقد حدثت زيادة مماثلة في عدد من البلاد المتطورة في بدء تطويرها الاقتصادي والفكري ولكن الزيادة في هذه البلاد تمت بعد التطور الاقتصادي لاقبله كما يحدث في البلاد المتخلفة اليوم .

ففي بريطانيا مثلا بلغت الزيادة ذروتها بعد ان تم التطوير الصناعي لهذه البلاد ولم تكن عندئذ نسبة العاملين في الزراعة من الكهول اكثر من ٢٠٪ منهم . والعكس تماما هو مايقع في البلاد المتخلفة التي تتسارع زيادة عدد سكانها حيث لاتزيد نسبة اليد العاملة في الصناعة فيها عن ١٥٪ من اليد العاملة .

ان سبب الزيادة في عدد السكان في البلاد المتخلفة نقص الوفيات . ففي جزيرة موريس مثلا « في البحر الهندي » ارتفع متوسط العمر من ٣٣ الى ٥١ سنـة ولم تتوصل السويد الى بلوغ هذا الرقم الا خلال ١٣٠ عاما بينما بلغته جزيرة موريس خلال الاعوام الثانية التالية للحرب فقط . وازداد متوسط العمر في تايوان من ٤٣ الى ٦٣ سنة خلال عشرين عاما ولم يبلغ متوسط عمر الرجل الابيض في الولايات المتحدة هذا الرقم الا بعد ثمانين عاما .

ومن أجل تعليل اسباب التقص في الوفيات يتبادل الاقتصاديون والصحيون الاتهام كل منهم يريد ان يتهرب من مسؤولية تعقيد المشاكل الاجتماعية والاقتصادية . يقول الاولون ان الطب الوقائي والادوية والقضاء على الاوبئة هي الاسباب المباشرة لزيادة متوسط العمر ويقول الآخرون بل ان ارتفاع مستوى العيش في الطعام والاسكان واللباس وشروط العمل ... الخ هي التي زادت من مقاومة البشر على الامراض وانقصت الوفيات .

يؤكد الواقع ان تطبيق الوسائل الصحية والدوائية وكفاح الاوبئة هي الاسباب المباشرة لنقص الوفيات . وان بالامكان ان ترتفع بتوسط عمر الانسان الذي لايزال يعيش في العصر الحجري اذا طبقت على هذه المجتمعات أساليب الصحة والطب ودون ان تنتظر تطورها الاقتصادي والمعاشي .

ومرة ثانية نأخذ مثلاً جزيرة موريس حيث هبطت حصة الفرد وسطيا من الانتاج مابين عامي ٥٣ - ١٩٥٨ بنسبة ١٣٪ ومع ذلك تراجعت الوفيات بنسبة ٣٦٪ وفي احصاء مقارن لخمسة عشر بلدا متخلفا نلاحظ ان تناقص الوفيات يتراوح حول رقم ٤٪ سنويا بينما التطور الاقتصادي بزيادة الدخل يختلف في هذه البلاد مابين ٦٪ سنويا وصفر .

وعليه فان تطبيق التعاليم الصحية والمعارف الطبية هي السبب الرئيسي لنقص وفيات البشر . ففي القرنين السابع والثامن عشر كانت زيادة العدد البشري تالية للازدهار الاقتصادي بينما نلاحظ اليوم ان زيادة البشر في البلاد المتخلفة عائق كبير في تطوير اقتصادها وازدهاره .

٢ - واقع الغذاء عالمياً :

لنبدأ اولا بتعريف معنى الجوع . ليس المهم ان تمتلىء المعدة بالتافه من الطعام بل لابد من ان نوفر للجسم الانساني كفايته من البروتينات والفيتامينات والاملاح المعدنية بالاضافة الى السكريات والدهون . يؤدي النقص الغذائي الكيفي على مدى الاجيال الى تخلف صحي ونقص متوارث في القوى الجسمية والفكرية والقدرة على الانتاج .

لامجال في الطب كما في العلوم الاجتماعية للحتمية Determinisme ولابد من قبول الاحتمالات Possibilisme والمرض لاسببه عامل واحد غالبا بل تتداخل أسباب المرض الظاهرة والخفية تسبب المرض والموت أحيانا . والعوز Carence لايبدو بعلامات واضحة الا اذا وجدت ظروف مساعدة وهذا مايدعى بالاحتمال الحيوي Possibilisme biologique . فالظروف المناخ والعمل والحالة النفسية وغيرها أثر كبير في زيادة او ضعف مقاومة الافراد والجماعات تجاه العوز كما تؤثر في ذلك العادات والتقاليد الغذائية .

لقد نشر ٦٠٠ من اطباء الانكليز عام ١٩٣٩ دراسة عن آثار الجوع المرضية في

Chishire « علما بأن بريطانيا بلد متطور » تحت عنوان الوصية الطبية Testament medical وتؤكد هذه النشرة ان عدداً كبيرا من الامراض سببها سوء التغذية ونقص عناصرها الاساسية والا فكيف نفسر علمياً سبب وفيات تبلغ ٢٢٠ في الالف في البلاد المتخلفة ، بينا لاتزيد وفيات المتطورين عن ٢٠ في الالف فقط ؟!! وكيف ينتشر السل والبلهارزيا والانكلستوما وغيرها من الطفيليات والجراثيم بين المتخلفين ولاتصيب الا نادرا المتطورين وحتى الذين يعيشون في نفس الظروف المعاشية .

لقد انهزم السل في الولايات المتحدة حتى قبل وجود ادوية وبفضل مستوى العيش الرفيع.

والخلاصة تبلغ وفيات البشر سنويا ٦٠ مليون نفس ، ويقدر عـــدد الذين يموتون من الجوع المزمن بالحرمان المباشر او غير المباشر بـ ٣٠ ـ ٤٠ مليون نسمة . فالجوع اخطر وباء على الارض . ان ٥٨٪ من سكان الارض يحصلون على اكثر من ١٠ غرامات وسطيا في اليوم لواحد من البروتين الحيواني وهو مقدار دون ضروراتهم الحياتيـــة « احصاء منظمة التغذية والزراعة F . A . O » .

لايزال تركيب الاغذية كيميويا محاولات تجريبية لم تطبق في المجال العملي ،وعليه فالبشرية تعتمد في تغذيتها قصرا على ماتنتج الارض . ان اكر(١) واحد من الارض الزراعية يكفي لتغذية انسان ، ومساحة الارض المزروعة فعليا في العالم اجمع تزيد عن اربعة مليارات اكر ، فلا داعي نظرياً لوجود الجوع على الارض لو تم توزيع الانتاج بحسب الحاجة ؟!

على مستوى التفكير الطوبائي النظري لا لزوم للجوع ، ومع ذلك أذاعت منظمة الزراعة والتغذية تقريرا عام ١٩٦١ ينبه لاخطار بقاء ثلثي سكان العـــالم تحت تهديد الجوع الكيفي والكمي أيضا .

تؤكد تقديرات هذه المنظمة العالمية ان زيادة السكان في الشرق الاقصى « عدا الصين الشعبية » بلغ خلال الاعوام الخمسة عشر الماضية ٣٠٪ من تعداد سكانه بينما لم تتجاوز زيادة الانتاج الغذائي في هذه البلاد عن ٢٥ ٪ خلال الفترة نفسها والفارق وهو ٥٪ يعني هبوط في مستوى التغذية اي مزيد ايضا من الجوع والجياع .

فما سبب الجوع تاريخيا واقتصاديا واجتماعيا

سكان الارض بشر لاملائكة والتاريخ في قصصه الطويل صراع مستمر من اجل السيطرة وكان ان انتقل مركز القوة والعلم الى الغرب وبدأ عهد الاستعمار المعاصر عام ١٤٩٨ برحلة فاسكودي غاما ، بدأ بتجارة التوابل ثم بتجارة الرقيق ثم بتجارة الافيون وتجارة المحاصيـــل

(١) الاكر ٨٤٠ : ياردا مربعاً أي مايعادل اربعة دونمات تقريبا .

الزراعية والمواد الخام والسخرة في المناجم واخيرا بالشكل الجديد من الاستعمار الاقتصادي . وكانت جميع اساليب الاستنزاف والاستثمار مغلفة بمبررات التمدين والتعاون والانسانية . وجابهت شعوب الارض الغزاة المستعمرين وقامت حروب التحرير وجلت جيوش الغاصبين وحقق عدد كبير من بلاد الارض في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الاول من العشرين استقلالها الوطني دون الاستقلال الاقتصادي .

ولم يحقق الاستقلال السياسي النعيم للشعوب فقد مضى على استقلال دول امريكا اللاتينية اكثر من قرن ولا يزال واقع هذه الاقطار الاقتصادي والاجتماعي يؤكد بانها مستعمرات .

حديث قصة الاستعمار ورسالة المتمدنين للمتخلفين التي تركت ثلثي العالم جائعا قصة طويلة تحكي فصولها مآسي البشرية وآلامها منذ اربعة قرون وحتى الآن . انه هو الاستعمار ايضا الذي انسحب بجيوشه ولكنه لايزال يستثمر ، وتزيد بنتيجة كل ذلك أبعاد واعماق المعضلة الكبرى . وحتى يومنا هذا تزيد الدول المتطورة دخلها القومي بنسبة تتراوح بين ٨ ـ ١٢٪ سنويا ولا يرتفع الدخل القومي للبلاد المتخلفة سوى ٢ ـ ٤٪ فقط اي ان الشقة ايضا بين المتطورين والمتخلفين الى زيادة لا الى تقارب ، الاغنياء يزدادون ثراء والفقراء يزدادون عددا ويزدادون فقرا .

فاذا اعترض قارىء يشعر بالغثيان من كثرة ماسمع بكلمة الاستعمار !! وتساءل اين هو هذا الاستعمار ونحن لانرى السوط في يده ولا البندقية على كتفه فجوابي اليه :

انه الاستعمار الجديد Néo-imperialisme

وهو نظام دقيق عالمي تمثله احتكارات دولية International تتسلط على موارد الثروة في العالم وتفرض الاسعار والاجور لتضمن تدفق أرباح استثماراتها الى ارضها الوطنية . انها وراء انتاج المعادن والنفط ووراء سوق القطن العالمية والبن والسكر واليورانيوم والماس وغيرها . والبورصة العالمية تعطي وتمنع، تزيد من ثراء المنعمين ومن فقر المحرومين .

تتحكم امبراطورية النفط العالمية بمصائر عدد كبير من شعوب الارض المنتجة للنفط وتسيطر هذه الشركات بآبارها وناقلاتها وتوزيعها وصناعاتها الكيميوية على ثلاثة اخماس مافي العالم من نفط مكتشف وعلى نصف معامل التكرير ووسائل النقل .

يقدر رأسمال امبراطورية النفط بـ ٣٧ مليار دولار فأية قوة وطنية قادرة على الصمود بمفردها امام هذا المارد ؟!

ولنتابع بهدوء وتجرد مصير المناصفة في ارباح النفط المستخرج من الارض الوطنية . ان النصف الذي يدفع للحكام يخلق في البلد المتخلف طبقة ترتبط مصالحها ببقاء الاستثمار فهي شريكة له وحليفة .

تستثمر هذه الطبقة من الحكام والتجار اموالها بأحد الطرق التالية : اولا تودع المبالغ الكبيرة منها في مصارف بعيدة عن الحدود الوطنية بفوائد رمزية ودائما في البلاد المتطورة حيث لرؤوس الاموال دور كبير في دوران وتطور الصناعة . ثانيا : استثمارات عقارية بعيدا عن الارض الوطنية وفي بلاد تضمن لها سيولة الحركة عند اول اشارة . ثالثا : استثمارات تجارية في المجال الوطني فتستورد من بلاد المتطورين ايضا سلعا استهلاكية : سيارات ، برادات ، مكيفات وما اليها . وحصيلة الطرق الثلاثة في الاستثمار ان نصف ارباح النفط ايضا تعود لتلحق النصف الاول لتزدهر بها ايضا صناعات المتطورين وتزيد من مكاسبهم . ولا يبقى للذين يعيشون فوق الارض التي تزخر بالنفط الا غلاء العيش وفتات الموائد .

آبار النفط شرايين مغروسة في الارض العربية تمد المتطورين بالقدرة اللازمة لآلاتهم وتنصب أرباحها بكاملها فيما وراء البحار !!

نشرت مجلة Petrolium outlook تشرين اول ١٩٥٧ ان ارباح رأس المال المستثمر في صناعة النفط في الولايات المتحدة لاتزيد عن ٢٠٪ أما أرباح رأس المال في نفط الشرق الاوسط فتبلغ ١٠٠٪ ؟!

وقصة الاستعمار مع الرقيق الاسود صفحة سوداء من تاريخ الانسانية . سيق الانسان المختلف لونه الى امريكا ليعمل في الحقل بدل البهائم . سيق بالسوط وعمل لقاء طعامه عدة قرون فلما تعالت صيحات الانسانية التي الرقيق فيما بين نهاية القرن الثامن عشر ومنتصف التاسع عشر (صدر قانون تحريم الرق في انكلترا عام ١٨٠٨ وفي الولايات المتحدة عام ١٨٦٥) وبقيت التفرقة العنصرية حيث لاتزال الحاجة ماسة لطبقة تقوم بالاعمال المنهكة أو القذرة . وفي افريقيا سيق العبيد الى المناجم في جنوبي افريقيا من مستعمرات البيض بالسوط أولا فلما ألغي الرقيق والسخرة في منتصف القرن التاسع عشر عمد الرجل الابيض الى الحيلة ليسوق المزيد من العمال الى جحيم المناجم فكان قانون الضريبة على الرأس الانساني وكانت عقوبة الهاربين من ضريبة ٢٥ دولاراً سنويا ان يساقوا الى السجون والى الاشغال الشاقة بحكم القانون وكانوا يكدسون الألوف منهم فوق الألوف في معسكرات الاعتقال ونظمت احتكارات المناجم وسائل تجميع ونقل البضاعة الانسانية في جميع انحاء افريقيا الى جنوبيها . يعمل الافريقي في ظروف بالغة القسوة يقضي سنتين في معسكرات للعمل فلا يرى نور النهار الا كل سبعة ايام خوف أن يحمل في جيبه حجرا ثمينا فاذا قضى سنتين في هذه المعسكرات ولم يقتله السل او الزحار او التسمم الكحولي مع سوء التغذية عاد الى اهله وقد أنفق جميع الأجر الذي كسب في ثمن طعامه وسكنه للشركة المستثمرة للمناجم نفسها وعلى رأسه قبعة عالية ذات ألوان زاهية وعلى كتفيه أسمال بالية من ألبسة الجنود القديمة . يعود وفي جيبه ما يسدد عنه ضريبة الرأس للسنتين القادمتين ويواجه

بعدها مشكلته الجديدة ولاخيــار له اما ان يعود الى العمل في المنجم او يهرب شاردا في الغابات فريسة للذئاب ـ والوحوش . وهكذا يعتصر البيض عروق السود لتزدهر وتبقى رابحة مناجم الماس والذهب والفضة والنحاس وغيرها في الكونغو وفي جنوب افريقيا .

وبعد الحرب العالمية الاولى ارتفعت صيحات الانسانيين في العالم ، فاستبدل الاستعمار علم الاستثمار ؛ وكانت التفرقة العنصرية: احياء معزولة ومناطق محرمة واجور محددة وسوطومسجون بديلا وحيدا عن العمل في المناجم ، وتتحدى جنوب افريقيا العالم حتى اليوم وتمعن في اضطهادها واذلالها للافريقيين وكذلك يفعل البرتغاليون .

وتضطر الامم المتحدة ان ترفع علمها في الكونغو لحماية مصالح احتكارات المناجم والمعادن ولتحمي او تبدل من صنائعهـــا الافريقيين الذين يضمنون لها استمرار استثماراتها البالغة عدة مليارات من الدولارات .

لقد أغلقت مناجم الماس والذهب في الولايات المتحدة لأن استثمارها كان خاسرا اقتصاديا بينا تبقى ارباح استثمارات مناجم جنوب افريقيا رابحة لأنها تعتصر دم الافريقيين وعرقهم .

لقد خسرت الدول المتطورة اذ تنازعت السلطة والارض في المستعمرات وكان لخلافاتها فضل في تحرر المستعبدين . فقامت في استعمارها الجديد تتعاون وتتضامن بدلا من ان تتنافس في الاسواق العالمية . وليست السوق الاوروبية المشتركة وسوق المبادلات الحرة الا شكلا من تكتل الاقوياء تجاه صيحات الجياع .

انهـــا تستهدف جميعا شراء المواد الخام والمنتجات الزراعية بأبخس الاسعار وبيع السلع الصناعية بأعلاها . وتهرب رؤوس الاموال ، المكدسة في بنوك الولايات المتحدة وغيرها من الدول المتطورة ، لتستثمر في شركات الفواكه والمناجم والصناعات في دول امريكا اللاتينية والكونغو والشرق الاوسط ، تهرب من الضرائب ومن غلاء اليد العاملة لتستثمر كل شيء في البلاد التي تغزوها ومنهـــا الانسان . وتبقى الصناعة الدقيقة وأرباح رأس المال تتدفق لتصب الخيرات في صناديق اصحاب البنوك بعيدا وراء البحار .

ان مشكلة العـــالم الكبرى في زيادة عدد البشر وتناقضات المجتمعات الانسانية هي نتيجة طبيعية لجموح الغرائز الانسانية ورغبتها التي لاتشبع بالاستزادة ، وان الاندفاع غير الواعي وراء الرغبات الفريزية الآنانية الجشعة جعلت عالم اليوم في وضع قلق شامل وتناقضات خطيرة .

قال بومبيدو في الجمعية الوطنية الفرنسية « ١١ حزيران ١٩٦٤ » تفيد الاحصاءات بأن الهوة لاتزال تتسع بصورة هائلة بين عالم الاغنياء كثيرا والفقراء كثيرا الى حد أن النسبة بين الهندي والفرنسي كانت قبل الحرب الاخيرة واحدا الى خمسة عشر فأصبحت الآن واحدا الى تسعة وثلاثين . وان معدل دخل الفرد في الدول المتقدمة يقدر بحوالي ١٨٠٠ دولار بينما هو في الدول

المتخلفة لايزيد عن ١٣٠ دولار علما بأن توزيع الثروة في الدول المتطورة اقرب للعدالة مما هو عليه في الدول المتخلفة .

ويستطرد بوميدو فيقول : اذا لم ترد وترد الدول المتطورة من مساعداتها للدول المتخلفة فان ذلك سيؤدي عام ١٩٨٠ الى رفع دخل الفرد في الدول المتطورة الى ثلاثة آلاف أو اربعة آلاف دولار بينما يؤدي الى تخفيض دخل الفرد في الدول المتخلفة الى ٨٠ دولار فقط أي الى اكثر قليلا من نصف ماهو عليه الآن ؟!

حركة سريعة الى الامام بين المتطورين ونكسة راجعة بنفس السرعة لبعض المتخلفين .

وقد ختم بوميدو كلمته بالتحذير التالي : يؤكد لنا التاريخ أن البشر لايتحملون طويلا الظلم والشقاء ومؤتمر باندونغ أظهر بشكل صارخ أن المتخلفين بدأوا يفتحون عيونهم على واقعهم ويوم يتحرك موكب الجياع ستختفي حضارتنا ونختفي نحن معها ؟!

ورغم هذا الكلام الواعي لواقع العالم تقف فرنسا مع الدول المتطورة جبهة واحدة امام المتخلفين في مؤتمر التنمية للتجارة الدولي في جنيف ويفشل المؤتمر امام جشع المتخومين .

٣ - فما هي حدود وعمق هذه التناقضات في الاعداد وفي الموارد ؟

أولاً : واقع العالم اليوم أنه فريقان ثلثا سكان الارض شعوب متخلفة والثلث الواحد متخم وسيصبح ثلاثة أرباع العالم عام ٢٠٠٠ متخلفين وجياعا . سيبلغ تعداد سكان آسيا بعد اربعين عاما ٦٠٪ من سكان الارض بينما لاتزيد نسبتهم حاليا عن ٥٢٪ ولن يكون في اوروبا من سكان الارض اكثر من ١٠٪ فقط بينما كانت نسبتهم عام ١٩٦٠ ، ١٤٪ .

ثانياً : يزداد شباب العالم المتخلف ويشيخ سكان العالم المتطور . ستكون زيادة عدد الذين تجاوزوا سن الستين بعد عشرين سنة ٤٢٪ من السكان بينما الزيادة العامة في هذه البلدان لاتتجاوز ١٨٪ . تتحمل البلاد المتطورة ويسر المزيد من شيوخها غير المنتجين ، ولكن مصير الشيوخ ومتوسط عمر الانسان في البلاد المتخلفة في زيادة مطردة ؟!

ثالثاً : اضطراب النسبة بين سكان المدن والريف نتيجة لتباين الاجور وتباين مستوى العيش بين الصناعة والزراعة . ففي جميع انحاء العالم زيادة في عدد سكان المدن ونقص نسبي في سكان الريف . لقد طردت الآلة العامل الزراعي من الارض لتستقبله المدينة عاطلا أو عاملا في ضواحيها ، يهجر الجيل الجديد القرية الى المدينة تستهويهم انوارها ليعيشوا على فتات الموائد او حياة التسكع والاجرام والانحراف . وتبدو البطالة السافرة او المقنعة « اعمال غير منتجة في الوساطة والتجارة والنقل » لتزيد من اكلاف الانتاج وارتفاع الاسعار وتباعد مستوى العيش بين المدينة والقرية .

تقدر الامم المتحدة عدد المهاجرين من الريف الى المدينة في الهند مابين اعوام ١٩٦٠ — ٢٠٠٠ بـ ٩٩ — ٢٠٠ مليون انسان . وستضم المدن الكبيرة في الهند اعدادا من البشر قد تصل الى ٣٦ مليون او ٦٦ مليون اذا استمرت الهجرة على معدلها الحالي . وظاهر الهجرة من القرية الى المدينة من اخطر ماتواجهه الدول المتخلفة من مشاكل تأمين العمل والسكن والوسائل الصحية ومكافحة الانحراف والاجرام .

رابعاً : زيادة في عدد الشيوخ والعاجزين .

ان استمرار ارتفاع ارقام الشيوخ العاجزين عن الانتاج يرهق المجتمعات باعباء اقتصادية واجتماعية بالغة الاهمية . ومشكلة زيادة عدد الشيوخ والعاجزين منهم خاصة معضلة اجتماعية اقتصادية خطيرة حتى في بلاد المتطورين .

خامساً : يتناسب عدد الاطفال عكسا مع دخل الافراد والعائلات ، فالفقراء اكثر انسالا من المنعمين « ان مائدة الفقير فقيرة ولكن فراشه خصب » .

وكذلك يتناسب عكسا مع مستوى الوعي والمسؤولية . ان طبقة الموظفين مثلا اقل اولادا من غيرهم من العاملين بالاجر . ومتوسط عدد اطفال العمال الجزائريين في فرنسا لايزيد عن ولدين . الطفل في المجتمع الزراعي يد عاملة تزيد من دخل الاسرة ، واكلاف هذه اليد اقل من حصيلة انتاجها . وعليه فالطفل مربح في الاقتصاد الزراعي البدائي طبعا ، بينما يكون الطفل في المجتمع الصناعي عبئا على الاسرة في السكن والطعام والمدرسة والجامعة . وحتى في العمل الزراعي توفر الآلة للمتطورين مايريدون وشراء الآلة ارخص من تربية الطفل . وهكذا تسعى العائلة في المجتمع الصناعي للتخفيف من كثرة الاولاد وتبقى الاستجابة في حدود غرائز الابوة والامومة .

وبعد ، هذه هي الصورة للتناقضات البشرية .

٤ ـ فماذا عن تناقضات الارض الصالحة لانتاج الغذاء :

اولا : وكما تفجر الجنس البشري على الارض انفجر الفكر الانساني في البلاد المتخلفة : ثورة حقيقية طموحة تريد ان تختصر القرون بسنوات ، بطفرة ، تريد ان ترفع من مستوى عيش المتخلفين ليلحق بركب الانسانية الكريمة .

يقول انشتاين : « لابد للعالم من أن يبدل من تفكيره بعد أن تبدلت وسائل العيش وتبدلت جذريا علاقات البشر ، فان لم يفعل فان الفوضى والخراب مصير الحضارة التي نعيشها والتفكير الجديد لابد وان يعتمد على الواقع الجديد بعيدا عن القوالب الفكرية المسبقة » .

كانت ردة الفعل Reaction في البلاد المتخلفة المستعمرة او المستثمرة بعد ان تحررت سياسيا ، ان في سياسة التسلح منعتها وقوتها .

ألم يكن السوط والبندقية اداة المستعمرين في استنزاف خيرات ارض المتخلفين ؟! فليدافع المتخلفون بالسلاح عن ارضهم الوطنية !!! لقد باع المتطورون سلاحا للمتخلفين كما باعوهم آلات ومصانع لم تعد رابحة نسبة لهم ! ! « أنوال النسيج ، مصانع الاسمنت وغيرها » واحتفظوا لأنفسهم بالصناعة الدقيقة والسلاح المتطور دائما . فكان سباق تسلح الشعوب المتخلفة كسباً جديداً وسوقاً استثمارية لأسياد الأمس واستنزافاً لجهد المتطلعين الى غد افضل .

وأبدع الاقوياء وسائل رادعة مدمرة ومخيفة ، وفتحوا ابواب مخازن سلاحهم القديم المكدس لتجارة جديدة بدل ان يلقوها الى البحر او الى الافران لتصهر حديدا !!

وصيانة هذه الاسلحة وتجديدها يحقق اغراضا مزدوجة ، ارباحا للصانعين وأثقالا اضافية للمتخلفين وهكذا تلتهم ميزانية التسلح ما يقارب ٥٠٪ من ميزانيات البلاد المتخلفة !!

ثانياً : ارض الشعوب المتخلفة قديمة استنزفت زراعتها ، دون صيانة ودون علم ، قوتها الانباتية اضافة الى عوامل الطبيعة القاسية من الجفاف والفيضان ، مما يجعل محاصيلها دون الكفاية ، بينما تستثمر الارض على أحسن شكل علمي واقتصادي في بلاد المتطورين .

حتى في الزراعة يبلغ انتاج الذرة في الولايات المتحدة ستة أضعاف انتاج المساحة نفسها من الارض الافريقية أو الآسيوية . وانتاج الحبوب في الهند لايزيد عن ٨ كنتال للهكتار الواحد بينما يبلغ متوسط إنتاج الهكتار في اليابان ثلاثين كنتالا !!

ثالثاً : لقد حولت الآلة المزرعة في البلاد المتطورة الى مصنع زراعي وأصبح بامكان العامل الزراعي في الولايات المتحدة أن يزرع وعلى أحسن مستوى ما يعادل الخمسين فدانا بينما لايمكن للعامل الزراعي في آسيا وافريقيا أن يزرع وفي مستوى منخفض اكثر من فدان واحد .

العلم والآلة جعلا هولندا البلد الذي انتزع ارضه من البحر مصدر منتجات زراعية وحيوانية يصدرها الى البلاد الزراعية تاريخياً .

رابعاً : أصبح الاستثمار الزراعي بعد معرفة الاسمدة وأدوية المكافحة ، على اختلاف أشكالها ، استثماراً رأسمالياً مركزاً يحتاج ليكون اكثر ربحاً لأرض اكثر سعة وآلات باهظة الاثمان . فقد ركزت الثورة الصناعية أدوات الانتاج بأيد قليلة وأصبح الاستثمار الزراعي مركزاً وحل بالمشاريع الزراعية الصغيرة في العالم المتطور ماحل بالصناعات اليدوية Artisanat منذ قرن ويزيد .

لقد تراجعت نسبة المزارع الصغيرة في الولايات المتحدة مابين عامي ١٩٥٥ الى ١٩٦٤ من ٤٣ ٪ لتصبح فقط ٤ ٪ من نسبة المزارع عامة . وأهملت أو انصهرت المزارع الصغيرة في الملكيات والاستثمارات الزراعية الواسعة لتبقى اكثر ربحاً واكثر قدرة على المنافسة .

وقد أمكن في البلاد الصناعية ، حيث لا بطالة بين العمال ، أن يتم هـذا التركيز الاستثماري دون عواقب اجتماعية واقتصادية بل ولمنفعة الاقتصاد القومي . بينا لايمكن أن يتم ذلك في البلاد المتخلفة . فان الفلاح الذي تطرده الآلة من ارضه عاطل عن العمل ولا مكان له . فالاصلاح الزراعي في البلاد المتخلفة هو في حقيقته اصلاح اجتماعي تفرضه ضرورات انسانية ولو أنـه من الوجهة الاقتصادية البحتة لايتفق ومصلحة الانتاج وتفتيت الارض واستمرار استثمارها افراديا يؤدي دائمـا الى هبوط الانتاج ولا يمكن تلافي مساوىء ذلك الابتجميع الارض في تعاونيات وارشاد علمي . وترك المجال فسيحاً للاستثمارات الرأسمالية في البلاد المتخلفة يأن تتجه نحو المزيد من الربح بالمزيد من الارض والمزيد من الآلة يؤدي الى عواقب اجتماعية خطيرة . فان الآلة المستوردة تطرد المزيد من العمال الزراعيين الذين لا مجـال لهم في الصناعة ، وهم عاطلون عن العمل مستهلكون وغـير منتجين . ويتقاسم أرباح الاستثمار الواسع اصحاب الملكيات الواسعة واصحاب مصانع الآلات والادوية وراء البحار ، أما الفلاح فانـه أجير موسمي أو عاطل مشرد .

ونتيجة كل ذلك ، ورغم رخص اليد العاملة في البلاد المتخلفة ، فان محاصيلها الزراعية ومواردها الخام تزاحمها في الاسواق العالمية منتجات زراعية افضل وأ كلافها افـل تصدرها البلاد المتطورة الى البلاد المتخلفة ومعنى ذلك ان المزاحمة القائمة قـد امتدت فشملت الانتاج الغذائي وتصريفه في الاسـواق .

ان التقنية الصناعية في العالم تتابع الفتح فتقضي على بعض الخامات الزراعية فان الخيوط المركبة والمستوردة قضت او تكاد على خيط الحرير والقطن والصوف والجـلود وغيرها من المنتجات الزراعية والحيوانية ؟!!

خامساً : تجتذب بلاد الرخاء رؤوس الاموال التي يملكها الافراد في البلاد المتخلفة هربا من نقمة البؤساء .

وتساعد الحسابات السرية في المصارف على امتلاء خزائن سويسرا وانكلترا والولايات المتحدة بالمزيد من حصيلة أرباح النفط في الشرق الاوسط ومدخرات كبار الرأسماليين في العالم المتخلف . ويتوفر لرؤوس الاموال المكدسة هذه المزيد من الفنيين والاختصاصيين . فان عدة مئات من الشباب العربي السوري مثلاً يرفضون العودة لأوطانهم بعد اختصاصهم . ولايمكن هـذه البلاد الناشئة ان تزاحم في اجورها ورفاها أيا من الولايات المتحدة او سويسرا او انكلترا !!!

حتى ان بريطانيا وفرنسا والمانيا تشكو من استنزاف الولايات المتحدة النخبة الممتازة من علمائها وفنييها الذين هاجروا اليها بحثاً عن مزيد من الربح والرفاه في البلاد الاكثر غنى .

وتحاول البلاد المتخلفة أن تستدين او تستورد الخبراء فتدفع أ كلافاً مضاعفة دون أن تحصل على ما تريد .

هجرة منظمة من رؤوس الاموال والفنيين نحو الغرب ليزيد كل ذلك في التناقضات العالمية العجيبة ! ! !

سادساً: المشكلة في الولايات المتحدة الاميركية تصريف فائض الانتاج وتخزينه ، تبلغ ميزانية شراء الفائض الغذائي والتعويض عن المزارعين الامريكيين تبلغ سنويا خمسة مليارات ومئتي مليون دولار ، ويدفع مصرف الاراضي في الولايات المتحدة المزارعين الامريكيين نقداً وسلفاً قيمة الدخل المنظور الذي يمكن ان يحصل عليه المزارع فيما اذا امتنع عن زراعة ارضه .

ان تعداد سكان الولايات المتحدة لايزيد عن ستة في المئة من سكان العالم وتبلغ قيمة انتاجها بشكل عام (الصناعي والزراعي) ٤٠٪ من إنتاج العالم .

وتقيم السوق الأوربية المشتركة ، الا الخاضعين لشروطها المجحفة ، الحواجز الجمركية أمام استيراد المنتجات الزراعية من بلاد العالم المتخلف .

ان الدول المتطورة قادرة على ان تمنع المتخلفين حتى من بيع محاصيلهم الهزيلة بأن تغرق الاسواق بمنتجاتها الفائضة .

سابعاً : أن الدول المتطورة متضامنة متعاونة فيما بينها بينما تعيش الدول المتخلفة عصر تناحر القوميات وتنافر المصالح المحلية فتزيد فوق ضعفها الاقتصادي ضعف موقفها السياسي لتبقى سوقاً استهلاكية للمتطورين .

ليست الوحدة العربية احلاماً في المجد والمنعة او دفاعاً سلبياً تجاه اسرائيل

لولا الوحدة الامريكية ووحدة الارض الصينية ووحدة العالم الشيوعي والسوق الاوربية المشتركة ولولا الكارتلات والترستات العالمية لما امكن للاقتصاد الوطني في هذه البلاد أن يزدهر وان يقف امام المنافسة .

الوحدة الاقتصادية العربية قد تضر بمصالح افراد وجماعات ولكنها ضرورة تفرضها ظروف العالم الجديد .

ان قيام التنافس في الانتاج وتكرار المصانع من اجل السوق الضيقة المحلية سيقضي على الجميع لتبقى اسواقنا مفتوحة امام السيل الجارف من وراء حدودنا القومية .

ثامناً : عمل الاستعمار خلال احتلال جيوشه الهند ومصر وغيرها من البلدان ان تبقى محاصيل هذه البلاد موحدة تعتمد على محصول واحد : الجوت والقطن في الهند والقطن في

مصر والسكر في كوبا والمطاط في اندونيسيا والقهوة في البرازيل . وكانت هذه البلدان تدفع باليمين ماتقبضه ثمناً لانتاجها باليسار وكانت سياسة المحصول الواحد تربط مصير البلد المتخلف بالمستعمرين فلاسبيل لتصريف المحصول الا بتكرم السادة بشرائه وبالاسعار التي يفرضون .

ان عجز الميزان التجاري لصالح المتطورين دائماً وفي جميع البلاد المتخلفة صورة رقمية لاستثمار المتطورين للمتخلفين .

تاسعاً : لايزال متوسط عمر الانسان في البلاد المتخلفة عاملاً هاماً في تخلف هذه البلاد فانه يقتل الانسان في سني الانتاج . ان ٥٤٠ من مواليد الهند يموتون قبل العاشرة من العمر ويموت منهم قبل الثلاثين تحن وستون في المئة أي في سن الانتاج والعمل أو قبل ذلك ايضاً .

وتسمع فوق كل هذه البلايا ان الانسان في البلاد المتخلفة كسول ومتواكل ويعني ذلك انه لايستحق العيش !!!؟ ان هذا الانسان الذي يعاني من الجوع ونتائج الجوع ، في انخفاض قدرته على الحركة والنشاط ، والذي يرى في ضباب يومه وظلام غده قدره المحتوم ، تستوي لديه الامور : جائع اذا عمل ، جائع اذا نام .

ان المشكلة المزمنة التي احتملتها الارض عبر قرون طويلة اصبحت مشكلة حادة خطيرة نتيجة للزيادة الفاجعة الثورية في الميزان الحياتي . وكذلك نتيجة لتطور التقنية السريع بما يباعد الشقة في الاعداد وفي البؤس بين المتطورين والمتخلفين .

ان توفير العناية الصحية والدوائية للناس دون رفع المستوى المعاشي لهم تعقيد لمشاكل وطنية وعالمية ايضاً . ويبدو ان نقل المعارف الصحية والطبية وتطبيقها اسهل على الشعوب المتخلفة من رفع مستوى عيشها ، فان استعمال الدواء اسهل من استعمال الآلة وصيانتها والانتاج بها .

لاعلاج لمشكلة الجوع العالمي إلا بايجاد حلول لمشكلة الخبز والفولاذ « الزراعة والصناعة ». وأن تتكاملا وتتعاونا على مستوى عالمي ايضاً . وبلغة الاقتصاد السياسي لابد أن يتكامل ويتعاون ثلثا العالم الجائع المنتج زراعياً مع ثلثه المنتج صناعياً والمتطور . ومن هنا مفتاح مشاكل حياة الافراد والجماعات في جميع انحاء الارض .

لقد كان التوازن كاملا في اليابان بين الوفيات والمواليد حتى منتصف القرن التاسع عشر فلما بدأت هذه البلاد حركة التصنيع وانتهت عزلتها عن العالم تضاعف عدد سكانها ثلاث مرات خلال ٧٥ سنة فقط . وانخفض مستوى العيش فيها بسرعة فانفجرت اليابان بسكانها وشنت حروبا استعمارية لضمان مجال حيوي لمنتجاتها البشرية والاقتصادية .

وفي الصين حيث يعيش ٧٠٠ مليون انسان امكن التغلب على وفيات المجاعات «وكانت تقدر في القرن الماضي بعشرات ملايين البشر سنويا » « أمكن التغلب على الجوع المقيم ولفترة زمنية بفضل تنظيم العمل والانتاج والتوزيع » . فمتى متى ستبقى هذه الارض القديمة جدا كافية لاعالة عشرات الملايين مما تلد الارحام سنويا ؟ ! وحتى متى يستمر هذا الصبر على الحرمان اذا ماعادت قصة الجوع تهدد مئات ملايينهم بالموت ؟ !

يقول اللورد بويدور Boydorr ان الجوع أخطر على مستقبل البشرية من القنبلة الذرية .

لقد عرف العالم الحديث ثورتين متلاحقتين الاولى ثورة علمية بدأت في القرن السادس عشر ، وأعقبتها ثورة صناعية بدلت من مفاهيم مجتمعات التخلف الزراعي السائدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وكانت حصيلة التركيز على الانتاج الصناعي ثورة الفكر الاشتراكي والعدل الاجتماعي .

لقد كان السياج الوطني والقومي حدودا تحفظ للبلدان المتطورة امتيازاتها . وقد حاولت هذه القوى متحالفة ومتناحرة أن تصفي العالم لحساب احدى الكتلتين في حربين عالميتين متتاليتين ، فلما فشلت في السيطرة التامة ورأت ازدياد قوة الرأي العام العالمي فانها تحاول اليوم أن تتماسك وتتعاون للابقاء على امتيازاتها .

حتى الثورة الصناعية التي حلت مشكلة رفع مستوى العيش في البلاد المتطورة لن تنفع في البلاد المتخلفة اليوم الا للدفاع السلبي امام غزو الصناعات الاجنبية . واذا ارادت أن تغزو اسواقاً جديدة فعليها عندئذ ان تتبع اسلوب الاستعمار ومناطق النفوذ التي انتهجتها قوى الاستعمار القديم في القرون السابع والثامن والتاسع عشر ولن تعود عقارب الساعة الى الوراء .

ليست كثافة السكان لوحدها سبباً في بؤس آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية فان بعض مناطق ألمانيا وانكلترا أكثر ازدحاماً من الصين ولكن تماسك هذه القوميات ودمج جهودها المشتركة جعل من مستوى العيش فيها بلاداً متطورة وأبقى الآخرين متخلفين وجياعاً .

ان الوحدة العربية وفكرة الوحدة الافريقية وأخيراً فكرة تضامن وتعاون الدول المتخلفة كما حدث في باندونغ وغيرها آمال ترقى الى درجة العقيدة بين الدول المتخلفة المتطلعة الى غد أفضل وهي السبيل الوحيد للحاق بركب المتطورين والحد من اطماعهم .

هذا على المستوى العالمي فكيف الوضع في المجال المحلي والوطني

ان الحقد الطبقي الذي نشعر به في المجال المحلي والوطني والقومي أصبح بفضل انتشار التعليم ووسائل النقل والاذاعة حقداً طبقياً عالمياً يشمل الانسانية بجميع اقطارها .

ان تناقض المصالح الطبقية في الحدود الوطنية ايضاً ، والاختلاف الكبير في مستوى

يتراوح متوسط سن الزواج للنساء في البلاد العربية بين ١٥ – ١٩ بينما يبلغ هذا المتوسط في البلاد الاوروبية ٢٥ – ٣٤ . اي بزيادة خمس سنوات . ونتيجة لذلك فان نسبة الولادات في تونس تزيد ٣٠ ٪ عنها في السويد وتصل هذه الزيادة حتى ٥٠٪ في المغرب . ووفيات الاطفال تدفع الاهل الى زيادة المواليد . ولاتزال هذه الوفيات تبلغ وسطياً ٢٠٪ من الولادات في السنة الاولى من عمرهم .

ان من الاسباب البارزة لزيادة الأنسال ، في البلاد العربية والاسلامية عامة ، الطلاق والزواج فان فراق الزوجين لايتركها في العزوبية بل ان كل منهما يتزوج مرة ثانية وينجب . وهذا يجعل الاخصاب مستمراً . ولم يعد تعدد الزوجات سبباً هاماً للأنسال الزائد فقد اصبح نادراً لاتتجاوز نسبته ١–٢،٥٪ فقط من الزيجات . ورغم الصعوبات القانونية في تعدد الزوجات في بعض البلاد العربية فان الزواج بعد الطلاق أمر شائع ويكاد يكون حتمياً الزوجين .

ظواهر التحول في المجتمع العربي :

ان التحول اكيد في تغيير المفاهيم نتيجة للتطور العلمي والاقتصادي ، واثار التشريع والارادة الفردية لاتزال محدودة في هذا المجال .

فان زوال آثار التفكير العشائري ، والهجرة للمدينة ، وسيادة فكرة الأبوة العائلية Famille patriarcale (١) والوعي المتزايد في التطلع لحياة افضل ، أي تراجع فكرة التواكل وعدم الاهتمام بمصير الطفل ، كلها ظواهر تبدو واضحة في تغيير قواعد المجتمعات العربية .

ففي المغرب مثلاً ، حيث تظهر طبقة جديدة من العمال ، لايزيد متوسط عدد الاطفال في العائلة عن ١–٢ في مدينة الدار البيضاء . وكذلك تتراوح نسبة العزوبية بين عمال المناجم المغربيين بين ٦٠–٣٠ ٪ منهم . وهذا يناقض تماماً ندرة العزوبية في المجتمعات الزراعية القروية في المغرب نفسه .

تحديد النسل في البلاد العربية :

ان اهتمام خطط التنمية بمكافحة الامية والبطالة والاصلاح الزراعي والتصنيع يستلزم في نفس الوقت ، معرفة عدد المنتفعين من نتائج هذا الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي . وزيادة الانسال معضلة خطيرة بالنسبة لبعض البلدان العربية التي تستهلك وتستنفد كل امكانيات هذا الاصلاح باملاء الافواه الجديدة المتزايدة الجائعة .

---

(١) ان الولد في المجتمع العشائري ينسب لاخواله أي لأمه لأنها الاثبت في حياة الطفل بينما الأب شيء عابر في حياة العائلة .

الوعي بين مجتمعات البلاد المتخلفة ، يعرقل ويكاد يوقف تطور اقتصاد هذه البلاد ، انها تدخل دون ارادتها معركة الاصلاح الاجتماعي قبل ان تثبت اقدامها في الانتاج والتطوير . والثورة الاجتماعية مفروضة على اقتصاد البلدان المتخلفة ولا يمكن كبح جماحها او اقناعها بالمنطق ان تتريث حتى يزدهر الاقتصاد ليتم توزيع ما يستحق التوزيع !!!؟

فالبلاد المتخلفة تواجه اليوم مشكلتين متناقضتين اقتصاد وطني متخلف يتطلب التركيز ليزدهر ويقف امام المنافسة العالمية . وجماهير شعب محرومة تريد حقها في الحياة الكريمة على الارض الوطنية وتجعل من التوزيع العادل للدخل قضية أولى قبل زيادة هذا الدخل او تنامي حجمه على الاقل .

والصورة التي رسمت فتناقضات على المستوى العالمي تنطبق تفاصيلها ايضاً في المجال المحلي الوطني :

قلة بيدها مفاتيح السلطة : العلم والمال والانفتاح على العالم تريد ان تحتكر لنفسها اسباب العيش وسواد يحاول ان يفرض العدل الاجتماعي على الأرض الوطنية .

ليس المهم في تطوير الاقتصاد رفع ارقام الدخل القومي بل النظر في توزيعه ايضاً فان الدخل الوسطي بالنسبة للفرد الواحد من سكان فنزويلا المصدرة للنفط يعدل تماماً دخل الفرد الواحد في فرنسا مثلا وهو الف دولار سنوياً فهل يمكن مقارنة المستويات الثقافية والماشية بين البلدين ؟!! الفارق في الحالتين استئثار حفنة من الناس في فنزويلا بأرباح النفط وتوزيع عادل نسبياً للدخل في فرنسا .

وعلى المستوى الوطني وحتى في بلد الثراء والرفاه في الولايات المتحدة أعلن الرئيس جونسون منذ شهور أن من الواجب كفاح الفقر War against Poverty لا في العالم بل في حدود البلد المتطور ؟!! لقد قال كلاماً صحيحاً من الوجهة الوطنية اذ أعلن ان صورة الفقر في الولايات المتحدة أشد ايذاء واكبر خطراً منها في اية بقعة على الارض . فقد اعتاد الانسان الآسيوي والافريقي أن يعيش الفقر والجوع ؟!! ولكن مشاعر الانسان المحروم في البلد الغني تكون لاهبة وقد تدفع بالانسان للاجرام . « علماً بأن مايراه الامريكي جوعاً هو عند الآسيوي الافريقي التخمة بعينها » . لقد قدر الرئيس جونسون عدد فقراء الولايات المتحدة بـ ٢٥ مليون انسان .

والسؤال اين أمل البشرية بالخلاص ؟ :

ان محاولة اقناع العامل في البلاد المتطورة او صاحب المصنع او البنك ان يتنازل عن ارباحه وعن رفاهه من اجل الاخوة الانسانية تعادل تماماً محاولة اقناع العامل الآسيوي الواعي بأن يرضى ويهنأ بجوعه وعريه وربما كانت مهمة اقناع الجياع أسهل من الحد من جشع المتخومين؟!

لقد اضطرت الولايات المتحدة الامريكية للتدخل في توجيه الاقتصاد الوطني بعد أزمة عام ١٩٢٩ وعجزت المانيا عام ١٩٣٩ عن حل مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية فشنت حرباً أو حربين عالميتين من اجل المجالات الحيوية واليوم تقوم الحرب الباردة على دعامتين :

١ – الحرب بين الرأسمالية والاشتراكية .

٢ – محاولة اقناع العالم الثالث بامكانية حل مشاكله بأحد هذين النظـامين ؟! أفلا تستحق معضلة العالم الكبرى قيام منظمة ذات سلطان لتتدخل في تنظيم شؤون العالم المضطربة ؟!؟ وذلك بديلا عن الحرب التي ستأتي على الحضارة الانسانية بكاملها .

ان عرض مشكلة التناقضات العالمية وايضاح خطوطها الكبرى والتركيز على مكامن الاخطار فيها دعوة تصدر عن جميع الهيئات والمنظمات الوطنية والدولية في البلاد المتطورة قبل المتخلفة .

ويبدو الخلاف حاداً بين مذاهب الاقتصاد السياسي لايجاد الحلول المناسبة للمعضلة الانسانية الكبيرة فبينما تدعو الدول المتطورة لتحديد النسل كوسيلة لمعالجة مشكلة الجوع العالمي وتؤكد ان العدد المناسب لامكانيات الارض لا يجوز ان يتجاوز رقم ٧٠٠ – ٩٠٠ مليون نفس Pendell و Peerson وهذا يعني ان لا مكان على الارض للمتخلفين ؟!

يرى النظام الاشتراكي ان الجهد يجب ان يركز لتنظيم وزيادة الانتاج الصناعي والزراعي وتنظيم المبادلات على اساس الحاجة والتكامل لا الربح .

وأساليب الاشتراكيين للوصول الى ذلك مختلفة ايضاً : يرى الذين وصلوا او القادرين على التنافس مع الدول المتطورة ان التفاهم والسبل الديمقراطية ستؤدي الى الغاية المرجوة ، بينما يرى المتخلفون الذين لا يزالون بعيدين عن ادراك مستوى يمكنهم من الصمود ، ان في نزع السلاح والتطوير السلمي خيانة لمبادىء الثورة العالمية التي لابد وان اؤكد على حتميتها في الصراع بين الجياع والمتخومين !!؟

يقول الغربيون ان مصدر الخطر زيادة الانسال في البلاد المتخلفة وان على السلطة الدولية ان تعمل للحد من هذه الزيادة التي تهدد نعيم المترفين . فمتى كان للقوانين سلطان على فراش الانسان وانساله ؟!؟ ويرى الشرقيون في هذه المشكلة موضوعـاً يحتم ضرورة الثورة ويقرب يومها كلما ازدادت المشاكل تعقيداً .

في رأي المؤرخ البريطاني توينبي ان عدد الحضارات التي مرت على الارض منذ سكنها الانسان بلغت واحداً وعشرين حضارة تعيش اليوم واحدة منها .

وكانت هذه الحضارات من صنع الانسان ومن اجل ضمان حاجات جديدة تنجم مع

اوضاع المجتمعات المتبدلة . لقد زالت هذه المدنيات عندما اخفقت في تحقيق مثل جديدة ولدت حاجات جديدة .

فنحن نواجه غدا مصير حضارتنا فاما انها الى زوال وقد فشلت في ضمان الخبز للذين وفر لهم الطب حياتهم ، او ان تنسجم مع ظروف البشرية الجديدة فتقيم بارادتها مجتمع الوفرة والعدل والسلام .

ان مصير الانسانية واحد كوجودها على كوكب واحد .

اني ارى بان التهديد الذي واجهه بعض الانواع الحيوانية على الارض : الثور الامريكي ، الأسد الافريقي ، الخرتيت وعدد كبير غيرها من الحيوانات التاريخية ، والذي يكاد يقضي عليها نتيجة لاستصلاح الأرض والبندقية والسيارة .

اني ارى ان عوامل الفناء هذه ، الخارجة عن ارادة القطعان الحيوانية ، تهدد الصياد الانساني في قطيعه البشري بالفناء اذا استمر غير واع او تعامى عن رؤية التناقضات وبذور الخطر التي تهدد مستقبله على أرضه .

فان تكاثر بعض الانواع الحيوانية ظاهرة طبيعية معروفة في علوم الاحياء . يتكاثر الجراد لاسباب لا تزال نجهلها وترمي اسرابه في البحر وكأنها تنتحر ، وكذلك تتكاثر انواع من الاسماك والفأر في كندا وتتجه بلايينها نحو البحر منتحرة ايضا . فهل ينتحر الانسان بقبضة يده وبعد ان دانت له قوى الطبيعة فتفجر ذرتها وتسلق فضاءها ؟! يسوقه قدره الى مصيره المحتوم كغيره من الاحياء ؟!! ام انه سيؤكد انه متميز عن الاحياء الآخـــرين لا بالنطق بل بالمنطق والادراك ؟!؟

ولنناقش هذه الاحتمالات :

اذا حدثت حرب نووية عالمية فسيؤدي ذلك لنقص اكيد في عدد سكان الشعوب المتطورة قبل المتخلفة لان التركيز سيكون على الاقوياء لا على الضعفاء . ان القاء ٢٥٠ قنبلة حرارية نووية Thermo nucléaire على الولايات المتحدة « وقدرتها المخربة تبلغ ١٥٠٠ ميكاتون من المتفجرات » يقضي بالموت على ٥٠ مليون انسان و ٢٠ مليون جريح « تقدير لجنة من الخبراء الامريكان عام ١٩٥٩ » .

وما الربح الانسانية من ذلك سوى الدمار الشامل .

ان حربين عالميتين متتاليتين زادتا من تعقيد مشاكل العالم ولم توجد لها حلولاً . ونحن نشهد في السنوات الاخيرة ادراكا أعمق واشمل لمعضلات العالم الانسانية .

البديل عن الحرب المدمرة الشاملة تعاون دولي في اقامة عدل انساني في اوسع مفاهيمه رفع من مستوى العيش في البلاد المتخلفة ويقيم اسسا عادلة للمبادلات .

البديل الوحيد عن الحرب التعاون الدولي على الارض وقيام هيئة تهيمن على توزيع الفائض من الغذاء حيث تدعو الحاجة اليه ، هيئة توازن وتحكم بين الكتل الكبيرة . هيئة تبدي المشورة في الحد من زيادة الافواه الجائعة التي تهدد الجيران القريبين والبعيدين ايضاً .

ان في نجاح الانسان باستخدام الطاقة الذرية لتحويل مياه البحار اقتصادياً الى مياه حلوة تندفع في قلب الصحارى الى مزارع ، وفي استخلاص الغذاء من البحار التي تغطي ثلاثة أرباع الكرة الارضية آمالا عريضة تبشر بغد أفضل للبشر جميعاً .

يقدر الخبراء ان المستثمر من ثروات البحر لايزيد حتى الآن عن $\frac{١}{١٠٠}$ من ثروتها الحقيقية .

ان الفكر العالمي وفي البلاد المتطورة بشكل خاص يركز على وحدة مصير الانسانية ويبشر بقرب قيام تعاون عالمي يفتح صفحة جديدة من التاريخ البشري . ولنترك التاريخ بعد ذلك يقرر البقاء للاصلح لا للاقوى فان ترك الحبل على غاربه هو عودة لشريعة الغاب التي دمرت العالم مرات عديدة عبر التاريخ .

والمعضلة الكبرى الحقيقية والتي هي مفتاح السلام في العالم هي في امكان استبدال « أنا » الغريزية « بنحن » وتعني الجنس البشري دون تمييز في اللون أو الجنس أو العرق أو أية تفرقة اخرى .

لقد تنازل الانسان عن معنى « الأنا » الضيقة عندما انتظم في الاسرة والعشيرة والطائفة والقومية ، فهل يخطو بجرأة ، ويتجاوب مع واقع العالم الذي يزداد صغراً ، فينتهي الى غير عودة قلق الخائفين وجوع المحرومين .

وأخيراً هذه هي صورة المعضلة الانسانية الكبرى في حدودها العالمية والوطنية فما هي ابعاد وأعماق هذه المشكلة نسبة لبلادنا العربية :

تختلف حدة مشكلة زيادة السكان باختلاف الاقطار العربية ، انها حادة نسبة للقطر المصري ولكنها غير ظاهرة الاثر حتى الآن نسبة للاقطار الاخرى .

تعود اسباب زيادة الانسال في البلاد العربية للزواج المبكر خاصة ، ونتيجة للتمسك بمفاهيم وتقاليد من العسير جداً الا مع الزمن تغييرها . فان عقم المرأة مثلا عار كبير يستوجب الطلاق والعزوبة مظهر غير طبيعي فان نسبة النساء العازبات في سن ٣٠ تتراوح في البلاد العربية بين ١٠ ـ ٢,٦./· وبمقارنة هذه الارقام مع بلد اوروبي كالسويد مثلا حيث تبلغ هذه الارقام ٢١,١ و ٢٠,٩ ندرك الفارق الكبير فلا وجود للبطالة في وظيفة الانسال !

يعاني القطر المصري بشكل خاص من الزيادة المتسارعة في عدد سكانه ، وتهدد هـذه الزيادة بفشل جميع محاولات الارتفاع بمستوى العيش « تبلغ هذه الزيادة في الوقت الحاضر نصف مليون انسان سنوياً » .

وهكذا وضعت خطة لتنظيم الاسرة « Birth control »

وقـد كان موقف السلطات الحاكمة قبل ١٩٥٣ موقف التفرج « Laissez faire » وكذلك كان موقفهم لسنة للاقتصاد . وبعد الثورة المصرية تألفت هيئة استشارية اعلنت رأيها عام ١٩٥٤ وأكدت فيه ضرورة الاهتمام بمشكلة الزيادة الكبيرة في السكان .

وشجع مصر على اتباع هذا الطريق ما اتخذته الهند والصين « وهي تواجـه مشاكل مشابهة » من اجراءات في هذا السبيل .

وأعلن بعد ذلك الشيخ رضوان أحمد رضوان انه اذا لم يتمكن المسلم من تنشئة طفل مكتمل الجسم والعقل فان عليه ان يحد من عدد اطفاله ، وان من حق كل مخلوق ان يجـد كفايته من الغذاء والكساء وان طفلين مكتملين خير من عشرة مشردين وجياع » .

وفي شهر مايس عام ١٩٥٦ قررت الجمهورية المصرية تنظيم الاسرة وأوجدت ستة مراكز للقيام بذلك في المدن والمناطق الاشد ازدحاماً بالسكان حيث يجري فيها الاجهاض القانوني ، بعد بحث طبي واجتماعي ايضاً . كما تستقبل هذه المراكز المراجعين لارشادهم الى السبل المانعة لتكرار الحمل واستعمال مانعاته وزيد عدد هذه المراكز لتصبح ١٢ مركزاً عام ١٩٥٧ وزيدت في العام الحالي الى مئة مركز .

وكان ان وجهت مصر بعد ذلك اهتمامها ايضاً الى كسب معركة التصنيع والتعليم من اجل تحسين الظروف الاقتصادية والاجتماعية . وبالتالي التأثير على زيادة النسل بالاضافة الى مراكز تنظيم الاسرة وادخلت مانعات الحمل بأسعار زهيدة وخاصة أنواع من الحبوب توزع مجاناً للعاجزين عن شرائها .

وشرعت تونس تمنع تعدد الزوجات وتقيد الطلاق بحكم قضائي وتحدد سن الزواج للبنات.

ان جميع هذه المحاولات والتشريعات ستبقى عديمة الجدوى اذا لم يرتفع مستوى الوعي عند المرأة ، واذا لم تتطور الامكانيات المادية والفكرية لسواد من الناس في القرية وفي المدينة على السواء وعسير علينا في الوقت الحاضر ان نعرف مدى التوفيق في كسب معركة رفع المستوى المعاشي بين الزيادة في الدخل القومي والزيادة الاكبر في الافواه الجائعة .

العلم يقرّر ولا يفسّر

للدكتور محمّد عبد الرحمن مرحبا

— بيروت

يتساءل الناس احيانا عما اذا كان العلم من شأنه ان يفسر ظواهر الاشياء ويعللها ام ان يصفها ويقررها . وترى الاكثرية الساحقة من المعجبين به والمنافحين عنه انه تفسيري في قوامه وانه لايمكن الا ان يكون تفسيرياً.

ولكن الراسخين في العلم يدركون ادراكا تامـاً لاسبيل الى الشك فيه ان العلم وظيفته وصف الظواهر وتقريرها لاتعليلها ، ويتركون للفيلسوف ـ دون ان يكتموا سخريتهم منه ـ مهمة تفسير كل شيء !

انا لا انكر ان العلم كان في اذهان واضعيه الاوائل يراد به تفسير الوجود فقد كان العلماء في اول عهدهم بالعلم يهتمون بمعرفة « لماذا ؟ » قبل كل شيء آخر . ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد ان تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها .

فلقد ترك العلم للفلسفة منذ عهد طويل مهمة الاضطلاع ببحث العلل النهائية للوجود بعد ان عجز في هذا المضمار ولم يسفر بحثه فيه عن شيء البتة .

وكذلك تخلى عن وهم تفسير التالي بالمقدم . فمن منا لا يذكر ، تحليلات مالبرانش وهيوم المشهورة في هذا الصدد ؟ فلو صح ان المقدم يمكن ان يلقي ضوءاً على التالي ، فليت شعري من ذا الذي لا يرى ان العقل لم يفعل شيئا اللهم ألا انه ازاح التفسير الموعود به قليلا الى الوراء ، لأن كل مقدم يتطلب هو ايضا مقدما آخر يلقي ضوءاً عليه ، وهكذا دواليك ، وذلك بحكم نزعة العقل الى تفسير شيء ، وهي نزعة لا تقف عند حد ولا يشبع نهمها شيء ولا يقنع غليلها كل تلك التفسيرات المصطنعة الموقوتة لحلقات دون أخرى من حلقات الطبيعة .

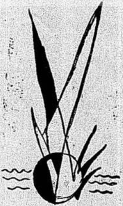
وكذلك كل غاية تتطلب غاية اخرى توضحها وتبين الغاية منها . وذلك بحكم نزعة العقل عينها ايضا .

وبعبارة اخرى ، لقد انقلب اليوم معنى التفسير في العلم رأسا على عقب واصبح له مفهوم آخر : لقد اصبح يطلق على صوغ قوانين الاقتران والتعاقب بين الظواهر الطبيعية . وهكذا فنمو فكرة القانون قد انتهى بالقضاء على فكرة العلة . لان وضع القوانين ليس معناه تعليل هذه القوانين . فلا تعليل ولا تفسير وكل ما هنالك ربط وتنسيق واقامة شبكة من العلاقات ، وهيهات ان يفسر ذلك شيئا .

فلنقل اذن دون مواربة ان هذه النزعة التفسيرية للعقل تقضي على ذاتها

بذاتها وتبدو في آخر الأمر لاعقلية . فكل مايمكننا فعله انما هو ان نصنع شيئاً من النظام في الحقيقة المشوشة ، وان نصنف الوقائع التي لاتتناهى في تعقيدها ، وان نستخلص البسيط الذي يغشاه ويرين عليه ركام كثيف من المركب ، وبكلمة واحدة : ان نعطي معنى لما لامعنى له ، بحكم اننا كائنات عاقلة لا تني ولا تنثني عن اضفاء ثوب فضفاض من العقل على مالاشأن له بالعقل ، تحقيقا لوجودها ، وارساء لقواعدها ، وتعميقا لمعناها ، وامعانا في شعورها بذاتها .

يخلص معنا من كل هذا ان العلم في حقيقة امره لايفسر شيئا ، وانما هو يربط وينسق ويلاحظ ملاحظة منهجية ، وبالتالي يصف ويقرر . ان هذا ليس فهما للاشياء ، ولكنه تعرف عليها . ولاضير علينا في ذلك ، بل ان ذلك لايخلو من الفائدة ، لان فيه تحسساً بما يجري حولنا ، وتسخيرا له في اغراض وجودنا ، وتغييرا لذواتنا وللاشياء . وحسب التقرير — لا التفسير — ان يفعل كل هذا او بعضه ، وليكن في ذاته ماشاء له ان يكون .



كسب المعرفة

بالخبرة والمعاينة والتفكير

بقلم محمد عبد الغني حسن

القاهرة —

اذا كانت المعرفة تكتسب بالحفظ والتذكر في بعض المسائل، فانها في الأغلب الأعم تحصل عن طريق الخبرة والتفكير. ومن هنا كان «التفكر» و «التدبر» و «النظر» و «البصر» و «الابصار» هي الالفاظ التي أدارها القرآن الكريم في غير موضع للدعوة الى سبر هذا الكون العجيب الذي يحيط بنا من اقطارنا.

واذا كانت التربية الاسلامية قد اتجهت يوما ما الى الاستظهار والحفظ، فأن حفنة كريمة من مفكري العرب قد دعت الى الفهم والمعاينة والتجربة في التحصيل فان الشيخ الحكيم برهان الاسلام قد نصح المتعلم في كتابه قائلا : (وعليه أن لايكتب شيئا لايفهمه، لان ذلك يورث كلال الطبع، ويذهب الفطنة، وينبغي له أن يجتهد في «الفهم» من الاستاذ، ويكثر من التأمل والتفكير).

ولقد كان رحالة عربي مؤرخ كالمسعودي مثلا صاحب كتاب « مروج الذهب » لايقبل الاخبار عن البلاد والعباد كأنها قضايا مسلم بها ، بل يعرضها على محك العقل ويناقشها مها كان مصدرها ، ويستطلع المسائل بنفسه وبعيني رأسه ، فاذا لم يجد مايقصده سأل عنه اكثر من مصدر ووازن بين الاقوال ، ورجح أقربها الى العقل قبولاً .

وكذلك كان المؤرخ ابن خلدون يتناول الاخبار والاحداث التاريخية بالفكر والنقد والوزن الصحيح والتقدير السليم ، فهو لايحصل المعارف التاريخية عن طريق الحفظ وحشد المعلومات مها كانت متضاربة ، ولكنه يقف امام المعرفة الواحدة فيناقشها ويعرضها على موازين العلم المعروف لديه ، أوطبائع الاشياء المستقرة ويخرج من ذلك غالباً بالرأي الصواب .

ويختلف تقدير المعارف وسبرها وعرضها على محك العقل بين ناقد وناقد ، فالمسعودي الذي يؤمن بمذهب « المعاينة » في كسب المعرفة التاريخية قد نراه مثلا يتزلق الى تصديق بعض الخرافات التي سمع بها فينقلها في احد كتبه كأنها قضية مسلمة ، فيجيء بعده ابن خلدون المؤرخ بمئات من السنين فينقده قائلا : (وكما نقله المسعودي ـ ايضاً ـ في حديث مدينة النحاس وانها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ، ظفر بها موسى بن نصير في غزوته الى المغرب ، وانها مغلقة الابواب . وان الصاعد اليها من أسوارها اذا اشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه ، فلا يرجع آخر الدهر ... في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والادلاء ، ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ، ثم ان هذه الاحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للامور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها ، وان المعادن غاية الوجود منها ان يصرف في

الآنية والخرثي ـ أي أثاث البيوت ـ وأما تشييد مدينة منها فكما نراه من الاستحالة والبعد ..)

ولعل « الجاحظ » يأتي اولا في تاريخ العرب من حيث ايمانه بالمذهب التدريبي العملي في تحصيل المعرفة ، على الرغم مما يحيط بالأريب عادة من ملابسات الحفظ والاستظهار .

لقد كان رجال من امثال بديع الزمان الهمذاني والخوارزمي وابن العميد وابي تمام والصاحب بن عباد يتباهون بمحفوظهم الطائل الذي رويت لنا منه الاعاجيب ، وكانوا يحشدون المعارف في اذهانهم حشدا عن طريق الحفظ ، وغالوا في ذلك الى حد التحدي امام الخلفاء والامراء ، ولكن الجاحظ الأريب معلم العقل لم يؤمن بالحفظ قدر ايمانه بالتجربة والمعاينة في كسب المعارف . ويقول في ذلك : (ليس يشفيني الا المعاينة) ، فهو لا يعتمد على السماع والنقل والحفظ . ولكنه يعتمد على المشاهدة والاستبصار والخبرة كما يفعل المربون التجريبيون في زماننا هذا . وفي كتابه «الحيوان» عشرات وعشرات من التجارب التي أجراها هو بنفسه ليصل الى مايود الوصول اليه من معرفة .. فقد اجرى تجربة على الافعى لبيان حركتها بعد موتها بالذبح وفَرْي الأوداج تارة ، والقبض على خرزة عنقها تارة اخرى ... كما اجرى تجربة على الجُعَل ـ او الجعران ـ والخنفساء للتأكد مما يقال من خمود الحياة فيهما اذا وضعا او دفنا في الورد ، وعودة الحياة اليهما اذا اعيدا الى الروث الذي يقيمان فيه .. وبعج مرة ـ وهو بمصر ـ بطن عقرب ليتحقق مما يقال من ان العقرب تحمل في بطنها عشرات من العقارب الصغار ، ويقول في ذلك : (كنت بعجت بطن عقرب اذ كنت بمصر فوجدت فيه اكثر من سبعين عقارب صغارا ، كل واحدة منها نحو أرزة ...)

والجاحظ في مناداته على كسب المعرفة بطريق الخبرة والتدريب يذكرنا بما نادى به الفيلسوف « بيكون » بعده ببضعة قرون ، وهو في هذا المذهب التجريبي في تحصيل المعرفة سابق على أبي التجربة عند الانجليز وعلى من جاء بعده من التجريبيين ... فهو سابق على « رابليه » الفرنسي من رجال القرن السادس عشر الميلادي الذي دعا في مثابرة واصرار الى نبذ المذهب الجدلي في التعليم وهو المذهب الذي كان سائدا في عصره . وما أروع « رابليه » ، وهو يكتب الى « بانتا جرويل » بطل روايته المشهورة التي تحمل هذا الاسم : (اما فيما يتعلق بمعرفة وقائع الاشياء وحقائق الطبيعة ، فأود ان تهب لها نفسك في كثير من التشوف والاستشراف والتطلع وحب المعرفة ، كما اريد لك ان لاتترك بحرا أونهرا أونبعا دون ان تحيط خبرا بما في جوفه من اسماك ، وان لايفوتك معرفة شيء عن الطيور والاشجار والشجيرات ، وجميع ماتنبت الارض من عشب ،وما تكتنز في جوفها من معادن واحجار ، من الشرق الى الغرب . وعليك ان تمتلك زمام معرفة « الانسان » ذلك العالم المملوء بكثير من الغرائب ، ولن تتأتى لك معرفة الا عن طريق التشريح للجسم الانساني . وبمجمل القول : ينبغي لك ان أرى فيك لجة غزيرة من العلم) .

ودعوة رابليه الى النظر في « الانسان » تعود بنا الى ماجاء في القرآن الكريم من قوله تعالى : (وفي انفسكم أفلا تبصرون) ، كما تعود بنا — في زماننا هذا — الى الطبيب الفرنسي المشهور « ألكسيس كاريل » الذي توفي في اخريات الحرب العالمية الثانية ١٩٤٤ ، والذى ألف كتابه المعروف : « الانسان ذلك المجهول » .

واذا كان الجاحظ يكتسب « المعرفة » والعلوم عن طريق اجراء التجارب

والمعاينة — كما فعل مع العقرب والجمل والشبوط — حين ذاق لحمه ليعرف طعمه !
فان « رابليه » اوصى بأن يكتسب بطل روايته : « بانتا جرويل » المعرفة عن طريق الاستخبار والمشاهدة والمعاينة في الحقول وفي قلب الريف : (ماراً ببعض المروج والاماكن الاخرى المعشبة ، معرجا على كل شجرة باسقة ، وكل نجمة نابتة ، مقارنا بين ماراه بعينه ، ويلمسه بيده . أو بين ما كتبه عنها الاقدمون ، وحاملا منها نماذج ملء كفيه الى منزله) .

ولقد زاد « كومنيوس » — من معلمي القرن السابع عشر الميلادي — من طريقة رابليه في التجربة والحدس الحسي ، ووسع اطارها ومفهومها ، ونقلها نقلة عريضة ، وهون من شأن « الكتاب » المكتوب ، وأعلى من شأن كتاب آخر مفتوح الصفحات ، حي المادة ، هو : « الطبيعة » ، وحمل على حشو أذهان الطلاب بالكلام المحفوظ ، والعبارات المرصوفة ، والجمل المرصوصة . ومن كلامه في هذا الشأن قوله : (لم لا نفتح كتاب الطبيعة الحي ، بدلا من تلك الكتب الميتة ؟ ان التدريس للناشئة والمراهقين لا يعني أن نحشو في اذهانهم سيلا من الالفاظ والجمل والاحكام والآراء التي نلتقطها من الكتب ، ولكن يعني أن نفتح جداول ذكائهم عن طريق الاشياء الحسية ذاتها . ان اساس كل معرفة هو أن نحسن اطلاعنا — او بالاحرى اطلاع حواسنا — على الاشياء المحسوسة كي يسهل علينا تصورها وفهمها) .

وعلى حين كانت فرنسا في القرن الماضي غارقة في لجج « المناهج المحفوظة » — على الرغم من معارضة جوستاف لوبون وغيره لها — كانت انكلترا مثلا تتمتع مدارسها ومعاهدها بسمعة التجربة والبحث العملي ، والبعد قدر الطاقة عن الاستظهار والحفظ وما يصحبها عادة من آفات . حتى رأينا — او سمعنا — صوتا

يرتفع ، هو صوت مدير كلية « ايتول » الانجليزية المشهورة ، قائلا في وعي وفطنة : (لا نرى هدفا يجب أن تبتعد عنه الجامعة أكثر من منحها ذلك العلم الشامل المطلق الذي يمس سطوح الموضوعات ويلمسها جميعا ، من غير أن يتعمق او ينفذ الى صميم واحد منها ... ويمكن الحكم على الوجه الذي تؤدي به الجامعة رسالتها من خلال الطريقة التي تنمي بها نفسية طلابها وتذوقهم للمعرفة . وفوائد المنهج التجريبي في المدرسة انه يتطلب على الدوام إعمال العقل والصبر والضبط وانعام النظر) .

وانعقد من المصلحين المربين القائلين بالخبرة والتجربة في اكتساب المعرفة اجماع على ان العبرة بطريقة تدريس المادة العلمية ، لا بالمادة نفسها . فقد يكون في الموضوعات المعتدلة المخففة — اذا درست على طريقة تجريبية صالحة — غناء عن الموضوعات الثقيلة التي لايهضم الطلاب طريقة تدريسها . ولا شك أن طريقة حشو الذاكرة أو حشد الحافظة هي أفسد الطرق جميعا ، حتى لقد لخص محرر مجلة « الريفيو » ذلك قائلا : (اذا وقع التعلم وفق منهاج علمي صالح ، لم نبـــال بأمر الموضوعات التي يدرسها الطلاب الا قليلا . فاليوم نجد كرها اجماعيا لما كان من حشو الذاكرة بعبارات علمية وادبية وارهاقها بها) .

وعلى الضفة الاخرى من المحيط الاطلسي كانت المدرسة الامريكية في العالم الجديد تستبق الخطا نحو « التجريبية » في التعلم وتحصيل المعرفة . واندفع الامريكيون في المذهب الى ابعد الحدود ، ولم يقفوا موقفا وسطا بين انصار الحفظ القدامى ، وبين انصار التجربة المحدثين . ونرى المفكرين الاوربيين يلتفتون الى قيمة المناهج الجديدة في المدارس الامريكية ويذيعونها ، ويحضون اقوامهم على الاخذ بها ، فنرى الدكتور غوستاف لوبون — مثلا — يصف ذلك الجو التعليمي الجديد قائلا : (ويقوم عمل المدرسة الرفيع على جعل الاولاد يسيرون طلقاء، كما

لو كانوا وحدهم في العالم . كما يقوم على اثارة حب المجهود والارتياح لمكافحة الصعاب وضبط النفس . ولا يعلم التلاميذ في المدرسة الوقائع والنظريات المجردة ، ولا تلقن لهم عن طريق المشافهة والتلقين . والحق ان الامريكيين – معلمين كانوا أم تلاميذ – يكرهون النظريات والتعريفات المجردة التي لا يدعمها التطبيق العملي ، ولا تؤيدها التجربة . ولا تبصر في المدارس الامريكية اثراً للمناهج التي تجد فائدة في معرفة تلقن للتلاميذ قولا ، ويتلقفونها سماعاً ، لا بأعمال يقوم بها هؤلاء التلاميذ. وعقيدة المدرسين الامريكيين أن التعليم على وجه العموم ، والتعليم العلمي على وجه الخصوص ، لا يكونان مجديين اذا لم يدرب التلاميذ على حل المسائل العلمية بأنفسهم ، وعلى كشف الحقائق بأنفسهم) .

ولقد كانت الضرورات والمقتضيات التي دعت الى فشو المذهب الاستظهاري في تحصيل المعرفة في المدرسة العربية الاسلامية في العصور القديمة وما بعدها ، هي كالضرورات والمقتضيات التي دعت الى فشو التعلم الاستظهاري في اوروبا في العصور الوسطى وما تلاها .... فقد كان حفظ القرآن الكريم واستظهاره منذ الصبا ، وحفظ متون الحديث النبوي ، وحفظ الشعر العربي وأيام العرب والاخبار الأدبية والتاريخية ضرورة فرضت على « المدرسة » الإسلامية أن تعنى بالحافظة والاستظهار والذاكرة الى اقصى الحدود . حتى لقد حفظ كثيرون القرآن الكريم كله قبل بلوغ العاشرة من اعمارهم ، وكان القرآن يختم مرة واثنتين وثلاث مرات ...

وكانت اللغة اللاتينية في المدرسة الأوربية عاملا من عوامل الاهتمام البالغ بالحفظ والاستظهار عند الأوربيين . ولقد دخلت الحملة على « الحفظ » في اوربا منذ اللحظة التي أصبحت فيها اللغة اللاتينية غير ذات موضوع في المدارس ، او حين قل الاهتمام بلغة اللاتين ، وزالت من محل اعتبارها الاول ، ونافستها

المكانة اللغات القومية الناشئة في كل وطن قومي ، بعد أن سادت فكرة القومية وأخذت سبيلها في التطبيق .

وفي بعض الاقطار العربية الاسلامية نجد أن الاهتمام في المدرسة الحديثة بحفظ القرآن الكريم كله قد زحزح عن مكانه ، وإن كان هناك بعض نشاط لبعض الجمعيات التي تهتم بحفظ كتاب الله وتحفيظه للصغار .

والخلط في المفهوم بين استظهار القرآن كله واستظهار بقية مواد « المعرفة » المدرسية هو مما يجعل قضيتي الحفظ والتجربة غير واضحتين تماما ... فاستظهار القرآن هو حفاوة ورعاية لأثر مقدس يأتي بعدهما « الفهم » ولا يطول زمن انتظاره[1] . أما استظهار مواد « المعرفة » الدراسية وحفظها كالببغاء من غير تفكير ولا تمرين ولا استبصار ولا تجربة ولا معاينة فذلك الذي قاومه المفكرون من المسلمين وغير المسلمين على السواء . وليس الغربيون في هذا بأسبق منا ، ولا كانوا في « التجربة المعرفية » بأعرق ولا أفضل ... فقد أثبت تاريخ التربية والثقافة والمدرسة أنهم كانوا غارقين في لجة الاستظهار والحفظ عن ظهر قلب الى الحد الذي جعل المفكرين منهم يتنبهون الى الخطر المحدق، ومازالت الرسائل الممتعة التي كتبها المفكر الفرنسي « ألفونس أسكيروس » في كتابه : « التربية الاستقلالية » موضع الاعجاب والتقدير حتى يومنا هذا... فهي لم تفقد جدتها ولا لذتها على الرغم من اتجاه المدارس كلها نحو المذهب التجريبي ، في حدود امكانيات كل دولة معاصرة واستعداداتها . ومن مفاخر الذهنية الاسلامية ان الشيخ محمد عبده هو اول من نبه العرب المحدثين الى قيمة كتاب اسكيروس في التربية واوصى بترجمته في الوقت الذي كانت تتعالى فيه صيحات « آ بيل.ه.و « ليبان » و « غوستان لوبون » وغيرهم من الحاملين على الحفظ او النادين بضرورة التجربة والمعاينة في تحصيل المعرفة .

ولم يقف ألفونس أسكيروس عند حد التوصية بإيقاظ التنبه والتفكير عند أبنائنا ، ولكنه اتجه الى والأم يحذرها من ان يقع ولدها فريسة للخضوع للألفاظ والعبودية لها .. ويرى ان هذا الخضوع للألفاظ في تحصيل المعرفة ليس من شأنه أن يفتح مغاليق عقل الطفل، بل فيـــه إغاضة لينبوع المعارف الحقيقة . فكثيراً ما تكون الالفاظ مجرد كلام يقال لا حقيقة تقرر ...

ويرى ألفونس اسكيروس اننـا ـ آباء ومدرسين ـ مسئولون مسئولية أدبية كبرى عن تعويد أبنائنا ان يكتسبوا المعارف بأنفسهم لا عن طريق التلقين والحفظ . وزاد على ذلك فأوجب ان نحث الاطفال بالاشارة والكلام على النظر والملاحظة . على أن الاسراف في هـــذا التوجيه قد يؤدي الى غير ما قصد اليه أسكيروس ... فاذا عودنا الطفل أن نقول له : انظر الى هذا : ولاحظ الفروق بين هذا وذاك ، فانه يخشى أن ينقلب هذا آخر الامر الى مجرد اوامر آلية تفقد دلالتها المعنوية والعملية . ولكن المعلم الحكيم ، والوالد الحكيم يلفت نظر تلميذه او ولده الى مافي الكون من مجالي للتفكير والتدبر والنظر والملاحظة والمقارنة والقياس باثارة عوامل التشويق والانتباه ، ودون حاجة الى تكرار الاوامر .

ويرى اسكيروس ان الفرق كبير بين المعارف التي نحصلها من رؤية الاشياء مكدسة او مخزونة أو مرصوصة او جامدة في أرفف او مخازن او خزائن، وبين رؤيتها وهي عرضة للتفاعلات الطبيعية . فهي في الحالة الاولى ميتة لا روح فيها ولا حياة ، وهي في الثانية حية حتى ولو كانت من اجسام الجمادات . . . فقد أخذ ولده الى متحف من متاحف مدينـة بيتزانس ، فلم يلفت نظرهما ما في خزائن المتحف وصناديقه الزجاجية من قطع نادرة من الحجارة والمعادن الغريبة الثمينة التي ابدعت الطبيعة في تكوينها ، ولم تثر فيها هذه المعروضات الا قليلا من الاهتمام .

وكان اهتمام الفتاة أكثر بقطع البلور وفلذ الحجارة الثمينة وهي في حالتها الغفل الطبيعية .. ولعل الفتاة كانت تفكر فيما ستصير اليه هذه الفلذ لو تناولتها يدالصناعة بالصقل فصارت من قطع الزينة والحلى الجميلة .. ! فلما اخذهما - بعد ذلك - الى منحت كبير يمتد مكشوفا على ضفاف المحيط بين جبال من الصوان بعجتها يدالانسان كان المنظر في نظر الاثنين احسن من جميع ماتحويه متاحف الدنيا (ففرق عند الطفل بين ان يرى من وراء الزجاج معادن حجرية رتبت في رواق ترتيبا خاليا من دواعي التأثر ، وبين ان تتمثل امامه الصخور في وضعها الطبيعي ، ويشاهد الصخور وقد شاه وجهها . وانقلبت ظهرا لبطن ، وكتل البلاط الاسود والرخام الساقي في جسامتها السرية ، وقد تناولها الصدع وبارود الدفع فأوسعاها صدعا ، وأشبعاها كسرا) .

ولم يكتف احد الولدين بهذه الروعة الماثلة والحركة القائمة أمامهما والحيوية الدافقة ، فأخذ « إميل » - وهو النموذج الذي اختاره المؤلف لفتى القرن التاسع عشر الجديد - يتأثر لهذا المشهد تأثرا بعيدا ، وصار يخاطب عمال النحت ومكسري الصخر ويسألهم ويجيبون على أسئلته ، ويصغي اليهم بكل ما فيه من جارحة ، ويقبل عليهم اقبالا شديدا ، ولا يستنكف ان يخاطبهم ، لأن قلبه لا يزال غضا لم يفسده الكبر ، ولم يخالطه الغرور المفضي الى التعالي ..

وقد توسع الفونس اسكيروس في التعليم عن طريق الخبرة والتجربة توسعا كثيرا ، فلم يكتف بالمعامل الطبيعية والكيميائية في المدرسة - مع اعترافه بأهميتها وكونها من المساعدات العظمى على اكتساب العلم وتحصيل المعرفة ، بل رأى التعليم واكتساب الخبرات على الطبيعة ذاتها ، فهي أرحب من ان تضيق لعملية تمثيل ، لأنها هي المصنع الاكبر لهذا الكون العجيب .

وهكذا ينتقل ذهن التلميذ من علم طبقات الارض الى فن العمارة ، فسيذكر الفتى الجديد - اذا عرض له في طريقه مافي المدن من الأبنية العظيمة - ان حجارتها هذه المرصوص بعضها فوق بعض نحتت من قاع البحار القديمة ؛ واذا رأى المعابد والقصور احضر نوع حجارتها في ذهنه الصخرة التي نحتت منها ، والكائنات العضوية الدقيقة القديمة التي صارت هذه الحجار رمساً لها ..

هذا بعض مافي كتاب أسكيروس عن تحصيل المعرفة بالخبرة والمعاينة ، وقد استجاب لوصية الامام الشيخ محمد عبده بترجمته رجل من رجال القضاء المصري هو المستشار عبد العزيز محمد الذي وصل الى منصب الوزارة في الثلاثينيات من القرن العشرين . ولقد كان الاستاذ الامام فوق ثقافته الدينية التجديدية يتابع احدث كتب التربية والتعليم في عصره ، وعكف هو نفسه على ترجمة بعضها ، كما فعل في كتاب للفيلسوف الانجليزي هربرت سبنسر ، وكما فعل في كتاب « التربية الاستقلالية » للمصلح الفرنسي ألفونس اسكيروس ، وهو الكتاب الذي نشرت ترجمته الى العربية منجمة في مجلة « المنار » التي كان يصدرها المصلح المحدث السيد محمد رشيد رضا ، ثم طبع بعد ذلك مستقلا في كتاب عدة طبعات ظهرت اولاها في سنة ١٩٠٨ ، فكان من علامات الزمن في المكتبة العربية في القرن العشرين ...



الفراغ الفكري والقلق

لدى الجيل الحاضر

للدكتور يوسف عز الدين
— بغداد

يعاني الشباب ازمة شديدة اثرت في فكره وروحه وعقله وسيطرت عليه موجة من القلق والحيرة فهو يعيش في خضم من تيارات نفسية واتجاهات فكرية وآراء متباينة متضاربة اخرجته الى الثورة والسخط لم يجد حتى الآن شاطىء الامان ليستقر عليه ويهدأ . فهو يقرأ مايكتب عن الثورات الفكرية والاراء الاجتماعية الجديدة ويعيش في تطور سريع وتبدل لاينتهي وحياة مادية اخذته من كل نواحي حياته العامة ولابد من معالجة هذا الجيل وعدم تركه دون الاخذ بيده وانقاذه مما يحيق به واختصار مرحلة هذا القلق والحيرة وملء هذا الفراغ الفكري .. ولابد من بحث في جذور هذا القلق واساسه ليكون علماء الاجتماع وعلماء النفس على بينة من الامر وليتدارسوا هذه المشكلة ويتعاونوا مع المسؤولين على حلها .

واول هذه الاسباب الانتقال الحضاري السريع الذي لف البلاد العربية والعراق خاصة واخذهذا الجيل اخذاسريعا، فقد كانت حضارة الجيل الماضي تعتمد على الحياة الزراعية الساذجةالبسيطة التي تتجلى فيها البساطة في كل شيء، فمن طبيعة الزراع النفرة من كل تعقيد وغموض لانه ينافي طبيعته التي نشأ عليها .. من مواجهة العالم الرحب الذي يسرح فيه بسره وفكره وينسجم مع روحه انسجاما تاما. وقد جاءت الحياة الصناعية الجديدة فحددت سلوكه واعماله وتصرفاته بقيود جديدة لم يكن يألفها من قبل واصبح جزءاً من مجموعة بشرية كبيرة تتحرك بمقدار وتسير بمقدار وابتعدت عن كثير من التقاليد والعادات التي وجدت عليها آباءها واسرها وبيئتها ،وكان من جراءهذه الحياة الجديدة ورود مذاهب اقتصادية اخذت تسري في حياته لم يكن يألفها الانسان من قبل واتسعت المدن وباتساعها ابتعد افراد الاسرة عن بعضهم وقلما اجتمعوا على طعام وشراب بحكم هذه الحياة، وضاعت المقاييس البدوية والزراعية التي كانت موجودة في القرية والتي اصبحت مدنية ،ولم يعد الشاب بقادر على مجاراة تلك التقاليد وتلك العادات فالحياة الاقتصادية وطراز حياته في البيت اختلفت كل الاختلاف عما كانت عليه في بيئته القديمة وحياته الماضية فحار بين مثل شب عليها وبين آراء جديدة وحياة تضطره للاخذ بها .

أما السبب الثاني الذي أثر في فكره ،فهو اختلاف وجهة نظره الى المؤسسات العامة القديمة التي لم تعد تلائم عصره فقد كان الجيل الماضي يسمع في المقاهي والدواوين قصة الفاليلة وليلة وعنترة بن شداد وأبي زيد الهلالي والزير سالم والمهلهل وغيرها من القصص التي كانت تقتضيها طبيعة تلك الحياة البدوية التي تعج بالفروسية والمثل القديمة التي تعتمد على السيف والرمح والكر والفر ، وحياة اليوم اعتمدت على امور سريعة من المغامرات الحاسمة وعلى العصابات التي تزوده السينما والتلفزيون

بها وتداعب خيال الشباب ونفوسهم ورغبة تجار المدنية دعتهم الى الاستزادة من المال فوجدوا في مغريات الشباب تجارة رائجة فاغرقوا الاسواق بالافلام الداعرة والقصص الجنسية والروايات التي تداعب ذهن الشاب وروحه وهو الذي تعلم في الاسرة الفضيلة والمحافظة على المثل العليا فكان الشاب حائراً بين الواقع الذي يلتذ به ويؤنسه وبين التربية التي تربى عليها والتي كان يتزود بها من مجالس الوعظ والارشاد التي كان يسمعها في المساجد والمجالس الحسينية وأيام رمضان والجمع فبأيها يسير وبأي نهج ينهج ؟!

أما السبب الثالث الذي أثر في هذا القلق النفسي، فكان نتيجة للقلق السياسي والثورات التي عمت البلاد العربية بعد اغتصاب فلسطين وكان من جراء هـــذه الثورات السياسية وعدم الاستقرار أن جاءت ثورات اجتماعية عارمة سخرت بكل ما كان قديماً حتى وان كان صالحاً وجيداً لأنه قديم واندفعت نحو كل ماهو جديد ولو كان هذا الجديد مضراً فكانت نكسات بعد الثورات وكانت خيبة امل في كثير من المبادىء والافكار التي اعتنقها الشباب سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم أدبية أم اجتماعية فولدت في النفوس حيرة واضطرابا وقد كفر الشباب بهـا وارادوا ان يجدوا لانفسهم مايؤمنون به ويركنون الى ذراه فاضاعوا الثقة بالجديد وما آمنوا بالقديم الذي ثاروا عليه .

والسبب الرابع ـ لم يجد الشباب الحائر الموجه الذي يأخذ بيده، ولم تكن له قاعدة فكرية او ثقافية قديمة ليعود اليها، وليملأ هذا الفراغ الروحي فلا نعجب ان ظهرت ثورة هذا الجيل وسطحيته وتعلقه بكل شيء سهل وظهور الاراء السهلة والبحوث السريعة ثم الالتجاء الى الاساطير اليونانية والرومانية والثقة بالمذاهب الاوربية البعيدة كل البعد عن روحه ومحيطه فادى الى ضياع القيم الروحية في وطنه واصابته الحيرة والقلق من جراء هذا الضياع .

وانا لاانكر ان كل هذه الاسباب او بعضها قد اثر في كثير من شباب العالم ووجهه وجهات شاذة فبعد الحرب العظمى الاولى والثانية ظهرت امراض نفسية وتيارات فكرية واراء اجتماعية بعيدة عن واقع الحياة التي كان يحياها الشباب بيد ان علماء النفس والاجتماع والمسؤولين بحثوا في اصل هذه العلل وحاولوا معالجتها وقد افلحوا الى حد كبير في تقويم روح ذلك الجيل فعاد سويا يسير مع الركب الانساني وعسى ان يجند قادة الرأي وعلماء الاجتماع والنفس اراءهم واقلامهم لبحث مشكلة من اهم مشكلاتنا الاجتماعية التي تخص اجمل ازاهير الدنيا العربية واثمن كنوزها وهم الشباب عدة المستقبل وعماده . .

مراحل النمو الاقتصادي

بين «ماركس» و «روستو»

للدكتور احمد مراد

اعتادت الادبيات الاقتصادية التفريق بين مراحل مختلفة للتطور الاقتصادي . وفي هذا المجال طور علماء الاقتصاد مقاييس وضوابط عديدة ، الأمر الذي دعا احدهم الى القول : ان علماء الاقتصاد يعتبرون مصنفين من الطراز الاول . وكان كارل ماركس أحد المفكرين الاوائل الذين وضعوا ضوابط لتصنيف تطور المجتمع الانساني . وحول آرائـــه يتجمع الاشتراكيون بأكثريتهم . كما ان النظريات الغربية طورت باستمرار أفكاراً في هذا المجال كان آخرها نظرية و.و. روستو التي وجدت أوسع الانتشار في صفوف المفكرين الغربيين في السنوات الاخيرة . وكيما أعالج موضوع مراحـــل النمو الاقتصادي بين ماركس وروستو سأقسم البحث الى النقاط الأربع التالية :

١ – تطور الافكار المختلفة في تصنيف مراحل النمو الاقتصادي .
٢ – مراحل النمو الاقتصادي في النظرية الماركسية .
٣ – مراحل النمو الاقتصادي عند روستو .
٤ – مقارنة نظرية ماركس وروستو في مراحل النمو الاقتصادي .
وسأعرض فيما يلي كلا من هذه النقاط بالتفصيل الكافي .

اولا – تطور الأفكار المختلفة في تصنيف مراحل النمو الاقتصادي :

حفل القرن الماضي بالافكار والنظريات التي عالجت موضوع تصنيف مراحل النمو الاقتصادي . ومنحت المدرسة الاقتصادية الالمانية هذه الفكرة أهمية خاصة في مؤلفاتها . وهكذا صنف كارل ماركس مثلا البلدان المختلفة تبعاً لدرجة نموها ولنظامها الاقتصادي معتمداً على تطور اساليب الانتاج ومعتبراً أن تطور قوى الانتاج هو العنصر الحاسم في تبديل اساليب الانتاج وتغييرها . وظلت نظريته سائدة في أوساط الاشتراكيين حتى يومنا هذا . كما شهدت مع الزمن اغناء في التفاصيل بدون المساس بأصل الفكرة وجوهرها .

وبأسلوب آخر ، وتبعاً لضوابط اخرى مختلفة ، قدم العلماء الالمان من أتباع المدرسة التاريخية من أمثال ليست وسومبارت وشيبتوف ومن بعدهم هيلدبراند وبوخر جهودهم في هذا المضمار . لقد حدد فريدريك ليست ، مثلا ، مراحل مختلفة متعددة للنمو الاقتصادي . أما كارل بوخر (١٨٤٧ – ١٩٣٠) مؤسس علم الصحافة ، وأحد أتباع المدرسة التاريخية الحديثة في الاقتصاد السياسي ، فقد اعتبر مع زميله هيلدبراند حجم المبادلات التجارية في المجتمع مقياساً للتطور الاقتصادي . أما في الأدبيات الاقتصادية الامريكية فقد طور كل من غراس وآشلي وأوتيتين افكاراً مشابهة تجد أسسها في التاريخ الاقتصادي .

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وبروز موضوع التنمية الاقتصادية والاجتماعية الى المقام الاول ، اصبحت الافكار الخاصة بمراحل النمو الاقتصادي تحتل مكاناً اوسع في التفكير الاقتصادي ، وأصبح التفريق بين البلدان المتطورة والبلدان المتخلفة أحد الملامح الاساسية التي تميز التفكير الاقتصادي في العشرين سنة الاخيرة .

ونحب ان نذكر من بين الاوائل في هذا المضمار كلا من و . ج . هوفمان وكولين كلارك اللذين قدما افكارهما في السنوات الخمس الاولى بعد الحرب العالمية الثانية . لقد اعتبر هوفمان درجة التصنيع والاهمية النسبية لصناعة البضائع الرأسمالية ضابطاً ومعياراً للنمو مرحلة جديدة في التطور الاقتصادي . وعرض رأيه هذا في مقاله « نمو الانتاج الصناعي في بريطانيا العظمى » الذي نشره في عام ١٩٤٩ . اما كولين كلارك فقد اعتبر العمالة ونسبة السكان في مختلف قطاعات الاقتصاد الوطني ضابطاً لتحديد مراحل النمو الاقتصادي ، وشرح هذا الرأي في كتابه « شروط التقدم الاقتصادي » الذي نشره عام ١٩٥١ .

ان التفريق الحالي بين البلدان المتخلفة والبلدان المتطورة لا يعتمد على اي من هذين الضابطين ، كما ان هذين الضابطين لا يقدمان لنا اي عون فكري في هذا المقـام ، لان التصنيع ماهو الا جانب واحد ، رغم اهميته النسبية ، من جوانب التقدم والتطور العام . ولذلك لا يمكن اخذ التصنيع اساسا للتفريق بين مراحل النمو المختلفة . وكذلك فان نسبة العمالة في مختلف قطاعات الاقتصاد الوطني لا يعتبر ضابطا كافيا للتفريق بين مراحل النمو وذلك لان مستوى العمالة يرتبط الى حد كبير بالدورات الاقتصادية ولا تعتبر فترة الازدهار دليلا على مرحلة نمو جديدة ، كما لا تعتبر فترة الازمة دليلا على انتكاس مرحلة النمو .

وفي العقد الخامس من القرن الحالي اتجه قسم كبير من التفكير الاقتصادي المعاصر الى اعتبار مستوى الدخل القومي الحقيقي للفرد الواحد من السكان معيارا للتطور الاقتصادي والاجتماعي . ولكن هذا المقياس لم يكن واضحاً ، وكان مشوباً دوماً بالكثير من الاخطاء وذلك لاسباب عديدة ، اهمها :

١ – ان الاسعار النسبية للسلع الوطنية والبضائع المعدة للاستيراد والتصدير تختلف الى حد واسع بين بلد وآخر .

٢ – ان اتخاذ سعر الصرف الرسمي اساساً في حساب الدخل القومي يؤول الى احتساب قيم وهمية للدخل والتجهيز الرأسمالي .

ويتتج عن ذلك ان التغيرات في الدخل الحقيقي لا تصلح مقياسا لتحديد درجة التطور الاقتصادي .

وبسرعة بدأ بعض الاقتصاديين والمفكرين بمعـالجة النقص البادي في هذه النظرية . وحاول كل من « هيس » و « هيكنز » اضافة خصائص اخرى مميزة للبلدان المتخلفة الى جانب انخفاض الدخل القومي . وقد لخص « ماير » هذه الخصائص بما يلي : ضعف السيطرة على الطبيعة ، انتاج المواد الاولية بصورة رئيسية ، تخلف السكان اقتصاديا ، النمو السريع للسكان ، تخلف مصادر الطاقة ، اتساع التجارة بالمواد الاولية ، التجهيز الرأسمالي المخفض . كما قدم « ايف لاكوست » وغيره تعدادا اخر لهذه الخصائص . وبذلك انتقل البحث من تحديد ضوابط للتمييز بين مراحل النمو الاقتصادي الى وصف علائم البلدان المتخلفة ، كما تحولت ابحاث هذه الفئة الى مقالات صحفية وصفية .

والى جانب هذه الفئة نشأ اتجاه ثان لدى بعض نظريي مدرسة النمو الشهيرين مثل « غونار ميردال » في كتابه « النظرية الاقتصادية والمناطق المتخلفة » و « راجنار نوركسه » في كتابه « مشاكل تكوين رأس المال في البلدان المتخلفة » . ويأخذ كل من هذين المفكرين « بنية الاقتصاد الوطني » كضابط لقياس النمو الاقتصادي ، ويعتبران ان هذا الضابط يمكن

ان يشكل اساسا عليا للتمييز بين مستويات التطور الاقتصادي . وقد استند الاقتصادي الاميركي و . و . روستو على هذه الاراء واخرج عام ١٩٥٩ كتابه « مراحل النمو الاقتصادي » كمثال للتطبيق في هذا الاتجاه محاولا وضع مقياس وتقسيم للنمو الاقتصادي يقف الى جانب المقياس الماركسي ويقارعه ، ويشكل نظرية بديلة عن نظرية ماركس .

وكيا نستطيع مقارنة آراء روستو بآراء ماركس من هذه الناحية ، سنعرض مراحل النمو الاقتصادي لدى كل من ماركس وروستو بصورة اكثر تفصيلا .

ثانيا ـ مراحل النمو الاقتصادي في النظرية الماركسية :

تعتمد النظرية الماركسية في تحديد مراحل النمو الاقتصادي على الفلسفة المادية والطريقة الديالكتيكية الماركسيتين مطبقتين على الحياة الاجتماعية .

وتنطلق الماركسية في بحثها لمراحل النمو الاقتصادي من دراسة شروط حياة المجتمع المادية . وتخرج من دراستها هذه بما يلي :

١ ـ ان الوسط الجغرافي هو احد الشروط الدائمة والضرورية لتطور المجتمع . ولكنه ليس بالمؤثر الحاسم في التطور الاجتماعي لان تطور المجتمع وتغيراته تجري بصورة اسرع بكثير من تطور الوسط الجغرافي وتغيراته .

٢ ـ ان نمو السكان يؤثر في التطور الاجتماعي ، فيسرعه او يبطئه ، ولكن هذا العامل لا يمكنه ان يكون القوة الاساسية للتطور الاجتماعي ، لان نمو السكان لوحده يعطينا الجواب على تعاقب الانظمة الاجتماعية بصورة موضوعية .

٣ ـ ان القوة الاساسية في تطور المجتمع هي اسلوب الحصول على وسائل المعيشة الضرورية لحياة الناس ، اي اسلوب « انتاج الحاجات المادية » .

وتشرح الادبيات الماركسية النظرية الماركسية في مراحل النمو كما يلي :

ان اساس الحياة الاجتماعية هو الانتاج المادي الذي يتم بصورة اجتماعية . وتستوجب عملية انتاج الخيرات المادية العناصر التالية :

– قوى العمل البشري الذي يتبدى في جهد الصانع .

– موضوع العمل الذي تمثله المواد الاولية والمواد المساعدة وما شاكلها .

– ادوات العمل التي تمثلها الالات والادوات والاراضي والابنية وما شاكلها .

ويشكل كل من ادوات العمل وموضوع العمل **وسائل الانتاج** في كل مجتمع .

وتشكل **وسائل الانتاج** ، التي بمعونتها تنتج الحوائج المادية ، **والناس** الذين يستعملون ادوات الانتاج هـذه وينتجون الحوائج المادية بما لديهم من تجربة في الانتاج ومن

عادات في العمل ... يشكل هذان العنصران **قوى المجتمع المنتجة** ، وهمـــا يتطوران باستمرار ، وبتطورهما يتطور انتاج الخيرات المادية من الزراعة بالمحراث الخشبي الى الزراعـــة بالمحراث الميكانيكي ومن الغزل اليدوي الى الغزل الآلي . وتطور القوى المنتجة في المجتمع يشكل الاساس في النمو الاقتصادي للمجتمع .

واثناء سير الانتاج يقيم الناس فيما بينهم ، في العمل وخارجه ، علاقات اجتماعية معينة . فيتوزع الناس بين معلم وصانع وصاحب ارض وصاحب مصرف ومستخدم مصرف وموظف وغيره ، وهذه العلاقات تسمى **علاقات الانتاج** . ويشتمل **اسلوب الانتاج** على قوى الانتاج (قوى المجتمع المنتجة) وعلاقات الانتاج معاً .

ان قوى الانتاج ذات صفة ديناميكية تطورية . وهي لاتبقى على حالها مدة طويلة من الزمن ، بل هي دائماً في حالة تغير ونمو دائمين . ويحدث هذا التغير في ادوات الانتاج خاصـــة بسبب تطور التكنيك والعلوم . ويستوجب تغير قوى الانتاج وتطورها تغير أو تغيير علاقات الانتاج وفقاً لذلك ، كيما تتطـــابق علاقات الانتاج مع قوى الانتاج ، ويتم الانسجام ضمن اسلوب الانتاج . ولكن علاقات الانتاج في الواقع ، ذات صفة ستاتيكية ثابتة . ويؤول هذا الوضع الى انفصال تطور قوى الانتاج الديناميكية عن تطور علاقات الانتـــاج الستاتيكية ، وبذلك يزول الانسجام والهارمونية ضمن اسلوب الانتاج وتقع علاقات الانتاج بتناقض مـــع قوى الانتاج تزداد حدته مع الايام ، وتصبح علاقات الانتاج عائقاً في وجه تطور القوى المنتجة مما يوجب استبدالها بعلاقات انتاج جديدة تلائم تطور القوى المنتجة وتفتح الطريق أمامها ، وهذا التغيير هو مايدعى بالثورة الاجتماعية .

ان توافق علاقات الانتاج مع تطور قوى الانتاج هو الاساس في تقسيم مراحـــل التطور الاجتماعي والاقتصادي في النظرية الماركسية ، وهو قانون التطور الاقتصادي المجتمع . وعليه تتايز مراحل التطور الاقتصادي والاجتماعي بسيادة كيفيات جديدة في المجتمع هي علاقات الانتاج . وتتبدى الخطوط الاجمالية الكبرى لتطور القوى المنتجة في المجتمع بمـــا يلي : الانتقال من الادوات الحجرية الغليظة الى القوس والسهام ، وبالتالي المرور من الصيد الى استخدام الحيوانات وتربية المواشي بشكل ابتـــدائي ، ثم الانتقال من الادوات الحجرية الى المعدنية وبالتالي الانتقال الى غرس النباتات والى الزراعة ، ومن ثم اجراء تحسين جديد في الادوات المعدنية لأجل صنع مختلف المواد وظهور الكور ذي المنفاخ ، وصناعـــة الاواني الفخارية ، وبالتالي تطور الحرف وانفصال الحرف عن الزراعة ، وتطور الحرف المستقلة اولا ثم المانيفاكتورة ثانياً ، ثم الانتقال من ادوات الانتاج الحرفي الى الالة ، وتعديل الانتـــاج الحرفي – المانيفاكتوري – الى صناعة قائمة على الآلة ، ومن ثم الانتقال الى نظام الآلات

وظهور الصناعة الميكانيكية الحديثة الكبرى ، ومن بعدها الصناعة الاوتوماتيكية (الذاتية الحركة) الشاملة .

وطبقاً لهذه التغيرات في قوى الانتاج تغيرت وتطورت علاقات الانتاج ايضاً ، وسجل التاريخ خمسة انواع اساسية لعلاقات الانتاج هي : المجتمع البدائي ومجتمع الرق والاقطاعية والرأسمالية والاشتراكية .وتعتبر الماركسية كلا من هذه الانظمة اعلى انتاجية واكثر تطوراً ونمواً ممن سبقه .

١ - ففي المجتمع البدائي تؤلف الملكية الجماعية لوسائل الانتاج اساس علاقات الانتاج، وهذا يطابق من حيث الاساس طابع القوى المنتجة في هذا الدور . فالادوات الحجرية ، وكذلك القوس والسهام التي ظهرت فيا بعد ، لم تكن لتسمح للناس بأن يناضلوا منفردين ضد قوى الطبيعة والحيوانات المفترسة . فلأجل قطف الثار في الغابات ولأجل صيد السمك ولأجل بناء المساكن ، كان الناس مجبرين على العمل بصورة مشتركة . ويؤدي العمل المشترك الى الملكية المشتركة لوسائل الانتاج والمنتجات ايضاً .

٢ - وفي المجتمع العبودي تؤلف ملكية سيد العبيد لوسائل الانتاج والشغيل ، أي للعبد ، اساس علاقات الانتاج . وهذه العلاقة تطابق حالة القوى المنتجة في هذه المرحلة . ونشهد في هذه المرحلة ظهور تربية المواشي والزراعة وحرفاً شتى ، وتقسيم العمل بين هذه الفروع المختلفة للانتاج ، كما تشهد ظهور امكان تبادل المنتجات بين الافراد والجماعات وإمكان تراكم الثروة بين أيدي عدد ضئيل من الناس وتتكدس وسائل الانتاج في أيدي أقلية ، وامكان جعل الاكثرية خاضعة للأقلية وتحويل اكثرية الناس الى عبيد .

٣ - وفي النظام الاقطاعي تؤلف ملكية النبيل الاقطاعي لوسائل الانتاج ، وملكيته المحدودة للشغيل ، أي القن ، اساس علاقات الانتاج . والى جانب الملكية الاقطاعية نجد ملكية الفلاح والحرفي الفردية المشتملة على ادوات الانتاج وعلى اقتصادهما الخاص المؤسس على العمل الشخصي . وعلاقات الانتاج هذه تطابق من حيث الاساس حالة القوى المنتجة في هذه المرحلة . ان تحسين الحديد الصلب واتقان معالجة الحديد وتعميم استعمال المحراث ونول النسيج، وتطور الزراعة والبستنة وصناعة الخمور والزيوت تطوراً مستمراً تؤلف الخصائص المميزة لحالة القوى المنتجة في هذه المرحلة .

٤ - وفي النظام الرأسمالي تؤلف الملكية الرأسمالية لوسائل الانتاج اساس علاقات الانتاج . والى جانب هذه الملكية هناك ملكية الفلاح والحرفي الخاصة لأدوات الانتاج . لقد حلت الفبارك والمعامل والمصانع العظيمة المجهزة بالآلات الميكانيكية محل ورشات الحرفيين والمانيفاكتورات اليدوية . كما ان المزارع الرأسمالية الكبيرة التي تدار على اساس العلم الزراعي

والمجهزة بالآلات الزراعية ، حلت محل املاك النبلاء التي كانت توزع بواسطة ادوات الفلاحين الابتدائية . ان تقسيم العمل الرأسمالي وظهور الصناعـة الآلية والفبارك واستخدام البخار والكهرباء وازدياد مركزة وتركيز رؤوس الاموال تؤلف الخصائص المميزة لحالة القوى المنتجة في النظام الرأسمالي .

٥ — وفي النظـام الاشتراكي تؤلف الملكية الجماعية لوسائل الانتاج اساس علاقات الانتاج ، ان تعميم الكومبينات الواسعة واحلال الآلات الاوتوماتيكية محل الآلات الميكانيكية وتعميم استخدام الكهرباء والذرة واعادة تكوين ملاكات العمل تؤلف الخصائص المميزة لحالة القوى المنتجة . اما علاقات الانتاج فقد اصبحت تقوم على ادارة العمال والشغيلة لعملية الانتاج والتمتع بخيرات عملهم وشغلهم بأنفسهم . تلك هي اللوحة التي ترسمها الماركسية لنمو القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . فما هي النظرية البديلة .. نظرية الاقتصادي الاميركي : روستو ؟

ثالثاً ـ مراحل النمو الاقتصادي لدى روستو :

عرّف « روستو » نظريته حول مراحل النمو الاقتصـادي في كتاب اصدره عام ١٩٥٩ واطلق عليه هذا الاسم . وهو يعتبر نظريته « نظرية حول التاريخ الحديث بمجموعه » و « نظرية بديلة عن نظرية كارل ماركس حول التاريخ الحديث » .

وهو يستند في عرضه لمراحل النمو الاقتصادي على نظرية الانتاج الحركية التي تشكل الهيكل العظمي لمراحل النمو ، وكان قد شرح نظرية الانتاج الحركية (الديناميكية) هذه بشكل مفصل في كتاب اصدره عام ١٩٥٣ تحت اسم « عملية النمو الاقتصادي » . متممـاً بذلك اعمال « ميردال » و « نوركسه » التي هدفت الى اخـذ « بنية الاقتصاد الوطني » كقياس للنمو الاقتصادي .

ويؤكد روستو منذ البدء بأن مراحل النمو « ليست سوى طريقة تعسفية محدودة في النظر الى الاحداث المتتابعة في التاريخ الحديث » . ويعتبر ان نظرية مراحل النمو ليست اسلوباً اقتصادياً في النظر الى مختلف المجتمعات فحسب بل انها نظرية تعتبر المجتمعات وحدات عضوية متفاعلة تشترك في تركيبها الحياة الاقتصادية وعوامل السياسة والتنظيم الاجتماعي والثقافي وغيرها .

ترفض نظرية الانتاج الحركية المفترضات الراكدة التي لا تلائم الملائم المتغيرة المتعلقة بالنمو ، كما انها تتجاوز النظرية الكلاسيكية في دراسة توزيع الدخل بين الاستهلاك والادخار والاستثمار ، وتركز دراستها على بنية الاستثمار وعلى التطورات التي تقع ضمن مختلف قطاعات الاقتصاد . وتعتبر النظرية ان المستوى الكلي للانتاج يتحدد بمجموعة من القوى تتوزع بين العرض والطلب . ففي جانب الطلب نجد مستوى الدخل والسكان ونوعية الاذواق ، وفي جانب العرض نجد مستوى التطور التكنيكي ونوعية ارباب العمل وغير ذلك . وتتطور بنية الاقتصاد

الوطني استنادا لهذه القوى المختلفة، ولكن العديد من العوامل الاخرى تتدخل ايضا لتدفع او تؤخر التطور، ولتؤخر او تسرع في تطور هذا القطاع الاقتصادي او ذاك. واهم هذه العوامل المؤثرة هي السياسات الحكومية والحروب والثورات الاقتصادية. وعليه فان النمو الاقتصادي لا يتوقف على مستوى الاستثمار فحسب، بل وبدرجة اهم على التركيب الداخلي للاستثمار وعلى العلاقة بين قطاعاته المختلفة.

ان الاساس التقني لمراحل النمو يتكون في الجانب الاكبر منه من التغير الحاصل في تتابع تطور القطاعات الرئيسية. ويلعب التوسع السريع في بعض القطاعات الرئيسية دورا جوهريا ومباشرا في تحريك النشاط الاقتصادي بمجموعه، بحيث انه من المفيد صبغ الاقتصاد العام بصبغة قطاعاته الرئيسية. وهذه الحقيقة الجوهرية هي التي تمكننا من اعتبار التاريخ الاقتصادي مراحل متتابعة بدلا من اعتباره استمرارا ذاتيا، اي اعتباره تطورا بمراحل بدلا من اعتباره تطوراً مستمراً.

وقد صنف روستو جميع المجتمعات، من ناحية ابعادها الاقتصادية، في خمس فئات: المجتمع التقليدي والمجتمع الذي تحققت له الشروط المؤهلة للانطلاق والمجتمع المنطلق والمجتمع السائر نحو النضوج والمجتمع الذي دخل عصر الاستهلاك الشعبي الواسع.

١ - ان اول هذه المراحل هي مرحلة المجتمع التقليدي. ويستند بنيان هذا المجتمع الى وظائف انتاجية محدودة قائمة على العلم والتكنولوجيا السابقين لنيوتن وعلى النظريات السابقة لنيوتن حول العالم الطبيعي. ويشمل هذا المجتمع من الزاوية التاريخية جميع العالم السابق لنيوتن بالاضافة الى جميع المجتمعات اللاحقة لنيوتن والتي لم تتأثر بقدرة الانسان الجديد على استغلال محيطه استغلالا منظماً في سبيل نفعه الاقتصادي. وهذا المجتمع لا يعني مجتمعاً راكداً؛ بل يمكن ان يزيد الانتاج فيه، ولكن الحقيقة الجوهرية عن هذا المجتمع هي: ا) وجود حد اعلى لمستوى انتاج الفرد يمكن الوصول اليه. ب) احتلال الزراعة الدور الاكبر في المجتمع. وعليه تقوم هذه المرحلة الاجتماعية على نظام اجتماعي متسلسل المراتب، ضيق المرونة، تلعب فيه العائلة والقبيلة دورا كبيرا في التنظيم الاجتماعي.

٢ - والمرحلة الثانية من مراحل النمو الاقتصادي هي مرحلة تحقيق شروط الانطلاق، اي شروط المرحلة الانتقالية التي يعد المجتمع فيها نفسه للنمو المستمر، او تعدده، لهذا النمو بعض القوى الاجنبية في هذه المرحلة. ان الشرطين المطلوبين لتحقق المرحلة الانتقالية، يشكلان بنفس الوقت الشكلين الرئيسيين في هذه المرحلة هما:

أ - زيادة الانتاجية في الزراعة والصناعات الاستخراجية. ان عملية اللحاق بالعصر تحتاج الى كمية كبيرة من رأس المال الدائر والجانب الاكبر من هذا الرأسمال انما يتوفر عن

طريق زيادة الانتاجية في الزراعة والصناعات الاستخراجية . فعلى الزراعة ان توفر المزيد من المواد الغذائية للسكان والاسواق المتوسعة باستمرار للاستهلاك الصناعي والمزيد من اموال الاقراض للقطاع الحديث .

ب – تكوين رأس المال الاجتماعي الرأسي ، حيث تخصص نسبة عالية جداً من الاستثمار للنقل وغيره من النفقات الاجتماعية الرأسية .

وهذان الشرطان يعتبران بنفس الوقت المشكلتين الرئيسيتين في هذه المرحلة من مراحل النمو الاقتصادي .

ان النقطة الجوهرية في هذه المرحلة هي اعداد قاعدة راسخة لبنيان صناعي حديث . وهذا يتطلب ادخال تغيرات ثورية في قطاعين غير صناعيين ، وهما قطاع الزراعة وقطاع رأس المال الاجتماعي الرأسي ، وخاصة في ناحية النقل . وبالاضافة الى هـــذه التغيرات الاقتصادية لابد من ظهور نخبة جديدة من الناس تتوفر لها الفرصة لبناء مجتمع صناعي حديث . ويجب ان تحل هذه الفئة في السلطة محل النخبة الاجتماعية والسياسية القديمة التي يجب تحطيم سيطرتها على الدخـــل الفائض عن مستويات الاستهلاك الدنيا . وتعتبر القومية والتجارة والجيش من أهم العناصر المحركة للتحديث الاجتماعي . ويتوجب على الحكومة المركزية في فترة الانتقال هـــذه ان تؤدي عدداً من المهات الرئيسية المساعدة على تحقيق شروط الانتقال .

٣ – والمرحلة الثالثة من مراحل النمو الاقتصادي هي مرحلة الانطلاق . وهي تبدأ عندما يصبح النمو وضعاً طبيعياً في حياة المجتمع ، ان الانطلاق هو عبارة عن انتقال حاسم في تاريخ المجتمع او هو ثورة صناعية ذات ارتباط مباشر بالتغيرات الجـــذرية في طرق الانتاج وذات أثر حاسم يتحقق في فترة قصيرة نسبياً .

وترجع بداية الانطلاق عادة الى حافز حاد يظهر بشكل ثورة سياسية او ابتكار تقني او نشوء جو دولي ملائم او نمو نشأ عن تحول غير ملائم في البيئة الدولية او غير ذلـــك . وتحتاج مرحلة الانطلاق الى ثلاثة شروط يجب توفرها معاً وهي :

أ – ارتفاع نسبة الاستثمار المنتج من ٥ بالمئة من الدخل القومي او اقل الى اكثر من ١٠ بالمئة منه او اكثر . ويعتبر هذا الشرط المحور الرئيسي في هذه المرحلة .

ب – نشوء قطاع او اكثر من القطاعات الصناعية التي تتصف بنسبة نمو عالية .

جـ – وجود اطار سياسي واجتماعي ومؤسسي يعطي الانطلاق صفة الاستمرار والثبات .

٤ – وينسع مرحلة الانطلاق فترة طويلة من التقدم المستمر ، مع شيء من التقلب ، بينما يحاول الاقتصاد المتنامي أن يعم التقنية الحديثة على جميع نواحي نشاطه ، ويوظف ما بين ١٠ و ٢٠ بالمئة من الدخـــل القومي بشكل ثابت . فينمو الانتاج بأسرع من زيادة السكان ،

ويتغير تكوين الاقتصاد باستمرار كلما تحسنت الاساليب الفنية وكلما تسارعت الصناعات الجديدة وتباطأت الصناعات القديمة . ويتخذ اقتصاد البلد المختص مكانا جديداً في الاقتصاد العالمي ، وهذه المرحلة هي مرحلة النضوج .

ويحتاج المجتمع الى حوالي ٦٠ عاماً من ابتداء مرحلة الانطـلاق للوصول الى مرحلة النضوج ، ويمكن تعريف هذه المرحلة بأنها المرحلة التي يظهر الاقتصاد فيها مقدرته على تجاوز الصناعات الاصلية التي حركت مرحلته الانطلاقية ، وعلى تمثل احدث الاكتشافات المعاصرة في الحقل التقني وتطبيقها على جانب كبير من موارده . وعندما تصل مرحلة النضوج الى اواخرها تطرأ تغيرات ثلاثة هي :

١) تغير القوة العاملة من حيث تركيبها واجرتها الحقيقية وارائها ومهارتها .

٢) تبدل طبيعة الزعامة وتحولها من سلطة البارون الى سلطة المدير المشرف على ادارة معقدة .

٣) تسرب السأم الى المجتمع من معجزة التصنيع .

٥ ـ وفي آخر المراحل يأتي عصر الاستهلاك الشعبي العالي ، وهو الفترة التي تتجه فيها قطاعات الاقتصاد الرئيسية الى انتاج البضائع والخدمات الاستهلاكية الثابتة . وعلائم هـــذا العصر هي :

١) ارتفاع دخل الفرد الى مستوى عال .

٢) تغـير تركيب القوة العاملة من حيث ارتفاع نسبة مستخدمي المكاتب والعمال المهرة . وفي هذه المرحلة يتحقق مجتمع الرفاه ويخفف المجتمع من الاندفاع نحو زيادة استعمال التقنية الحديثة .

ويعتبر ظهور دولة الرفاه احد مظاهر هذه المرحلة في النمو ، حيث يقف المجتمع كلـــه امام ثلاثة اهداف رئيسية عليه الخيار بينها ، وهي :

أ ـ السعي للقوة والنفوذ في الحقل الخارجي .

ب ـ استعمال سلطات الدولة لتحقيق اهداف انسانية واجتماعيـــة عجزت السوق الخالصة عن تحقيقها .

جـ ـ توسيع مستويات الانتاج ، بحيث تتجاوز الحد الاساسي من الغذاء والسكن والكساء .

رابعا ـ مقارنة نظرية «ماركس» و «روستو» في مراحل النمو الاقتصادي

كرس روستو الفصل الاخير من كتابه « مراحل النمو الاقتصادي » لمقارنة نظريتـــه بالنظرية الماركسية . وفي المؤتمر الاقتصادي المعقود في برلين عام ١٩٦٠ تحت شعار « مظاهر

جديدة في الاقتصاد السياسي البورجوازي المعاصر » ناقش بعض الخطباء نظرية روستو وأبدوا رأيهم فيها . واستنادا لمحاضر مؤتمر براين والفصل الاخير من كتاب روستو سنناقش ونقارن النظريتين المذكورتين .

يحدد «روستو» اوجه الشبه بين التتابع التاريخي الماركسي وتحليله القائم على مراحل النمو بما يلي :

١ ـ ان كلا منهما ينظر الى كيفية تطور المجتمعات بأسرها من زاوية اقتصادية ، وكل منهما استقصاء للمشاكل والنتائج التي تواجهها مجتمعات كاملة عندما يتأصل التطور المتسارع في عادات هذه المجتمعات ومؤسساتها .

٢ ـ يقر كل منهما بأن للتغير الاقتصادي نتائج اجتماعية وسياسية وثقافية .

٣ ـ يتقبل كل منهما حقيقة مصالح الجماعات والطبقات في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ويربطها بالمصالح الاقتصادية .

٤ ـ يتقبل كل منهما حقيقة المصالح الاقتصادية في المساهمة بخلق الاطار الذي نشأت فيه بعض الحروب .

٥ ـ تثير النظريتان في النهاية مشكلة الهدف ، اي مشكلة الرخاء الحقيقي .

٦ ـ ان كلتي النظريتين تأتتان ـ من ناحية الاسلوب الاقتصادي ـ على التحليل القطاعي لعملية النمو .

ويضيف روستو الى ذلك بعض النقاط التي تفرق بين نظريته والنظرية الماركسية . ونقاط الاختلاف في رأيه هي التالية :

١ ـ خلافا للماركسية ، لاتعتبر نظرية روستو العامل الاقتصادي عاملا وحيداً اوعاملا غالبا في تحديد التطورات الاقتصادية ، وترى ان المجتمعات عبارة عن وحدات عضوية متفاعلة .

٢ ـ خلافا للماركسية ، تتوسع نظرية « روستو » في دراسة مجالات الاختيار عند مناقشة مشكلة الرفاه .

٣ ـ خلافا للماركسية ، لاتقتصر نظرية « روستو » في تحليلها للقطاعات الاقتصادية على قطاعي البضائع الاستهلاكية والبضائع الانتاجية ، بل تتوسع في تحليل مجاميع القطاعات الرئيسية .

ولا بد من القول ان ماأورده «روستو» في النقطتين الثانية والثالثة صحيح . اما ماجاء في النقطة الاولى فغير صحيح . وقد اوضحنا في مطلع هذا البحث ان الماركسية ترى ان اسلوب انتاج الحاجات المادية هو القوة الاساسية في تطور المجتمع ، ولكنها ليست الوحيدة . فالى جانبها

الوسط الجغرافي ونمو السكان وغيرها . كما اوضحنا ان كافة العوامل التي يشتمل عليها اسلوب الانتاج تؤثر على تطور المجتمعات ونموها .

اما الماركسيون فلم يجدوا اي شبه بين نظريتهم ونظرية « روستو » في مراحل النمو الاقتصادي ويقولون ان هذه النظرية تتضمن الكثير من الادعاءات اللاعلمية ، وان « روستو » يناقش الماركسية ليدحضها وهو لم يدرسها في مراجعها الاساسية .

ويأخذ بو . ج . غوستافسون على نظرية « روستو » النقاط التالية :

١ — يدعي « روستو » ان نظريته « تشكل في النهاية نظرية حول النمو الاقتصادي ونظرية اخرى اكثر شمولا حول التاريخ بمجموعه » ، بينما يؤكد بشدة منذ البداية « بأن مراحل النمو ليست سوى طريقة تصنيف محدودة في النظر الى الاحـــداث المتعاقبة في التاريخ الحديث ولا يمكن وصفها بأنها الطريقة الصحيحة دوما واطلاقا » ، وعليه فان نظرية « روستو » في المراحل هي نظرية اعتباطية ولا يمكن اعتبارها بديلا عن النظرية الماركسية .

٢ — لا تستند نظرية «روستو» على الحركية (الديناميكية) الداخلية للنمو الاقتصادي بل على ظواهر عرضية تواكب هذا النمو احيانا . ففي نظريته نجد علاقة كمية بين « الانطلاق الحاسم » و « السير نحو النضوج » . ولكن اساس هذه العلاقة يتغير فجأة عند مقارنة هـــذا المجتمع الاخير مع « مجتمع الاستهلاك الشعبي الواسع » ، فبينما وصف « روستو » **التطور الصناعي** نفسه في السابق اصبح الآن يصف **نتائج** هذا التطور .

٣ — تفتقر نظرية « روستو » الى علائم كيفية واضحة لمراحل النمو الاقتصادي . وهذا ناشيء عن انه يستند بصورة رئيسية الى محتوى لا الى شكل التطور الاقتصادي . وعليـه يكمن جوهر الانتقال عنده الى الانطلاق الحاسم في ارتفاع حصة الاستثمارات من ٥ الى ١٠ بالمئة او اكثر من الدخل القومي . ولكن هذا التغير الـكمي لا يغير لوحده البنية الاقتصادية الى درجة يستطيع الانسان بها ان يتكلم عن مرحلة جديدة .

٤ — تشترط فترة الانطلاق الحاسم ، في نظرية روستو ، تحقق شرطين معا هما : عرض رأسمال الاقراض ونشوء فئـة من الرأسماليين المستقلين . واذا كانت النقطة الاولى صحيحة ، فان النقطة الثانية تبدو صحيحة فقط من حيث المظهر الخارجي . لأنه من غير الممكن وجود فئة من الرأسماليين بدون وجود التطور الرأسمـــالي نفسه ، كما لايمكن وجود الرأسماليين بدون وجود الرأسمالية . وبالتالي لايمكن ان نعتبر وجود الرأسماليين شرطا لتحقق الانطلاق .

... تلك هي ، باختصار ، خلاصة النقـــاط التي يأخذها الماركسيون على روستو . اما تقييمنا الخاص لكل من نظرية روستو وماركس في مراحل النمو الاقتصادي فهي تقوم اساسا على مايلي :

١ — صنف روستو كافة المجتمعات القديمة تحت اسم «المجتمع التقليدي» رغم شدة التنوع في هذه

المجتمعات وهو « امر محدود الفائدة » جدا ، كما اعترف هو بذلك . وعليه فان مراحل النمو الاقتصادي عنده لاتشتمل في الواقع الا على فترة الانتقال من نظام القرون الوسطى الى المجتمع الرأسمالي المتطور كما شهده التاريخ في اوروبا والولايات المتحدة الاميركية . وقد اشار روستو بوضوح الى أن موضوع كتابه هو « معـــالجة المجتمعات اللاحقة للمجتمع التقليدي ، أي تلك المجتمعات التي اصبح في مقدورها أن تنمو بانتظام » . واذا كانت هذه المراحل تطابق الى هذا الحد او ذاك وقائع التطور التاريخي في التحول من الاقطاعية الى الرأسمالية ، فان نظرية المراحل الخمس لدى روستو لايمكن ان تنطبق على مجمل التطور الانساني ، وبالتالي أن تكون نظرية شاملة وبديلة عن النظرية الماركسية في هذا المضمار . ويمكن فقط مقارنة مراحل النمو الاقتصادي لدى روستو بمراحل التطور الرأسمالي الثلاث في الماركسية والتي شرحها ماركس في الجزء الاول من كتابه « رأس المال » .

٢ — درست نظرية روستو بشكل جيد تطور مختلف القطاعات الاقتصادية والفروع الصناعية في المراحل الخمس التي حددتها . وأبانت صفة عدم التنـــاسب والتوازن في تطور هذه القطاعات والفروع . كما ابانت عدم ضرورة تطور قطاع او فرع معين بالذات لتحقيق مرحلة معينة تقابله . وتشكل هذه الدراسة ، بحد ذاتها ، وبغض النظر عن تقسيماتها المرحلية ، مساهمة قيمة في دراسة تطور التاريخ الاقتصادي في العالم في فترة تطور الرأسمالية وازدهارها ، وذلك من وجهة نظر هيكلية ، اي من وجهـة نظر تطور القطاعات والفروع الاقتصادية في كثير من بلدان العـــالم الرئيسية . وبصل روستو من هذه الدراسة الى تعميات تصلح ان تكون دليلا في التخطيط الاقتصادي في البلدان النامية .

٣ — ان النظرية الماركسية في مراحل النمو الاقتصادي هي احد وجوه تطبيق المادية التاريخية على المجتمع . والادبيات الماركسية التي اوضحت مراحل النمو أو التطور الاقتصادي للمجتمع مازالت رغم صيغتها العامة ، مقتصرة على الغرب الاوروبي . وهي في دراستها لمراحل التطور تكرس اكبر الجهد لعلاقات الانتاج لا لقوى الانتاج . وقد اشار ماركس نفسه الى ان نظام ملكية الاراضي في الشرق يختلف اختلافا كليا عنه في الغرب الامر الذي يضع امام الماركسيين مهمة اجراء دراسات مفصلة للمجتمعات القديمة في بلدان آسيا وافريقيا واميركا . ان هذه الدراسات المحلية الموسعة هي التي ستقرر مدى عمومية وشمول النظرية ومدى انطباقها على هذا البلد أو ذاك ، وبالتالي صحة النظرية الماركسية في مراحل النمو .

الكتاب والموضوعات

الآداب

أندلسية

شعر شفيق المعلوف

سان باولو ـ البرازيل

يابنت اندلس وفي عينيك للبدو انتماء
غنى البنفسج في يُديك وفاح من فمك الغناء
وتكورت شفتان ، ثقب الناي ، ينفحه ضياء
وأطل فردوس على الأهداب وارتقصت سماء
وتململت عقد الأنامل كالدبيب له ارتخاء
تتلمس الأعماق بالرعشات ليس لها انتهاء
ولدانك الوردي أعياه وثوب وارتماء
هو مثلنا سكران ارهقه التشهي والظماء

...جرارةُ الثوب الطويل كأنْ عثّره الحياء
ردي الغطاء عن الكنوز فقد يضر بها الخباء
رديه عن كتفين لم يخلق لمثلهما الرداء
رديه عن نهدين فوقهما تطل الكبرياء
عن حبة سمراء أشرق خلف سمرتها مساء
أوفليلفكِ . . واتركي للظن أطيبَ مانشاء



أيها النازح الوفي



شعر : فائز جبور

بونس ايرس — الارجنتين

سرتُ نحو الرياض عند الصباحِ
بين نشوى الأمى وسكرة صاحِ

أدفع اليأس بالسكون واطوي
خفقـات الفؤاد طيّ جناحي

وأضمُّ الغصون فيهـا كأني
بين سرب من الغواني الملاحِ

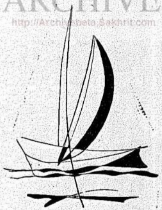
مرحباً بالربيـع يـدفع عني
سأمَ النفس من ضنىً وكفاحِ

امـلأ القلبَ بالرجاء نديّاً
من سنى الزهر والشذا الفوّاحِ

اي فجر وما أباكر فيه ... بسمة الشمس في جبين الصباح
وليال وما لجأت اليها ... أنشد الاهل بعد طول انتزاح
وحقول وما وقفت لديها ... أرشف الطل من ثغور الاقاحي
أطأ العشب باتئاد كأني ... عابد حل هيكل الادواح
فأناجي الطيور ترقص للشمس ... على مبسم الضحى اللمّاح
علّ منها لحناً يبدد ماقد ... حشدته السنون من أتراحي
قد سئمت الحياة سعياً ونفسي ... في غدوّ مع المنى ورواح

. . .

أيُّها النازح الوفيّ تنقّل ... باغتباط بين الأرواح للأرواح
كلمّا دغدغ الحنين فؤادي ... ونسيم الصباح هزّ جناحي
صفّق القلب واستقل اليهم ... صهوة البرق او أكف الرياح





سخرية

شعر راضي صدوق
ـــ الكويت

« سأكتبُ لك .. سأكتبُ لك .. »
وتزهو على شفتيكِ !
الحروفْ .
وتخفقُ عيناكِ .. بالهينمات ..
وتُغرقُ
في عالمٍ من طيوفْ .
وأَلوي ..
إلى جو حيِّ المستثار .
أُواسيهِ
من سكراتِ النزيفْ : -

ـ غداً ، ياشقيُ ، يطلُ الربيعُ ..
ويسحبُ عنكَ
ليالي الخريفْ .
ويبتسمُ الفجرُ ،
فالعالمون ضياءٌ سخيٌ ..
.. وحلمٌ وفيفْ .
«سأكتبُ لكْ .. سأكتب لكْ ..»
ومَرّتْ ليالٍ ..
ومَرّتْ سنونْ .
ونجواكِ في خاطري حيّةٌ
تزغردُ ، كالحلمِ
رغمَ المنونْ .
وما هلَّ حرفٌ ،
وما شاع عطرٌ كريمٌ
أكذّبُ فيه الظنونْ .
ونزّهتُ أنْ تكذبي وعدَنا
محالٌ ..
وهل يكذب العاشقونْ ؟
أيكذبُ هذا الجمال البريءُ ؟..
وتلكَ الشِّفاهُ ،

وتلكَ العيونُ ؟!

« سأكتبُ لكَ .. سأكتبُ لكَ .. »

ويسخو منكَ إلهُ الوفاءْ .

ويكتئبُ الحبُّ من وعدِنا ..

وتلعنُ روحكِ

ذكرى اللقاءْ .

وتشتمُ ثغركِ

كلُّ الحروف

وينفرُ من مُقلتيكِ

الضياءْ .

ولن يغفرَ الحبُّ ، ماتكذبينَ ..

وما تزعمينَ ،

هواءٌ .. هواءٌ ..

فمن يكذبِ الحبَّ ، لايرتجيهِ

إذا ثار هولٌ

وعمَّ البلاءْ .

فلا توقدي الشمعَ ..

إنَّ الخطايا

ستُطفيءُ ، حولكِ ، كلَّ الشموعْ .

ولا تطلبي العفوَ

إنَّ الصلاةَ بغيرِ اغتفارٍ ؛

هوانٌ .. خنوعْ ؛
فخلّي خطاياكِ في رجْسِها
مُخبّأةً ؛
في طوايا الضُّلوعْ ؛
ولا تسألي اللهَ غفرانَهُ
إذا لم يُطهّرْ هواكِ
الخُشوعْ .
ولا تكذبي الدّمْعَ ؛
إنّ الهوى ؛ سيفضحُ بالنورِ ؛
زيفَ الدُّموعْ !



الحرية

في الشعر الجزائري المعاصر

بقلم : صالح خرفي

الجزائر —

— ٢ —

حرية الضاد :(١)

ولو ارتضينا بالمذلة عيشة   لمشى الطغاة بها الينا ركعا
لكن حرف الضاد في لهواتنا   يأبى لغير العز ان يتضرعا

تلك هي الوقفة الصامدة المستميتة التي وقفها الضاد في وجه المستعمر في الجزائر ، وذلك هو الاباء الجامح الذي تشبث به فاستهدف ضراوة الاستعمار الثقافي والغزوات التبشيرية المسمومة . وعاش في صراع معها تلاحقه في الصفحات الاسبوعية المحدودة ، فيحتمي بالمدرسة الجرة . وكان احتماؤه بالكتاتيب قبل ان ترى المدرسة الحرة النور ولقد ضيقت عليه الحلقة في فترة ليست بالقصيرة فاستنجد بالمصحف الكريم ،

(١) نشر القسم الاول من البحث في العدد ٣٣ من « المعرفة »

الملاذ الاخير للابقاء على حشاشته ؟ وكان المستعمر ـ وهو يطارد الضاد ـ على يقين من انـه اذا اصابه فقد اصاب المقتل فلا غرو ان يستميت في المطاردة والملاحقة ، حتى الملاذ الاخير : « علينا ان نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه » . كلمة قالها رجل دين مسيحي اجنبي متعصب وهو يعني مايقول؟ويضيف الكاردينال لافيجوري: «فان واجب فرنسا تعليمهم الانجيل او طردهم الى اقاصي الصحراء » وفي اقاصي الصحراء تمتع الضاد بشيء من الغفوة الاستعمارية فانكب يلم شعثه ويستجمع قواه محتميا بمعاقل من المدارس الحرة والحلقات الدراسية المنتظمة في المساجد .

وكان الشعب وقد خارت سواعده المفتولة ؟ وفلت سيوفه المسلولة ؟ يشهر من العزيمة سيفا لايفل . ويعلق الامل على دينه ولغته حتى سنوح الفرصة لاعادة الكرة المسلحة ، وكان رغم الجراح المثخنة يتحامل على الاستماتة في وجه كل موجة ثقافية مسمومة وتركز الدفاع اول الامر مواجهة لمركز الهجوم في الدين واللغة وهل يتجسمان الا في المصحف بعد ان ضاقت بهما السبل في فروع العلم الاخرى وهل وجدا من ملجأ غير المسجد بعد ان لم يجدا طريقا الى مدرسة حرة ؟ وفي المساجد واقبية الكتاتيب لم يكن المصحف في معزل عن الطعنات ؟ ومحمد العيـد الشاعر الجزائري غالبا ماينصب نفسه وشعره لسان دفاع عن المصحف ولغته أمام هذه الطعنات .

يامعشر الطلاب هل من آخذ   بالذكر ؟ اومتمسك بعصامه
فتشرفوا بالأخذ من آدابه   وتعرفوا بحلاله وحرامه
ولكل شيء في الحياة أذبة   وأذبة القرآن من أقوامه
عملوا على التحذير من تفهيمه   فكأنهم عملوا على اعدامه

والى اللسان العربي المبين يمتد خط الدفاع :

لكم اللسان الفذ في إيضاحه   رغما عن الساعين في ابهامه
لاتهملوا هذا اللسان ، ففقدكم   في فقده ، ودوامكم بدوامه
ماهو الا عقد در فائق   رصفا ؟ وعلم النحو سلك نظامه

ويقف محمد الاقاني السائح موقف حافظ ابراهيم من الفصحى ومأساتها :

هاهي أم اللغى تنعي لمصرعها   هاهي ألفاظها تبكي وتبكينا
صارت شبيهة أثواب مرقعة   تضم من خرق طمر ملايينا
خلطتموها بألفاظ مشوهة   ولم تقيموا لها يوما موازينا
ووصفتموها بضيق في النطاق وقد   كنتم على وصفكم قوما ملومينا

بل هي أم لغات الارض اجمعها ... كل لها عند ضيق اللفظ يأتينا
يا ربة الحسن؟ياذات الجمال ويا ... مليكة الأمر رفقا اذ تلومينا

وخيبة الامل التي كانت انعكاسا للجهـــل الضارب أطنابه في اوساط الشعب، كانت تقابلها اشراقة أمل في استقبال المغتربين العائدين بالعلم الى وطنهم المهيض الجناح وهم قلة أفلتت من قبضة المستعمر الى جامع الزيتونة، بتونس. فعادت الى الشعب عودة الكتيبة المدججة بالسلاح، فانحصرت فيها آمال الخلاص جسمها الشاعر محمد السعيد الزاهري قوله :

فأهلا وسهلا بالذين تطوعوا ... لخدمة هذا الشعب شعب الجزائر
تجلوا على هذي الجزائر، بعدما ... سجا الليل أشباه البدور الزواهر
فقوبهم شعب الجزائر مثلما ... تقر لدى الأحباب عين المسافر
شباب يرى تفريطه في بلاده ... وتضييعه للقوم احدى الكبائر
ليهنأ بهم شعب الجزائر انهم ... هداة ذوو خير بوعر المصاير
فلا زال ابناء الجزائر طالعا ... عليهم فتى منهم جميل المظاهر

ووجدت المدرسة الحرة طريقها الى الحياة ولكنه طريق ملؤه الأشواك والعقبات لايمكن تخطيطه الا بخطى دامية، وقد تتعثر الخطى في منتصف الطريق فيقيل الشعب العثرة بعرق جبينه، وسعة صدره، معلقا أمله بناء المدرسة وافتتاحها لتأدية رسالتها. والرسالة لخطورتها في نظر المستعمر، كان يؤلب للنيل منها ومن قداستها كل امكانياته، ويجند لها حتى من أبناء الشعب من يرميها بكل نقيصة. فاصبح المتحمل لها هدفا للضربات الاستعمارية المباشرة، وغير المباشرة على أيدي الأذناب الذين يغضون الطرف من رسالة العلم لأنها رسالة معنوية. وكانت المادة ميزان الحياة بالنسبة لهؤلاء وبالنسبة لجانب كبير من الشعب الذي حرمه التفقير الاستعماري لذة الروح والمعنى. والابقاء على الاعتزاز بهذه الرسالة يتطلب ايمانا بها راسخا وتضحية صامدة، وتحكيما للنظرة البعيدة المتفانية في اهداف الغد، حين يحكم ذو النظر القصير المصلحة المستعجلة العابرة. وهو ما نستشفه من أبيات محمد العيد :

أرى جل أصحابي ازدروا بوظيفتي ... وقالوا هموم كلها ووجائع
وقد زعموا عمري مع النشء ضائعا ... وتالله ماعمري مع النشء ضائع
سيروون عني الشعر والعلم برهة ... وتطلع للاسلام منهم طلائع
فمنهم خطيب حاضر الفكر مصقع ... ومنهم أديب طائر الصيت ذائع

ومنهم ولوع بالقوافي لفكره بدائـــه في ترصيفها وبدائـع
ومنهم زعيم للجزائر قائـــد له في مجالات الجهاد وقائـع

نظرة بعيدة من السهولة بمكان ان نعيش اليوم واقعها ، ولكن من الصعوبة بمكان ومن التضحية بمكان استحضار هذا الواقع والاقتناع به قبل اربعين سنة . ولكنها النفوس الابية ، غضت الطرف عن النعيم الزائف الذي زخرفه المستعمر لاجتلابها ، وطارت الى النعيم المتجاوب مع كرامة الشعب في ظل دينه ولغته وطارت اليه على أجنحة التضحية والتفاعل الراسخ مع المميزات القومية لهذا الشعب وفي مقدمتها الضاد .

وعى الله في ارض الجزائر نهضة مباركة في العلم تسمو الى النجم
وترمي الى أهدافها بقصودهـــا موفقة الانظـــار صائبة السهم
وتنشيء للفصحى مدارس عـــدة مشيدة البنيـــان محكمة الدعم

وكانت القوانين الاستعمارية الجائرة ، الجارية على اعتبار الفصحى لغة أجنبية وتوطين اللغة الدخيلة ، تستثير في الشعب تمسكا اقوى وتشبثا أعنف بأبية عدنان .

نحن الى نيـــل الحقوق نفوسنا وتأبى علينا نيلهـــا قوة الغشم
ونقصى عن الفصحى ونلهى بغيرها وليس سوى الفصحى لسان لنا رسمي
وما نحن الا من ســـلالة يعرب فمن رام عنهـــا فصلنا باء بالرغم

واذا كان الضاد مرجع الفضل في المحافظة على الرابطة الاخوية التي تربط بين أبناء الجزائر وم" المستعمر ظل عراها ، وكان مرجع الفضل في استجلاء الهوة السحيقة التي تفصل بين الشعب والدخيل ومهما اخفاؤهـــا بأغشية ضبابية . فبالاحرى ان تكون الرابطة الواسعة بين الجزائر والشعب العربي ترجع في فضل الابقاء عليها الى الضاد :

صل العرب العرباء واحم لسانهم فانـــك من أصلابهم تتحـــدر

واحياناً تتلاشى ملامح هـــذه الرابطة ، وتتوارى معالمها فيستمد الثائه الحيران البصيص النوري من الضـــاد :

حوت في عزونا الى العرب ، لولا بكر خصبة ، ولسن حـــداد

حوية العقيدة :

آ لت الحركة الطرقية الصوفية في الجزائر — مع مر الزمن — الى سلاح في يد المستعمر لتخدير الشعب باسم أعز ما لديه وهو الدين ، وأحاط دنيا الطرقية بهالة من الاكبار والاحترام،

طالما خودع بها الساذج البسيط من ابناء الشعب ، ففسرها تفسير العناية من (ام الوطن) بدين البلاد وتقاليدها . فزادت المأساة استفحالا وازدادت الدائرة اتساعا ، وساعدها على ذلك الجو الموبوء بالتجهيل والتفقير فشملت جل المواطنين . فاستطاعت (الزوايا) ان تفتح لهـا زوايا في قلوب الشعب وتسحب وراءها جيشا جرارا من ضحايا المسخ الاستعماري مع مظهر ديني مزيف وقد بلغت الظاهرة من الخطورة مبلغا كان له الفضل الاول في انبعاث الحركات الاصلاحية والجمعيات الثقافية والنوادي الخطابية كرد فعلي للمأساة . فقد اضحت العقيدة الدينية في مهب الرياح ورانت على جوهر الدين أدران ، الدين منها براء ، وساء فهم الشعب الدين عندما اصبح يفهمه فهما يساير سياسة المستعمر في البلاد ، ولن نكون سياسته الا كما قال احد رجال الدين المسيحي : « ليس غرضنا من فتح المدارس في شمـال افريقيا ان نكون عقولا مثل عقول مونتسكيو أوجان جاك روسـو او فولتير ولكن لنبدل دينا بدين ولغة بلغة وعادات بعادات » .

وقدم الجنرال بيجو بعض الشيء من ابناء الجزائر الى الاب المسيحي (بريمو) قائلا له : حاول يا أبت ان تجعلهم مسيحيين ، واذا فعلت فلن يعودوا الى دينهم ليطلقوا علينا النار .

وكتب سكرتير الجنرال في مذكرات عن الاحتلال : « آخر ايام الاسلام قـد دنت وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر اله غير المسيح . ونحن اذا امكننا الشك في ان هذه الارض تملكها فرنسا فلا يمكننا ان نشك على كل حال انها قد ضاعت من الاسلام الى الابد ، اما العرب فلن يكونوا ملـكا لفرنسا الا اذا اصبحوا مسيحيين جميعا » .

وارسل الـكاردينال لافيجوري رسالة الى الادارة الفرنسية يبين فيهـا وجهة نظره في احتلال الجزائر كرجل دين . فقال :

« علينا ان نحرر هذا الشعب ؟ ونخلصه من قرآنه ؟ وعلينا ان نعنى على الأقل بالاطفال لننشئهم على مبادىء غير التي شب عليها أجدادهم ؟ فان واجب فرنسا تعليمهم الانجيل او طردهم الى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر » .

تلك هي الخطة المبيتة للدين في الجزائر ؟ وليس من الغرابة ان تجند لها جيوش من المبشرين يختطفون فلذات الاكباد من مهودهم ؟ ليترعرعوا في مهود اجنبية ولكن الغرابة في ان الاستعمار استطاع بواسطة التدجيل الديني واسباغ القداسة على الاولياء ان يجند ايضا من أبنـاء الشعب المخدوعين من كانوا في خدمة الخطة الصليبية المبيتة ؟ وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا .

ولم تكن الشاعرية المرهفة الحس الوفية لدينها ومبادئها لتختار سلامة الجلوس على الربوة وتعيش بمعزل عن هذا المعترك العقائدي الذي يقف الاسلام فيه بين الحياة والموت . بل كانت الشاعرية في الخطوط الامامية من الواجب ، تكيل الصاع صاعين لمن يكيد للاسلام ؟ وتنزع في حفاظها دونه الى عرق عربي ، أصيل في عروبته ودينه .

فهذا (آشيل) المعمر الفرنسي الذي تصدى للتهجم على الدين والقرآن في سلسلة مقالات كتبها بجريدة (لاديش) بقسنطينة في اوائل هذا القرن، يتصدى له بدوره الشاعر محمد العيد، ويقف له بالمرصاد:

قل للذين رموا هذا الكتاب بما ... لم يتفق معه شرح وتـأويل
هل تشبهون ذوي الالباب في خلق ... الا كما تشبه النـاسَ التماثيل
فاعْزوا الاباطيل للقرآن، وابتدعوا ... في القول، هيهات لاتجدي الاباطيل
وازروا عليه كما شاءت حلومكم ... فـانه فوق هام الحق اكليل
مـاذا تقولون في آي مفصلة ... يزينهـا من فم الايام ترتيل
ماذا تقولون في سفر صحائفه ... هدى من الله محض فيه جبريـل
ان كان أعدل قانون يساس به ... أمر الشعوب، ففيم القال والقيل ؟

ثم يتصدى الشاعر لآشيل في مبارزة حادة، وتحد صارخ:

ما بال آشيل في (الدبيش) يسخرمن ... آيات محكمه، لا كان آشيـل
ما بال آشيل يهذي في مقـالته ... كحالم راعه في النوم تخييـل
ما بال آشيل يزري المسلمين وهم ... غرّ الموائك، أنجـاب بها ليل
أفكارهم بهـدى القرآن ثابتة ... فلا يخامرها في الرأي تضليل
وأمورهم بينهم شورى، ودينهم ... فتـح من الله، لا قتل وتمثيل

واذا تجسم في آشيل المعمر الفرنسي، عنصر التبشير الصليبي الأرعن والاستماتة وراء ابادة الاسلام. فهناك من يتجسم فيهم العنصر المساند لهذا التبشير بمـا ألصقوا بالدين من خرافات وأضاليل، وبما الحقوا بالشعب الساذج من تخدير مستسلم المفارقات العجيبة، منقاد للشطحـات العشواء في حلبة الصوفية المزيفة. وانك واجد الصورة الناطقة بالمأساة في هذه الابيات للزاهري قالها سنة ١٩٣٤ م:

لولا الألى ابتدعوا في ديننا (طرقا) ... لمـا تشتت امر الدين وانقسما
كم يدعي الزهد شيخ لا نرى أحدا ... في الناس يشبهه حرصا ولا نهما
ويدعي الدين من ان لذة عرضت ... يوما ترامى على اللذات مغتنمـا
شيخ تهدم من ضعف ومن هرم ... وان يكن ليس يشكو الضعف والهرما

ان قال اني (ولي) صدقوه ، وان هو ادعى الغيب قالوا أحكم الحكما

وان تعلم بعض الشيء تهجية قليلة ، هتفوا يا أعلم العلما

اذا بكى حسبوا الايام باكية ويضحك الدين والدنيا اذا ابتسما

في كفه المنع والاعطاء عندهم والدين والخير فيما شاد أو هدما

ما انفك الشعر يلاحق هؤلاء الدجلين ويصليهم شواظا من النقد اللاذع والتهكم الساخر وتبصير الشعب باقنعتهم المزيفة . وذلك ما نستشفه من أبيات حمزة بوكوشة :

برمت من الاقامة في بلاد يؤول اهلها الكفر الصريحا

يقودهم المدجل للزوايا ويأخذ منهم الثمن الربيحا

ليعطيهم من الجنات قصرا ويمنعهم إذا قدر أتيحا

ونافسهم من العلماء قوم بترك الدين يشرون المديحا

ولم تتوقف المأساة عند الغنو للتضليل ، ولكنها امتدت الى الغنو للقبور ، والتمرغ على ترابها وتقبيل احجارها ، والاستنجاد بالرميم البالي من هيا كلها :

سمعتك تدعو الميت في القبر ضارعاً فياعجبا للحي يستصرخ الميتا

تخذت من الدعوى لباسا ولو ترى بها مايرى اهل النهى لتعريتا

هياكل قائمة على هياكل حاول شاعرنا محمد العيد ان يهزها بهذين البيتين لعلها تتعرى من اللباس الخادع ، والقناع الزائف فتثوب الى رشدها ، الى عقيدتها الصحيحة .

وكانت الرسالة الاصلاحية لهذه الفترة في نظر حمزة بوكوشة محصورة في محاربة هذه البدعة والتفرغ الكامل لدحضها ، فاذا كانت هذه الرسالة من الذكرى الخالدة واليد البيضاء في التأبين الحولي لوالده فهي كذلك النقطة الحساسة والمحور الذي تدور عليه أبياته في تهنئة جريدة (الوزير) التونسية بسنتها الجديدة . بعد ربع قرن في خدمة الصحافة . قال مخاطبا صاحب الجريدة :

ربع قرن قضيتها في الصحافة   دائبا ساعيا لنشر الثقافة
لم تؤيد مدى الحياة خؤونا   غادرا بالبلاد ، اوذا خرافة
يدعي العلم والتصوف حتى   يكسب الفلس أو يروم اختطافه

تلك لوحة قاتمة للعقيدة باهتة الالوان لم تأل ريشة الشعر جهدا في بعث ألوانها الزاهية ، وبعث الحياة في ضلالها الباهتة ، وللشعر في ذلك يد لاتنكر ، وتلك هياكل هامدة كان الشعر الحقنة التي فجرت الحياة في شرايينها ، والهزة التي بعثت الحركة في مفاصلها .



فن الأقصوصة العربية القديمة

بقلم: محمد خير الحلواني

هل عرف العرب القدماء القصة الفنية ؟ وهل كانت ملكاتهم الذهنية قادرة على خلق الحدث القصصي، وتصوير الأشخاص وسط بيئة معينة ؟ أما المستشرقون فيذهبون الى النفي والرفض، ويعتقدون أن العرق السامي كله ضعيف الحظ من الخيال، ودون العرق الآري توقداً في الذكاء، وسداداً في الرأي، وهذا هو المسئول عن غيبة «الميثولوجيا» في آداب العرب والآداب السامية الأخرى(١).

والواقع أن هذا الزعم يحمل جانبين مترابطين بعضهما ببعض، أولهما غياب القصص الخرافي عند العرب،

(١) انظر كتاب « The modern Arabic short story » P. 28 للدكتور عبد العزيز عبد المجيد.

وثانيهما ضعفهم الخيالي . واذا كنا لانستطيع أن نفند هذا الرأي ، فلا أقل من أن نرد غياب الميثولوجيا الى الطبيعة الصحراوية الضاحية التي احتضنت العرب ، وأزالت السدود والعوائق أمام ابصارهم ، وطبعتهم بطابع البساطة والصراحة والوضوح ، فلا الرعود ، ولا الغيوم المتكاثفة ولا السيول الهادرة ، بقادرة على أن توحي للعربي بغير الخير المنتظر والبركة المقبلة ، ومن هنا تخيل العربي معالم الطبيعة من حوله تخيلاً صادق الحدس ، فعراها من الارواح الشريرة التي كساها اليونان إياها ، ورآها على حقيقتها ، وعاش دنياه واقعياً بعيداً عن الهوس ، وان كانت هذه الدنيا لاتخلو من نوازع الخيال ، ولا تفتقر كثيرا الى عناصر الاحلام(١) .

ومهما يكن من شيء ، فاننا نستطيع أن نعرض للأقصوصة العربية القديمة بالبحث المسهب ، كاشفين عن كثير من قيمتها الفنية ، مشيرين الى ماتحمل من عناصر الفن القصصي وشروطه ، ثم لانقيم وزنا لما يذيعه بعض الدارسين من العرب أو المستشرقين .

واذا تأملنا هذه العناصر الفنية التي رسمها المحدثون بدت لنا موزعة في خطين ، أما الأول فيبرز لنا خصائص لابد منها للقصة ، سواء أكانت قديمة أم حديثة ، فالعقدة ، والتشويق ، والمماطلة ، والحل ، امور تكاد تكون بدهية في كل حدث يقص ، او خبر ينقل على شكل من اشكال القصة ، غير أن الثاني يوزع عناصر قد تغيب في زمن وتظهر في آخر ، فاذا قلنا ان المعاصرين اليوم يعنون باشخاصهم وتحليل نفوسهم ، والكشف عن صراعهم في الحياة ، ويهتمون كذلك برسم المجتمع المعاش رسماً حياً من خلال شخصيات او حوادث كاشفين عن عيوبه وتياراته وعقائده ، وصراعه ، كانت هذه النوازع محدثة غير قديمة ، وقد يبدو بعضها في قصصنا العربية القديمة وقد يخفى ، ولكن خفاءها — على كل حال — لايدل على نقص في آداب العرب ، لأن وجودها في الأقصوصة العربية المعاصرة لايدل على سمو في آداب الغرب ، مادامت مستجدة أو نتيجة لتطور طويل . ومن هنا نستطيع أن نعيد النظر في تراثنا القصصي ، ونحن على ثقة تامة من أن العرب كغيرهم ، عالجوا القصة كما عالجها سواهم ، ووفروا لها من قواعد الفن ما كان يتوفر عادة لكتابها عند معاصريهم .

. . .

ونجد أنفسنا مضطرين الى كثير من الاحتياطات حين نبدأ دراسة الاقصوصة العربية . أنطبق عليها قواعد الفن الجديدة ، وهي نفسها لم تظهر الا في القرن التاسع عشر على أيدي

---

(١) في الأخبار التي نقلها القدماء كثير من ملامح الميثولوجيا ، ولاسيما في هذه الكتب : مقدمة الجزء الأول من كتاب « الحيوان » للجاحظ . والجزء الثاني من كتاب «حياة الحيوان » للدميري ص ١٨ — ١٩ ، وكتاب الأصنام لابن الكلبي ص ٥٦ .

« إدكار ألن بو » و « جوجول » ، أم نحاول ان نترصد خصائصها ونكشفهـا دون العناية بما انتهى اليه هذا اللون الأدبي ؟ الحق أن الطريقة الثانية أجدى في الدراسة المطولة ، على حين تبقى الطريقة الاولى اقرب الى طبيعة بحث ينشر في مجلة ، وقد حاولنـا هنا ان نمزج بين الطريقتين كلتيهما .

ولا بد لنا من ان نشير الى ان التعاريف الاولى التي كتبها ارباب القصة القصيرة ، لم تكن تنطوي على أية ملاحظة من شأنها ان تميزها من القصة الطويلة بغير شرط « القصر » وهذا واضح في قول رائدها الاول « إدكار ألن بو » : انها قصة نثرية تحتاج قراءتها الى وقت يتراوح بين نصف الساعة والساعتين وقد علق « هدسون » على هذا بقوله : « لوضع الفكرة نفسها بعبارة اخرى ، يمكن ان نقول : ان الاقصوصة هي التي تقرأ بجلسة واحدة » (١)

وقبل أن يطلع القرن التاسع عشر بهذا النوع الادبي ، لم يكن هناك تحديد او تعريف او مصطلح من شأنه ان يحدد صفات القصة القصيرة وخصائصها ، بل ظلت الحيرة ترتسم على وجوه النقاد والباحثين في الأدب ازاء رسم الابعاد الفنية لها « فليس ثمة ما يميز قصص موباسان وهنري من قصص شوسر الشعرية عن الطحان والعمدة » كما ان الأقصوصـة « في السنوات الخمسين الماضية قد تشعبت تشعبا يصعب معه تحديد أبعادها وتعريفها » (٢) .

أما ستيفنسون فقد جعلها ثلاثـة أنواع : نوع يعنى بالحبكة The Plot وآخر يعني بالشخصية Character وثالث بجو أو موقف معين Acertain atmosphere (٣)

ومن الخير أن نلتمس في الأقاصيص العربية القديمة ما يمكن انتماؤه الى نوع من هـذه الانواع ، فربما كان هذا التحديد منقذا من تلك الحيرة التي تحدثنا عنها قبل قليل . ولكن تصنيف الأقاصيص العربية وفقه لا يخلو من صعوبة ، فقد تجمع واحدة منها بين الالوان الثلاثة ، وقد تنفرد أخرى بلون دون ان تهمل صفات لون آخر .

ومهما يكن من شيء ، فانا نريد ان نقف قليلا عند قصة الطائي مع النعمان بن المنذر (٤) وقصة الاعرابي الجواد المنسوبة الى الحطيئة (٥) ، وعند بعض أقاصيص الجاحظ ، وسنجد أن

---

(١) انظر كتاب: An introduction to the study of literature P. 337
وانظر ايضا : Reader's companion to world literature . P. 415

(٢) The Reader,s companion to world literature . P. 415

(٣) The Modern Arabic short story . P. 85

(٤) انظر مجمع الأمثال للميداني ٧٠ ـ ١

(٥) هي قصة شعرية ولكنها تحوي كثيرا من خصائص الأقصوصة .

الأولى مما يعني بالحبكة ، وأن الثانية تجمع خصائص عدة ولكنها اقرب الى اقصوصة الجو ، وان الجاحظ يعني بالتحليل والشخصيات .

ففي الاولى نجد الحادثة تتشابك قليلا قليلا ، وتتعقد على نحو فني كامل ، إذ تبدأ بدءاً هادئاً فتصور النعمان يخرج الى الصيد ، فيجمح به الحصان خلف عَيْر يصيده ، فتصيبه السماء ، وتلجئه الى بيت رجل فقير من طيء يحسن مثواه وهو لا يعرفه ، وفي الصباح يخبره بأنه النعمان ملك الحيرة ، ويشجعه على الاستعانة به اذا احتاج ، ثم تمضي الايام ، فيقصد الطائي النعمان ، ويحل الحيرة في يوم بؤسه ، فيتلامح له الموت ، ويطلب أن يترك سنة ثم يقتل ، ولا يجد من يكفله غير قراد بن أجدع ، ويحين الوقت المحدد لقتله ، فيتأخر ويهيأ قراد للقتل به ، ويطول تشوق القارىء باحتجاج رجال الحاشية على النعمان ، ثم تظهر المفاجأة بوصول الاعرابي ، ويكون الحل بعفو النعمان عنه وعن قراد ، لئلا يكون ألأم الثلاثة .

وهكذا نجد الحبكة القصصية تجري بالحادثة مجرى طبيعياً ، فتبدأ هادئة ، ثم تتشابك ، وتزداد تشابكاً ثم تصل الى العقدة ، ثم يظهر الحل المفاجىء في النهاية .

وقصة الحطيئة ، توفر الاساليب الثلاثة التي تحدث عنها ستيفنسون . وان كانت اقرب الى القصة التي تعنى بالموقف أو الجو ، فاذا اردت الحبكة ، بدت لك على غاية من الدقة والأحكام . فهي تبدأ بتقديم البطل للقراء ، ووصف البيئة التي يعيش فيها :

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

الخ ...

ثم لا تلبث الحوادث أن تظهر ، ثم تتشابك ، ذلك أن الأعرابي هذا يرى شبحاً وسط الظلام فيروعه ثم يتبينه ضيفاً حل به ، وهو لايملك القرى ، وهنا يتدخل ابنه فيزيد من تشابك الحوادث وتعقيدها حين يطلب منه ان يذبحه ليكون طعاما للضيف ، لئلا يذموا في العرب جمعاً وهكذا تبلغ القصة عند هذه النقطة ذروة ارتفاعها وتصاعدها ، ثم تأخذ بالانحدار من الطرف الآخر لتصل الى الحل الأخير فالاعرابي يعاني صراعـــاً شديداً بين واجبه نحو ضيفه ، وبين عاطفته نحو ابنه :

فروى قليلا ثم أحجم برهة وان هو لم يذبح فتاه فقدهمّا

ويمر قطيع الحمر الوحشية ، فيصفها الحطيئة إمعاناً في التشويق والمماطلة ، فهيء قد انتظمت من خلف مسحلها نظماً » وهي كذلك « عطاش تريد الماء » ثم يصور لنا حركة البطل الاعرابي الذي « ينساب نحوها » انسياباً يحمل نزعات حية من النفس الانسانية ، التي تريد أن تحفظ على نفسها ولدها ، ولا تفوت القنص وقد لاح .. والحل لم يأت بعد ، لقد ظمئت نفس الاعرابي

الى دماء القطيع ، كما ظمئت هي الى الماء في المنهل ، وهكذا يظل القارىء يعيش هذا الصراع بين الصياد الجوادوالحمر الوحشية ، الى أن تخر أتان « قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحماً » وهنا يقف على الحل الاخير بعد أن طال تشوقه اليه(١) .

ومامن شك في أن القصة هذه لاتقف عند حدود بنائها الفني ، ولكنها تبدي من طرف آخر صورة لرجل أو « لشخصية » – على حد تعبير ستيفنسون – ذات صفات خاصة ، فهي على شراستها ، تلك التي ترى بها الانس وحشة ، والبؤس نعما ، تهم بذبح ولدها وتقديمه للضيف ، وقد احسن الحطيئة تصوير الصراع ، والحركة الحية الداخلية في نفس الاعرابي ، أرأيت اليه وهو أشد ظمأ الى دم القطيع منه الى الماء ، ثم أرأيت اليه يحكم صيده ، فلا يطيش أمام الفوز المبتدي له ، ولكنه يحسن النهاية .

فامهلها حتى تروت عطاشها فأرسل فيها من كنانته سهما

وهكذا يضع الحطيئة امامنا هذا الرجل الطاوي منذ ثلاث ليال ، في « موقف اوجو » هو ، حياة البادية ، اعرافها ، تقاليدها ، خشونتها ، شظف عيشها ، ووسط هذا كله يقوم الاعرابي بعمل جليل او يكاد .

أما اقصوصة الشخصية فقد عنى بها الجاحظ في البخلاء خاصة ، اذ صور لنا نماذج كثيرة من بخلاء العرب والعجم ، وان كان هؤلاء يجمعون غالبا في صفتين غالبتين ، هما البخل الشديد ، واستخدام القياس او المنطق في تبرير بخلهم والدفاع عنه .

واذا تركناهذه الالون الثلاثة من الاقاصيص كما صنفها ستيفنسون – وقفنا امام ملامح قصصية في الاقصوصة القديمة ، يجدر بالباحثين أن يمعنوا فيها النظر ، وان يتريثوا عند القاء احكامهم على فن الاقصوصة العربية ، وأحب أن أبدأ بالجانب **الخيـالي** منها ، لأنه مثار الخلاف بين المتعصبين على العرب والمتعصبين لهم .

والواقع أن من يتأمل الاقصوصة القديمة عند العرب ، يجد امامه لونين بارزين من الوان الخيال ، لونا يعتمد على الواقع اعتمادا صرفا ، فينظمه تنظيما جديدا ، ويعيد تركيبه على نحو آخر ، شأنه شأن الاقصوصة الحديثة ، وهذا واضح في المقامات التي عنيت بطبقة خاصة من الناس ، هم أهل « الكدية » ، ولونا ثانيا يعتمد الواقع ثم ينطلق به الى مسارح فسيحة جامحة . ويحلق به في آفاق مديدة قد تصل به الى دنيا الخرافات والاساطير ، كما في كثير من أقاصيص الف ليلة وليلة .

---

(١) يظهر ان القصة متأثرة بقصة ابراهيم الخليل حين هم بذبح ولده اسماعيل . كما يظهر أنها موضوعة على لسان الحطيئة وليست له .

أما عنصر **التحليل** فقد تحدثنا عن بعضه في قصة الحطيئة ، وان كان لم ينفرد به دون غيره من شعراء القصة القدماء ، بل لعله يتضاءل اذا وضع بجانبه عمر بن أبي ربيعه ، فقد ابدع كل الابداع حين صور لنا تسلله الى خيام محبوبته ، بعد ان ترك ناقته عورة ، لطارق ليل او لمن جاء » وبعد أن « غاب قمير كان يرجو غيوبه – وروّح رعيان ونوّم وسمّر » ثم اقبل يحدثنا عن خلجات نفسه ومناجاته لها ، فأين خباء المحبوبة ؟ وكيف يدخل اذا عرفه ؟ وكيف يخرج اذا دخل ، ولم يكتف بذلك ، بل نقل الينا انفعالات المرأة المحبوبة بهذه الابيات التي تكفي وحدها دليلا على مهارة التحليل :

وقالت وعضت بالبنان : فضحتني — وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
فوالله ما أدري ، أتعجيل حاجة — سرت بك أم قد نام من كنت تحذر
فقلت لها بل قادني الشوق والهوى — إليك ، وما عين من الناس تنظر
فقالت وقد لانت وأفرخ روعها — كلاك بحفظ ربك المتكبر
فانت أبا الخطاب غير مدافع — علي أمير ما مكثت مؤمر

وهكذا تلين المرأة ويهدأ روعها ، بعد حذر وخوف شديدين ، وبعد ان صور لنا الشاعر خلجاتها امام مباغتته إياها بالتحية .

أمر آخر اتصفت به الاقصوصة العربية القديمة ، فقد كانت هادفة تنشر العبر الأخلاقية وتثير في النفس ، عواطف تميل الى الموعظة والرشاد ، وما من شك في ان القرآن الكريم هو الذي اوحى للقصاص العربي باستخدام الاقصوصة لأغراض خاصة اخلاقية هادفة ، بما بث في اقاصيصه من مواعظ ، وما ضمنها من عبر وحكم .

وربما كان العرب اول الامم في هذا الشأن ، فقد كان عمر الفاروق ومعاوية يضعان في المساجد من يقص على المسلمين عقب الصلاة ، ليهدوا الناس عن طريق هذا اللون الادبي، وليكون الوعظ في هذه المرة بعيدا عن التلقين الذي تحمله الخطابة ، لأن القصة تستطيع ان تثير في المتلقي رعشات عاطفية امام جلائل الاعمال ، وامام سير الابطال والقديسين .

هكذا كان ابن المقفع يسوق هذه الالوان من الاقاصيص في كليلة ودمنة ، مترجماً عن الفارسية آناً ، ومؤلفاً آناً آخر ، وهو في العملين كليهما يربي العقل كما يربي القلب ، ويثير في الذهن اشياء ، كما يرعش العاطفة بأخر ، وهكذا ايضا كان الحطيئة يهدف الى بذر الجود في نفس من لا يعرف الجود ، كما كان الجاحظ يرمي – وهو ساخر – الى صغار النفس ، وضعف

الانسان، حين سلط على قاضي البصرة المترمت ذبابة احالته من صنم جامد، الى حركة لولبية (١) .

ولقد سرت في كثير من اقاصيصنا القديمة روح **إنسانية** خيرة ، حتى ليمكن ان نفخر بأننا أول الامم التي عالجت القصص الانساني ، ويكفي أن نتذكر ماجاء من قصص الكرم والبطولة والنجدة والوفاء والامانة ، حتى ندرك مدى مايزخر به ادبنا القديم من سمو إنساني ، وروح متفتحة ، ووقوف عند جلائل الأعمال ، وأعاظم الامور(٢) .

اما ماحملته اقاصيصنا القديمة من **صور الحياة** المعاصرة لها . فهذا لايمكن التفصيل فيه في بحث كهذا ، فأنت تستطيع ان تقف امام اقاصيص الحب العذري لتجدها « مثال الهوى البريء فاننا لنستروح بها روح الصحراء فلا غش ولامين ، بل حب صحيح قاتل ، تأبى عليه التقاليد ان يلقى الهناء ، وهذا هو الطابع العربي المحض(٣) » . ولما كتب الجاحظ كتابه البخلاء ، صور لنا في اقاصيصه روح العصر ، وروح الجدل والقياس التي تظهر عند عدد كبير من متفقي البخلاء ، كما نقلنا نقلة صادقة ، الى حياة الناس ، او قل : حياة فئة ذات صفات تؤثرها ، وتختص بها ، وهل نحتاج الى الحديث عن اقاصيص « الف ليلة وليلة » وما حملته الينـــا من صور الحياة البغدادية والمصرية والبصرية ، حيث وضعت امام ابصارنا صوراً عن بلاطات الخلفاء والامراء ، واخرى عن بيوتات التجار ، والصناع ، وثالثة عن الشطار والعيارين ، وحين كشفت لنا عن نفوس الحكام كشفها عن نفوس الرعية ، وابدت لنا البيئة العربية ممتزجة ببيئات اخرى كالهندية والفارسية(٤) .

وحين نصل في حديثنا الى **لغة** هذه الاقاصيص، وما فيها من **حوار** ، نجد الجاحظ يحلق في اجواء سامية ، فقد حمّل حواره من لغة الحياة مالم يكن ينتظر من كاتب عاش في عصره، فقد جعله حياً ومصوراً ، أما عناصر الحياة فيه فتبدو لك في الروح الساخرة أحيانا ، تلك التي تطفو على سطوحه ، وفي الجدلية أحيانا اخرى ، وهي سمة بارزة في اسلوب الجاحظ القصصي وغير القصصي ، أما أنه مصور فهذا مالايستطيع انكاره منكر ، لأنه يصدر عن الرجل الذكي العالم

(١) القصة في كتاب الحيوان ٣ / ٣٤٣/

(٢) هذه الاقاصيص موجودة في كتب التاريخ كالطبري والمسعودي .. وكتب الادب التي تعنى بالاخبار كالاغاني والعقد الفريد ، وعيون الاخبار .

(٣) كرم ملحم كرم ـ مجلة الكتاب ـ المجلد الثاني ـ الجزء التاسع . ص ٢٩٨

(٤) للدكتورة سهير القلماوي فصل قيم عن هذا في كتابها « الف ليلة وليلة » ص ٢١٦ ومابعدها. انظر كذلك كتاب « في أصول الأدب » للزيات . ص ٦٣ وما بعدها .

لا كما يصدر عن البسيط الساذج ، حتى ليبلغ الامر في بعض المواقف حداً يصل به الجاحظ الى استعمال اللغة الفارسية ، او العربية الملحونة ، ولم يكن هذا من قبيل المصادفة، بل كان عن قصد وفهم لروح الاقصوصة ، ونفوذ الى شخصية المتحدث ، بهذا صرح الجاحظ في كتابه البخلاء ، حين ذكر أن كتابه لايخلو من لحن ، وكلام غير معرب ، ولفظ معدول عن جهته ، « لأن الاعراب يبغض هذا الباب ، ويخرجه عن حده » الا اذا حكى « كلاما من كلام متعاقلي البخلاء ، واشحاء العلماء(١) » .

وكذلك كان عمر بن أبي ربيعة ماهرا في حواره القصصي، وماأظن القارىء ينسى الشاهد الذي أثبتناه قبل قليل من رائيته المشهورة ، ويخفى عنه مافيه من صدق في تصوير نفسية المرأة العربية ، ونفسية المحب يقتحم الاهوال للوصول الى محبوبه .

* * *

ولابد لنا من ان نعترف ، بعد هذا الذي عرضناه ، بأن قالب الاقصوصة العربية القديمة لايخلو من نقائص وعيوب ، اذا نظرنا اليه بمفهوم الفن المعاصر ، ولكن مضمونها اقرب الى مضمونات الاقصوصة المعاصرة .

لقد أهملت بعض الاقاصيص تصوير الشخصية الخارجي ، فلم تصف البطل بأبعاده المادية ، وأهملت في كثير من الاحيان وصف البيئة المكانية التي وقع فيها الحدث ، وتناست ان تذكر الزمن الذي جرى فيه ، وربما كانت أحوج الى عنصر التحليل منها الى العناصر الاخرى وماذكرناه عن تحليل الحطيئة وعمرو والجاحظ قد يكون غنياً ، ولكنه لايسري في جسد الاقاصيص القديمة كلها .

كما أن الاقصوصة القديمة كانت تعرض على شكل « خبر » يروى ، ولهذا كثرت فيها الاسماء التاريخية كجميل بثينة ، وقيس بن ذريح ، وعروة بن حزام ، حتى الروايات غير الواقعية نحو الف ليلة وليلة يدس خلالها اسماء اشخاص معروفين ، كهرون الرشيد ، وجعفر بن يحيى ، لتأخذ تلك الصبغة الواقعية التي تحرص عليها ، وهذا الحرص هو الذي حمل كتاب المقامات على ان يتخذوا لأقاصيصهم راوياً يتابع تصرفات البطل ، وحيله وتنقلاته ، وحمل الجاحظ على أن يقول في مقدمة بخلائه : « وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة ، مضافة الى اربابها ، وأحاديث كثيرة غير مضافة الى اربابها ، إما بالخوف منهم ، او بالاكرام لهم ص ٨ .

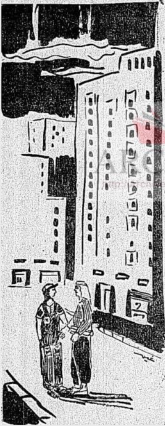
واذا اعترفنا بهذا فينبغي الا ننسى أن غير العرب أيضاً لم يكتبوا الاقصوصة كتابة فنية ، في الزمن القديم ، فقد ظلت آداب فرنسا وانكلترا وسواهما لاتعرف هذا اللون الادبي ، الا بعد ان وفد عليها من روسيا وأميركا في القرن التاسع عشر ، على حين عرفت آدابنا العربية كثيراً منه في نتاج الهمذاني والحريري من كتاب المقامة ، والميداني وابن قتيبة من نقلة الاخبار ، والحطيئة وعمر من شعراء الاقصوصة .

---

(١) ص ٤٠ ـ طبعة ذخائر العرب .

المعركة

قصة بقلم شوقي بغدادي



ثمة نوع من المعارك لا يعرف احد كيف بدأت، حتى المتعاركون انفسهم أحياناً لا يعرفون. والمعركة التي نشبت بين يوسف حمد وقاسم مرعي كانت من هذا النوع، مع فارق واحد هو ان يوسف وقاسم كانا صديقين متلازمين لا يفترقان منذ التقيا في بيروت، وتعارفا بسرعة كما يتعارف جميع الغرباء الذين ينتمون الى بلد واحد. كان يوسف حمد من حوران

وكان قاسم مرعي من المنطقة ذاتها ، ولقد ترك الاثنان بلديهما لسبب واحد هو الارتزاق .

ان الانسان محتاج الى صديق ، وبخاصة في بلد كبير يلتهم الناس مثل بيروت . وبالرغم من ان سيل الهجرة من حوران بالذات الى لبنان كان جارفاً ومستمراً ، وبالرغم من ان كل حوراني كان قادراً على ان يتعرف على اكثر من مواطن واحـد في اليوم الواحد ، فان الانسان بطبيعته نزوع الى ان يختار شخصاً واحداً يسلمه قلبه ويصبح له خديناً لا يصبر على فراقه اما لماذا اختار كل واحد من هذين الاخر فان ذلك ليس من قصتنا ، ولربما يعجز الكاتب ان يفسر السبب كما يعجز الشخص نفسه ان يحلل الدافع الصحيح الذي ساقه الى اختيار صديقه من بين جميع الذين تعرف اليهم . ثمة حادثة تقع ، او كلمة تقال ، او موقف مشترك ، او شيء من هذا القبيل يحدث فاذا اثنان غريبان لا يعرف واحدهم الاخر الا منذ دقائق قد قفزا فوق كل السدود ، فتبادلا ابتسامة من القلب ، ثم تناديا بالاسم المجرد ، ووقعت المعجزة فجأة ، معجزة القلب الانساني : الصداقة ...

كان يوسف حمد وقاسم مرعي في سن متقاربة ، غير ان يوسف كان اميل الى الطول والوقار ، بينا كان قاسم اقرب الى القصر والمرح الذي يصل به احياناً الى الخفة . وكانت هذه الخلة السبب المباشر الأول في فاتحة الخصومات التي نشبت بين الصديقين ، وبالرغم من ان يوسف لم يكن يحسن المزاح ، غير انه كان يطرب في اعماقه لمشاهدة الناس يتمازحون حوله شريطة الا يكون موضوعاً لمزاحهم ، او شريكا لهم فيه . وطبيعي (١) ان شخصاً يقف على الحياد دائماً مثل يوسف يكون قليل الأعداء ، كما يكون في المقابل قليل الاصدقاء ايضاً . ومن هذا النوع من البشر يختار الناس قضاتهم ، ذلك انهـم وان كانوا لم يسبروا اغوار هذا الشخص الذي يكتفي بالتفرج ، فانهم يكنون له بشكل غريزي احتراماً ثابتاً ، وثقة لا تتزعزع ولعل هذا هو سبب اختيار يوسف حكماً يفصل عادة بين فئات العمال المتنازعين . اما قاسم فقد كان شيئاً آخر . كان رجلاً ذا اهواء - كما يقولون - ولكن الذين يعرفونه جيداً يعترفون انه بالرغم من اهوائه لم يكن يعتدي على احد في غيابه او في حضوره واذا حدث ساعة يكون منسجماً مع نفسه انه انطلق في مزاحه فطعن هذا ، ومزق ذاك ، فلقـد كان الجميع يتقبلون منه تصرفاته كقدر محتوم لا قدرة لأحد على رده . حتى النساء كن يتقبلن غزله ببساطة ، ولم يكن الرجال المتزوجون ، او الاباء يأبهون كثيراً لكلمات الغزل يطرحها على زوجاتهم او بناتهم كأنهم كانوا متفقين سلفاً على ان كل كلمة يقولها قاسم لايعنيها حقاً ، وانما هي النكتة قد حبكت وصار انطلاقها امراً لا بد منه .

كانت فاتحة الخصومات التي نشبت بين الصديقين اذن بسبب من خلة المرح هذه التي يتمتع

---

(١) الصحيح : « طبعي » ولكنني افضل استعمال : طبيعي .

بها قاسم . وكان يوسف لا يستهجن تصرفات صديقه ، ولكنه كان يعترض عليها احياناً اذا ما تجاوزت الحد في اعتقاده ، ولعل السبب في ذلك انه كان في اعماقه يحب ان يلعب دور الوصي على الاخرين . كان يكتفي عادة اول الامر بأن يعض على شفته السفلى وهو يثبت عينيه في عيني صديقه بشكل مستفز ، فيفهم قاسم ان يوسف غير راض ، وانه يحذره من التمادي ، فيحاول هذا ان يستمع الى نصح صديقه الخفي الا انه كان يفشل دائماً في التراجع عن موقفه اذا مـــا طالت الجلسة ، وعندئذ كان يوسف يرفع صوته بلهجة عتاب ودية قائلاً :

ــ جاسم .. حاجة بقا يا شيخ ..

او يقول :

ــ جاسم ... لا تزيدا ...

ولكن قاسم كان يزيدها ، فيصمت يوسف ولا يعود ينطق بشيء ، حتى يخلي بصديقه فتبدأ حفلة العتاب والانتقاد التي كان يتقبلها قاسم بصدر رحب ، ثم ينتهي الأمر عند هذا الحد ويستأنف الصديقان حياتهما المشتركة .

كان الاثنان يعملان حمالين في ساحة البرلس والشوارع المتصلة بها . ولكنهما لم ينتهيا الى هذه المهنة الا بعد أن مرا بجميع أنواع المهن التي يمارسها عادة المرتزقة الغرباء في بيروت . فلقد عملا فترة باعثين لليانصيب والملكة ، ثم عاملين في البناء ، ثم باعثين للصحف ، وعمل قاسم وحده فترة قصيرة من الزمن ماسحاً للأحذية ، وبدأت صداقتهما الحقيقية عندما التقيا في صباح يوم بارد في شارع المزرعة وذهبا مع رفاق آخرين بصحبة أحد المتعهدين الى ضاحية من ضواحي بيروت حيث وجدا نفسيهما مطالبين أن يحملا الأحجار والأكياس وسطول الاسمنت المجبول بالبحص كي يشاركا في رفع بناء كبير . وعندما ارتفع البناء الكبير الى الحد المطلوب وجـــدا نفسيهما من جديد عاطلين عن العمل . ولكنهما لم يفترقا بعد ذلك ، وعادا للعمل مشتركين في حمل متاع المسافرين أو البضائع من السيارات الى المخازن أو بالعكس ، غير أن المنافسة كانت تمعن في طردهما كلما استقر بهما المقام من مكان الى مكان فتمر بهما أزمات كثيرة كانا يظـــلان خلالها عدة أيام أشبه بحيوانين كريهين لا يرغب فيهما أحد .

في تلك الأيام الصعبة كان يوسف يبدو اكثر برماً بالحياة من قاسم ، فيقسو على صديقه ، ويشتمه أحياناً ويقسم أنه لن يحدثه طول حياته ، إلا أنه كان يصفو بعد قليل ، فيلاقي صديقه في منتصف الطريق ، ومن دون كلمات الاعتذار المعروفة كان قاسم يفهم مامعنى عودة صديقه اليه ، وكان يرحب به دائماً كأن شيئاً لم يحدث .

كان الاثنان يقطنان في كوخ ملحق بأحد البيوت الخشبية المتراصة فوق الرمل ، غير بعيد من أحراج الصنوبر القريبة من شارع المطار العريض . غير أننا اذا استخدمنا هــــذا

التعبير « يقطنان في كوخ خشبي » فيجب ألا نفهم منه إلا المعنى المجازي للكلمات . فهما في الواقع لم يكن لهما مسكن ثابت ، ولم يكونا يقطنان بالمعنى الصحيح للكلمة في ذلك المكان ، ففي أيام الحر التي تمتد في بيروت مدة ستة أشهر تقريباً كان الصديقان ينامان كيفما اتفق ، في صحن جامع ، او في ظل شجرة صنوبر وارفة ، او على رصيف مهجور ، او فوق سطح بناية لم تتم . كان الامر سهلاً في ايام الصيف ، ولكن الصعوبات كانت تبدأ مع نزول اول وابل من المطر ، وعندئذ كان الكوخ الخشبي يبدو ملجأ لامفر من الاحتماء به .

وفي ايام الحر كانت الخصومات تبدو شيئاً طبيعياً اشبه بالغذاء اليومي ، غير أن سهرات الصيف كانت تمحو كل شيء ، إلا ماحدث في تلك الليلة من ليالي حزيران القائظة ، اثناء زيارة تقليدية لاحدى الأسر المهاجرة ، والقاطنة قريباً من حي المسلخ . كان الاثنان يمران بأزمة مشتركة ، فلقد مر اكثر من يوم واحد دون أن يدخل الى جيب احدهما اكثر من نصف او ربع ليرة ، في اليوم ، او لاشيء على الاطـلاق ، ولا يدري احد السبب ، فالصيف موسم الحركة والنشاط ، ولكن يبدو أن الناس الذين يسافرون ، والتجار الذين يستوردون البضائع لم يعودوا بحاجة لهما . او أن سوءهما قد احتل المكان بشكل من الاشكال فلم يعد في مقدور احد أن يسوي المسألة المستعصية . كيف يمكن ارضاء هذا الجيش اللجب من المهاجرين الذين يتدافعون بالمناكب في شوارع العاصمة وتراهم احياناً في ساحاتها وعـلى الارصفة يمشون معاً ، ويقفون معاً اشبه بقطعان الحيوانات التي تتحرك كتلة واحدة .

في ذلك النهار كان ثمـة احتفال في كنيسة « مارجرجس » ، وكان قاسم ويوسف يتفرجان بين الناس المزدحمين على الرصيف عندما اصطدم فجأة قاسم بشخص ، ما أن التفت ليراه حتى جاوبه بصفعة عنيفة هوت على وجهه . كان الشخص الآخر شرطياً ، والظاهر أنـه كان منفعلاً لسبب ما فلم يكتف بضرب قاسم بل ضرب « يوسف » ايضاً ، بجماع يده في صدره ، ففقد يوسف توازنه ، وكاد يسقط على الارض لولا ان الناس يتساندون في الزحام وانه كان مستنداً بشكل خاص على رفيقه الذي نسي الاهانة اللاحقة به شخصياً حيال منظر صديقه الذي تهاوى فجأة قربه وكاد يهوي الى الارض . وغني عن القول انه لم يكن في استطاعة احد منهما ان يرد على الاهانة بمثلها او بأقل منها ، فاكتفيا بالنظر الى الشرطي في حقد الانسان العاجز ، ثم تابعا سيرهما مبتعدين في الزحام .

قال يوسف بعد قليل وقد هدأ الزحام من حولهما :

— أنت السبب في كل ماحدث .. أنت تمشي دائماً وعيونك هاربة وراء النساء .

فضحك قاسم ولم يجب . ولكن ضحكته كانت مغتصبة . انه دائماً يضع الحق عليه ، وهو يبدأ على حق ، اما أنا فإنني دائماً على خطأ !.

وعندما جاء المساء كان الاثنان جائعين ، وكانا لم يتبادلا بعد الحادثة اكثر من كلمات قلائل . قال قاسم وهما يسيران تائهين في الشوارع المتفرعة عن ساحة المعرض :

— ما رأيك في زيارة بيت « عصب » ؟..

قال الجملة متملقاً ، متردداً كأنه كان يرجو منها مصالحة في خصومة لايد له فيها ، ولكنه لايجد بداً من أن يكون البادىء فيها .. لم يجب يوسف فوراً ، بل سار قليلا وحده ثم قال :

— أنا ذاهب للنوم ، اذهب وحدك اذا شئت .

فارتاع قاسم من هذه اللهجة العدائية ، ولكنه تشجع وأضاف قائلاً :

— من ينام الآن يا شيخ .. السهرة اليوم في بيت « عصب » تشرح القلب .. دائماً عندهم عالم ، وناس ..

فأضاف يوسف فجأة :

— ونساء .. هذا هو مطلوبك ..

كان موضوع النساء بين الاثنين سبباً دائماً في مشادة تطول أو تقصر حسب مايريد لها قاسم اذ كان قادراً أبـداً على ان يطوي الموضوع بسكوته وابتسامه الراضي . كان قاسم بطبيعته المرحة اكثر استجلاباً لمودة النساء اليه ، ولم يكن يوسف غيوراً او حاسداً ، ولكنه كان يخجل رغم ثقته الشديدة بنفسه عندما يتوجه بالحديث الى امرأة ، وطبيعي أنه كان يستغرب كيف ان صديقه لايخجل أبداً في هذا المجال . والغريب ان قاسم كان كثيراً مايروي طرفاً من مغامراته مع هذه او تلك من المتزوجات مثلاته ، فيجد لدى صديقه اذناً صاغية ، وقلباً مفتوحاً ، وضحكاً مستمراً ، حتى ليمكن القول ان يوسف كان يبدو في كثير من الاحيان معجباً بصديقه قاسم في جولاته المظفرة تلك ، وكان قاسم بدوره يوحي له دائماً ان باستطاعة اي انسان ان يصنع مثله لو ألح قليلاً على الموضوع . ويقصد بالموضوع « المرأة » ، ولهذا كان يوسف يبدو مترفعاً وانه بسبب ترفعه كان لايعرف امرأة معرفة جمة خاصة ، وانـه لو شاء لأوقع الكثيرات في حبائله ، ومع ذلك فإن الأمر لم يكن يخلو احياناً من بعض التهيجات فترى يوسف حرجاً ، ضيقاً بهذا الموضوع ، متحاملاً على صديقه في حق ، او في غير حق ، كما حدث في تلك الليلة عندما عرض عليه ان يسهرا في بيت عصب .

لم يكن بيت عصب بيت ثراء ورفاه كي يكون مغرياً الناس ان يتوافـدوا اليه ، فهو ليس اكثر من مأوى أسرة سورية مهاجرة مثلها اصلها من المنطقة . غير ان الاسرة كان فيها بنات كثيرات ، ولكن جميعاً جميلات أو مقبولات كما يقال . ولم يكن في العائلة من الرجال سوى الأب الذي قارب الخمسين وابن في الثلاثين من عمره متزوج يقطن وحده ، اما بقية الاسرة فقد كانت تتألف من الام ، وخمس بنات صبيات في سن الزواج .

قال قاسم :

– المهم هو ألا نذهب للنوم الآن .. وبعد قليل الفرر من السهر مع النساء .. أنت تعرف ان السهرة هناك لطيفة ...

ثم امسكه من ذراعه متلطفاً وهو يقول :

– هيا بنا ياشيخ ..

واستغرب قاسم ان يلين صديقه له فجأة ، فيمشي مستجيباً لدعوته دون اعتراض .

وصلا البيت دون ان يتبادلا كلمة واحدة في الطريق . وكانت السهرة تمر بسلام لولا أن وقع هذا الحادث فجأة .

كان احد الشبان الذين يترددون باستمرار على بيت عصب يحب صغرى البنات ، ولقد خطبها فعــلاً ، الا أن البنت رفضته بعناد ، ولم يكن الأب يملك الشخصية القوية التي تفرض نفسها في هذه الموضوعات ، فترك للبنت حريتها مادام أنها صغرى بناتــه ، ولعل السبب أنها كانت أجملهن وأحبهن الى قلبه .

كان الشاب موجوداً ساعة وصل يوسف وقاسم ، وخلال السهرة تطور الحديث الى موضوع الزواج ، فتنزع الحاضرون – وكانوا جماعة من الجيران – رجالا ونساء يتحدثون ويغمزون بشكل غير مباشر من الشاب العاشق الفاشل الذي لم يتخل كما يبدو عن مطلبه ولم يتطرق اليأس بعد الى قلبه . وبديهي ان يكون قاسم في طليعة المازحين الساخرين حتى لقد بدا الارتباك واضحاً على الشاب ، وتضرج وجه الفتاة احراراً فاضطررت للانسحاب ، وضحك بعض الحاضرين ، وصمت آخرون ، وتململ يوسف في مكانه وقد تكهرب الجو بالنسبة له ، ثم لم يلبث بعد قليل ان نهض معتذراً يريد الانصراف . ولم تنفع معه جميع المحاولات في صرفه عن رغبته ، فاضطر قاسم الى الخروج معه ، وهكذا وجــدا نفسيهما من جديد وحيدين في الطريق المظلم .

كان عليهما ان يركبا البوسطة الى ساحة البرج ومن هناك يجب ان يمشيا كثيراً حتى كوخيها الخشبي . ولكن يوسف فضل المسير ، فاعترض قاسم بقوله ان المسافة طويلة فأجاب يوسف بلهجة حاسمة :

– اركب اذا شئت انت ... اما انا فانني سوف امشي ...

ومشى قاسم مذعناً الى جانب صديقه . كان البحر يبدو عن يمينها وقد انعكست عليه اضواء المرفأ والبواخر الراسية ، وكانت السيارات الكبيرة والصغيرة تشق الطريق قريباً منهما في الاوتوستراد العريض بسرعة جنونية ، واضواء الجبل القريبة والبعيدة تتألق متأرجحة كأنها قناديل معلقة في السماء ، وكل شيء يوحي ان الليلة رائقة ، والحياة جميلة ، الا ان احداً من

الصديقين لم يكن يفكر في اي من المرئيات التي تبدو قريباً او بعيداً منها . كان ثمة هاوية لا يعرف أحد كيف انفتحت ما بينها ، وكان الصمت المتصل يزيـــد في تعميقها وصبغها بلون الجفاء المتحكم الذي لا يفسر .

كانت الطريق طويلة حقاً ، غير انهما لم يشعرا بطولها كما تصور قاسم ، ذلك انهما كانا منشغلين عنها في التفكير بأشياء كثيرة مختلطة . وكانت موجة من الحنق خفيفة قـــد بدأت تتصاعد ابخرتها في احشاء قاسم ، فأحس بها بوضوح ، وفكر انه صار واجباً الان وضع حد لكل هذه المشاحنات ، وان الافضل الافتراق عن يوسف لانه شخص شاذ لا يطاق .

اما يوسف فقد كان بدوره يشعر بحنق شديد لا يعرف مبعثه ، سوى انه موجه في تلك اللحظة ضد قاسم بالذات ، وانه يفتش عن الكلمات المناسبة لسحقه بها سحقاً .

وعندما وصلا الى حرش الصنوبر الممتد بين الأكواخ وشارع المطار وتوغلا فيه قليلا توقف يوسف ثم قال بهدوء دون ان ينظر الى رفيقه :

ـ امض انت الى البيت ونم هناك ، اما انا فسوف انام هنا ..

فقال قاسم على الفور بلهجة المتحدي :

ـ لا ياسيدي ... انا الذي سوف انام هنا ، وباستطاعتك ان تستقل بالقصر العظيم ..

ثم جلس على الأرض ، واسند ظهره الى جذع شجرة ، فوقف يوسف مطرقاً فترة ثم قال :

— الأفضل اذن ان نفترق الليلة ..

فرفع قاسم وجهه ثم قال على الفور :

— كما تشاء .. لا تظن أنني اكثر حرصاً منك على هذه الصحبة ..

فقال يوسف فجأة :

— هل تعرف أنك وقح ..

وعندما لم يسمع جواباً اردف قائلا :

— وأنك كنت الليلة اكثر ماتكون وقاحة ..

نهض قاسم واقفاً وهو يقول بانفعال لم يعهده من قبل في نفسه :

— لا تكبر في الكلام .. احفظ لسانك ..

فقال يوسف ساخراً :

— انزعجت يااستاذ ..

فاندفع قاسم أبعد في جوابه :

— نعم .. انزعجت ياسيدي .. انزعجت جداً .. هل تعرف السبب؟ لأنك شخص مزعج ..

كان من الممكن ان تظل هذه المشاحنة في حدود المشادات الكلامية المألوفة ، ولكن يبدو انه كان مقدراً لها في تلك الليلة ان تذهب ابعد من كل ما عرف الصديقان من مشاحنات.

كانا وحيدين في غابة ، وبالرغم من قرب الشارع منها فقد كانا في تلك اللحظة يشعران معاً انهما منقطعان عن العالم انقطاعاً تاماً . وكان الحنق الذي يتكاثف في اعماق كل منهما قد صعد الى الرأسين معاً ولم يعد ممكناً بالنسبة للرائي التكهن بالنتيجة . اما هما فقد كانا مندفعين في مشادتهما غير عابئين كمن تسوقهما شحناء طاغية لايستطيعان حيالها سوى الانسياق مع تيار الغضب المجنون الذي كان يتجمع كسحابة ثقيلة تسد الأفق .

كان لايبدو أن واحداً من الاثنين يفكر بضرب الآخر ، فلقد تعودا دائماً ان يفثأا غضبهما بالكلام ، والكلام وحده . غير ان الكلمات في تلك اللحظة لم تعد قادرة على حمل شحنة الغضب الكافية ، وحتى عندما اقترب الواحد من الآخر وصارا متقاربين متقابلين كديكين متأهبين للقتال لم يكن أي منهما قد فكر بعد بضرب رفيقه ، ومع ذلك ففي لحظة واحدة ، وكأنهما على اتفاق اشتبك الاثنان فجأة بالايدي والارجل في معركة « ضارية » مرعبة .

من هو الذي بدأ بضرب الآخر ؟. لم يكن الجواب سهلا على هذا السؤال . لقد ضرب كل منهما الآخر في وقت واحد . هذا هو الاصح . وعندما حدث ذلك انفجرت كل البراكين المدخرة ، فأبرقت السماء وأرعدت في أعماقهما ، ثم شقت الصاعقة الغيوم وشب النار .

لم يكن ممكناً أن يمر انسان في تلك الارض كي يرى مايحصل ، ويتدخـــل للتفريق بين المتعاركين ، فالوقت متأخر ، والطريق غير مطروقة ، والمكان منعزل .. إذن فلتستمر المعركة الى نهايتها الطبيعية .

في الماضي لم يحصل أن حاول أحد من الاثنين أن يقيس قوته بالنسبة للآخر . كانا يعملان معاً ، ويحملان الأثقال نفسها ، ويتحملان المشاق ذاتها ، ولم يكن واضحاً أي من الاثنين كان أقوى من الآخر ، فكل منهما شاب ريفي صلب العود ، مشدود العضل ، ولقد حدث أحيانا ان تبارز الاثنان في جمع من الرفاق « بالكباش » فلم يستطع أحد ان يلوي يد الآخر ، وفرق الحاضرون مابينهما على أن لاغالب ولامغلوب .

اما في تلك الليلة فقد كان لابد من غالب ومغلوب حتى يكتب للمعركة الضارية ان تتوقف. كان الاثنان يتدحرجان على الرمل معاً كتلة متشابكة الايدي والارجـــل لاتستقر على حال . وعندما كانت تهمد ، فمعنى ذلك ان واحدا من الاثنين قد سنحت له الفرصة ليحكم الخناق حول عنق غريمه اوحول خصره من الخلف وان يجثم فوقه لاهثا وهو يعصر بكلتا يديه قطعة الجسد التي أطبق عليها ، غير ان قوة غيرعادية كانت تنبثق دائماً في الجسد المغلوب على امره فينتفض ويسترجع مواقعه ، او يسيطر بحركة مفاجئة على الجسد الآخر الذي انهكه قبـــل ثوان . ولقد حدث ان

ارتطم رأس قاسم فجأة وهو ينهض بجذع شجرة لم يكن قادراً على تبينها في غمرة الاعياء والظلام، فجذبه يوسف في مثل لمح البرق الى الجذع ذاته بيده اليمنى ثم اطبق عليه باليدين معاً في ضمة واحدة جمعت العنق والجذع معا .

أحس قاسم أنه موشك على الاختناق ، فراح يستميت محاولا بيديه كي يفك الطوق الشرس الذي التف حول عنقه وحول الشجرة . كان رأسه يرتطم في محاولاته اليائسة بالجذع القاسي ويداه تبدوان أعجز عن فك الطوق المستحكم كذراع اخطبوط ، غير انه نجح في احدى محاولاته اليائسة ان يحني رأسه اكثر ويلتقط بين اسنانه كتلة من لحم الساعد الذي يضغط على عنقه في قوة شيطانية فيغرز فيها اسنانه ، ويعض بشدة لارحمة فيها . ومع ذلك فلقد بدا ان يوسف لم يكن يريد ان يفلت هذه الفرصة النادرة ، اذ لم يصنع سوى انه اطلق صرخة صغيرة كتمها على الفور ، ثم حاول ان يحرك ساعده ليبعده عن متناول فم غريمه ، وفي تلك اللحظة خفت وطـأة الطوق المضروب بشكل طبيعي ، واستطاع قاسم ان يمسك يدي خصمه بكلتا يديه وان يشد بقوة الغريق الذي يتشبث بالحياة فيزحزح موضعهما ثم يهبط بجسده الى الارض ، فاذا هو قد نجا تماما من الموت .

وعندما حاول يوسف ان ينقض عليه كي يسترجع امتيازه المفقود ، عاجله قاسم بركلة من حذائه جاءت في بطنه وما كاد ينحني من الألم حتى سارع قاسم بضربه على رأسه وظهره بقبضتيه وقدميه، ففقد يوسف توازنه وسقط على الارض، فما كان من قاسم الا ان راح كالمجنون يكيل له الركلات بكلتا قدميه غير عابىء أين تقع الركلة ، في الوجه ، ام على الرأس ، ام العنق ، ام الخاصرة ، ولكن يوسف ابتعد بسرعة ونهض كالمسعور ثم ألقى بثقل جسده على خصمه الذي بدا أمامه كرجل فقد صوابه . والتحم الاثنان من جديد كتلة متشابكة من اللحم والثياب .

كانت المعركة ماتزال مستمرة ، ولكنها بدأت تفقد ضراوتها بعد مرور ربع ساعة من الزمن فكانا يشتبكان فترة ، فيتبادلان النهش ، والعض ، والركل ، والرفس ، والنطح ، وتمزيق الثياب ثم يتباعدان قليلا فينظر الواحد منهما الى الاخر نظرة حقد مجنون ، ثم يتشابكان من جديد.

كان كل منهما يبدو وهو يضرب غريمه أنه لا يفكر الا بشيء واحد هو ان يفقد خصمه الحياة نهائياً . لم يكن ثمة أصوات تصدر عنهما الا من هذا اللهاث المتحشرج المتقطع كأنفاس الوحوش بعد ركض طويل ، أو صوت أجش مكتوم كخوار ثور يتوجع . وبعد نصف ساعة كان الاثنان راقدين على الأرض وكل منهما يمعن تمزيقاً في وجه عدوه فهو يريد ان يولج اصبعه في العين ، أو يود اقتلاع الأنف من جذوره ، ولكن أسنان خصمه تمنعه عن قصده أحيانا فينقض بدوره على عنقه او صفحة خده مطبقاً بفكيه كمن يريد امتصاص دمه . وطبيعي ان دماً كثيرا سال على الخدين وصبغ الثياب وكان ممكناً لو أن المعركة نشبت في وضح النهار أن يؤثر في الاثنين منظر الدماء التي كانت تلطخ الوجهين فترعبهما ، وتشل فيهما الحمية لمتابعة القتال . ولكن

من كان قادراً أن يرى شيئاً في لجة هذا الهياج الوحشي ، وفي أعماق هذا الظلام المتكاثف بين الاشجار . لقد كانا وحشين متخاصمين تقابلا في غابة ، ولم يكن ممكناً ان يمنع أحد المعركة او يحد من خطرها . لقد كانت تبدو كأنها فعلاً معركة حياة او موت بين وحشين كاسرين يقتتلان في البرية على فريسة أو نبع من الماء .

غير أن الطاقة البشرية لها حدود وان كانت تتعداها في بعض الاحيان ، فالانسان لاحدود واضحة لقوة احتماله . ولكن معركة وحشية من هذا النوع تستمر بلا شهود في مكان مهجور مدة طويلة من الزمن دون ان يتغلب فيها أحد على الاخر بشكل حاسم ، كان مقدراً لهذه المعركة ان تخمد من نفسها بعد زمن .. وهذا ما حصل فعلا ، فقد استلقى الاثنان على الرمل متباعدين متقطعي الانفاس ، يعبان الهواء بفم مفتوح على مصراعيه مثل مريض في نوبة خناق حادة . ثم هدأت الاصوات بعد قليل ، وهمد الجسدان ، وتغلب سلطان النوم ، فاذا هما مستسلمان للرقاد يشخران بصوت مختنق متقطع صنع من ينام بعد اعياء شديد .

●

لايستيقظ عادة بسهولة الناس الذين ينامون بعد هذا الاجهاد المميت ، غير ان قاسم استيقظ في اعماق تلك الليلة ، ولعل مرد ذلك كان بسبب من رطوبة الرمل وصقيع الليل في هزيعه الاخير.

فتح قاسم عينيه وهو يرتعش من البرد ، فلم يتبين شيئاً في الظلام وبدا محدقاً فيه دون ان يتحرك كمن يحاول أن يسترجع ذاكرة مفقودة . كان يوسف راقداً غير بعيد منه وقد انتظمت انفاسه فتطلع اليه بعد أن الفت عيناه العتمة كمن يتذكر شيئاً ما . ثم زحف على يديه وركبتيه كوحش يتسلل مقترباً من جسد رفيقه النائم . وعندما التصق به توقف برهة يمعن النظر في تفاصيل الجسد الراقد أمامه في وداعة خالصة .

كان يوسف راقداً على جنبه ، وقد سقط خيط شعاع نحيل على صفحة وجهه فأضاءها ، وبدا الوجه ساكناً ، خالياً من اي معنى سوى الاستسلام المطلق لنوم «عميق» بلا أحلام . ولم يكن يبدو على وجه قاسم بدوره في تلك اللحظة وهو ينظر الى وجه غريمه أي معنى من المعاني التي كانت تكتسحه قبل ساعات . كان هادئا ، وادعاً منهوكا من البرد ، والاجهاد ، والنعاس ، وفي هدوء اضطجع على الارض وألصق جسده بجسد رفيقه وهو يختلج مقروراً ، فلم يلبث الجسد النائم الآخر أن اختلج بدوره قليلا ، وغير من وضعه بشكل اكثر تلاؤما مع الجسد الذي كان يتحسسه ملتصقاً . وخيل لقاسم أن يوسف قد فتح عينيه لثوان وهو يغير من وضع جسده كي يزداد اقترابا من الجسد المقرور الذي يلتصق به وأنه صنع ذلك عمداً لافي نومه ، فأغمض عينيه مستسلماً بارتياح لموجة النعاس التي عادت تراوده بعد أن تسرب إليه شيء من دفء الجسد النائم .

وبعد قليل بدا شكل الجسدين وقد أخذهما النوم كتلة واحدة متشابكة لم تكن تتميز كثيراً عن الكتلة ذاتها التي كانت تتمرغ فوق الارض قبل ساعات وهي تلهث من الغضب والحقد .

الكتاب والموضوعات

- دراسة في الموسيقا العربية

ميخائيل خليل الله ويردي

- حوارية تاريخية
الامير الحمداني سيف الدولة

سامي الكيالي

الفنون

دراسة في الموسيقا العربية

بقلم ميخائيل خليل الله ويردي

يسعدني في هذه الآونة ، آونة انعقاد مؤتمر الأونسكو العالمي للموسيقى العربية في بغداد ، ان اتحدث الى اخواني العلماء والمثقفين والمطلعين على الأكوستيك وفيزياء الصوت ، في الموضوع المقترح علي لهذه المناسبة ، دراسة في الموسيقى العربية ، وارى من دواعي البهجة والسرور ، ان يتصدى فريق من شبابنا لهذا البحث الواسع ، الذي لاتقتصر فوائده على الناحية الفنية ، بل تتعداها الى علوم أخرى كالطب النفسي والجثماني ، وتطور المادة على مراحل بين القدرة والصورة ، لان كل

مافي الكون نتيجة فعل الحركة بالحركة وفق سلاسل من التناسب الموسيقي ، فاذا تفهمنا شرائع هذا التناسب بين الاهتزازات الطليقة توصلنا الى فهمه بين الحركة المتشابكة بالعوامل ، عندئذ يمكن نقل كل شيء من صورة الى صورة ، بمجرد معرفة سلسلة النسب والعوامل الفاعلة ، كما يتم التنقل بين الأنغام بتبديل حلقات السلاسل فيها ، فهلا أدركنا أهمية هذا التناسب « ولو في موسيقانا على الاقل ، حتى نتوصل الى فهم هندستها القائمة على نسب بسيطة ؟ ان ابحاثي في هذا الموضوع قد وصلت بعيداً ، فجدير بهم ان يأتوا بها ، لان التعاون الصادق مع المثابرة يؤدي الى تفهم الموضوع ، فعلينا ان نوضحه للأمم ونشترك معها بتنفيذه ، ولا عبرة بما يطلقه البعض ممن يتكلمون عن سلم مصري او فارسي ، كأن في الموسيقى الطبيعية سلالم خاصة بكل أمة او اقليم . وبعضهم يتجاهل ابحاثا طافت على الدنيا كالشمس في رابعة النهار ، مع ان غيرنا يندفع في هذه الميادين بسرعة لاتعرف الكلل ولا الملل .

اننا نعيش في عهد الأقمار الصناعية، وقريبا يصل البشر الى الكواكب ، ونحن منذ ثلاثين سنة مازلنا نبحث في السلم والانغام دون جدوى ، وهي قضية محلولة ، ولو ان المختصين حاولوا فهم ابحاثنا لوفروا على انفسهم هدر اتعاب وأموال طائلة .

حدثوني عن استاذ في حلقة بحث الموسيقى كان يشكو ويقول « لقد حرمت بلادي من موسيقى مؤسسة على سلم رئيسي ، تعبر بواسطته عن مشاعر اهلها وأحاسيسهم لقد بقيت موسيقانا ردحا من الزمن دون أساس بسبب بقاء امر السلم فيها معلقا دون تحديد ، وان لجنة تكلف بهذا البحث منذ ثلاثين سنة ولا تبت بشيء طوال هذه المدة لأمر يدعو الى الاشفاق ؟ وسيبقى أثر ذلك وما نتج عنه ، ماثلا فيما نرى اونسمع من الخلط والاقتباس بين موسيقى الغرب والشرق دون رابط ولا وازع . ان مشكلة السلم لهي أعقد المشكلات التي يجب علينا ان نهتم بها ، ونجد في حلها اولا ، حتى يكون عملنا في الفروع الأخرى متمشيا طبق هذا الاساس الفني السليم » .

وواضح ان هذه الاقوال ليست سوى ذرائع ومبررات لستر التقصير الناجم عن تباين الآراء ، بقصد نبذ احكام الطبيعة واللجوء الى التعديل ... انغامنا طبيعية وقواعدهم معدلة ، شأن قوم لغتهم عربية ودراستهم افرنجية ، وليس لدينا من يستطيع اقناعهم ، ولا هم يريدون ان يلجأوا الينا ، بعد ان اصبحت كل مشاكل الموسيقى الطبيعية محلولة لدينا ، من السلم والمقامات . الى الهرمنة والكتابة السهلة الدقيقة ، وهكذا بات بامكاننا ان نرد الى الصراط المستقيم كل مشتغل بالموسيقى ونصارحه قائلين : ان كل تلك الغوامض مرتبطة بعضها ارتباطا وثيقا ، وهي تتضح بتحديد النسب البسيطة على اساس الرنين (كونسونانس) لكل جنس مرغوب فيه ، اوتحديد

مسافاته الصوتية بالذرات ، وبعد تركيب المقامات المقصودة وتبيان سلاسلها واجراء تصويرها على بضع درجات في الديوان ، تهرمن وفق القواعد الطبيعية ، - راجع ف م ش - فتتضح الوحدة المقياسية لدرجات السلم ، الذي يعبر عن كل تلك الابعاد الصوتية الصحيحة ، وهو في أساسه واحد عند جميع الامم ، خلا اصحاب التعديل فسلالمهم لاتقوم الا على اساس الحنين (ديسوناس) .

وليكن معلوما لدى المختصين وغيرهم ، اننا اذا اردنا التعبير بالدقة التامة عن أي جنس ذي نسب بسيطة ، فان السلم ينحل الى (١٢٠٠) ذرة صوتية، ويبقى كذلك لو عبرنا به عن عشرين جنساً او اكثر ... ، ويمكن تقليل هذا العدد بدمج كل ست ذرات في ربع كوما عربية ، دون أن يؤثر ذلك على استقلال أي جنس أو يفقده نكهته المميزة ، واخيراً يمكن التعبير عن ذلك كله بسبع نوطات وبضع علامات تحويل صعوداً ونزولا . وتوجد اجناس كثيرة مهملة لأنها غير جميلة ، فمنها ماوردت فيه مسافة معقدة مثل الجنس (١/١٢ ٧/٨٨ ١/٩) ومنها ماوردت فيه مسافة كبيرة جداً ومسافتان صغيرتان جداً مثل (١/٣١ ١/٥٠ ١/٣٢) هذا ما اكتشفناه بنتيجة تجاربنا ودراساتنا ، على الرغم من وروده في الكتب القديمة ...

ولو أن هذه القضايا الفنية المستعصية ، تنحل بمجرد نشر الكتب والمقالات ، واذاعة الخطب والمحاضرات لانحلت منذ عهد بعيد ، ولكنها لاتنتهي إلا بالدرس الجدي حتى يتفهم الطلاب آراءنا كلمة كلمة ويتمرنوا عليها عملية عملية ، عندئذ فقط ترتد نابعة من نفوسهم ويمكن أن ينقلوها لغيرهم .

وللوصول الى نتيجة حاسمة ، يقتضي تأسيس معهد عال لعلوم الموسيقى الطبيعية في دمشق، تحت راية الاونيسكو او الجامعة العربية ، كي يصار الى تخريج علماء يردون الناس عن الخطأ الى الصواب بتنفيذ تحويل الموسيقى المعدلة الى طبيعية ، مع وضع مناهج التعليم واختراع الآلات اللازمة . أما اذا شاء احد أن يسير في البحث منفردا فما عليه الا تقديم دراسة كاملة عن السلم والمقامات الطبيعية العالمية وهرمنتها وكتابتها على اساس الرنين — والبحث كله وحدة لاتتجزأ فلا يصح توزيعه على عقول متباينة ، عندئذ يصل كل راغب الى مثل ماتوصلنا اليه مهما طال الامد لأن الطريق واحدة، وكل طريق سواها لن تؤدي الى نتيجة سوى التعديل والحنين(ديسوناس).

. . . .

وبعد ، لقد كنت أنا نفسي من المنساقين بضلالة الارباع المعدلة عندما كنت مبتدئاً في العلوم الموسيقية ، ولما رأيت عاقبة مؤتمر القاهرة ، وادركت فساد تلك النظرية ، وقصورها عن تعيين درجات مقاماتنا الطبيعية — كمن يكتب كلاما بدون نقاط ليقرأه كل فرد

كيفما اتفق — عدت الى الصواب ، واصدرت فلسفة الموسيقى الشرقية منذ سبع عشرة سنة ، ولا أزال حتى الآن اتابع البحث والتدقيق ، وقد توصلت الى براهين ومعلومات ومخططات ورسوم تفصيلية لم تنشر بعد ، ولكن لاجديد في الاساس ، فيمكن منذ الآن ان تستدعي الجامعة العربية من تشاء ، من رؤساء الكونسرفاتوارات ومعاهد الاصوات ، والجمعيات والحلقات الموسيقية ليطلعوا على تلك الابحاث ، فهي احكام طبيعية مؤيدة بالبراهين الرياضية والسمعية . أما المؤتمر الثاني الذي سيضمن لنا كسب المعركة الفنية ، فسوف يعقد حتما ، اذا تهيأنا له وأسسنا الاكاديمية الموسيقية المطلوبة ، وانتقينا من الشباب المختصين كما تقدم ، ممن نتوسم فيهم القدرة على حمل الرسالة ، ومتى تكونت منهم كتلة قوية ، ندعو الى مؤتمر يقر توحيد لغة الموسيقى وفق وحي الطبيعة ذات الالوان ، وكفى بذلك خطوة ثابتة نحو السلام الدائم ، الذي لايقوم الا على اسس علمية فنية ، تنشد الحقيقة الواحدة في كل قضية ، بالاقلاع عن الخطأ والرجوع الى الصواب.

ان القوم كما قلنا مازالوا يبحثون عن السلم وقد اتضح امره ، وما زالوا يؤلفون المقامات (موقتا) من الارباع وقد ظهر زيفها . ومن المستغرب اهمالهم مابين الارباع من اصوات طبيعية صافية ، واعتبارها نشازا ، كأن قرارهم هذا يسري على الطبيعة ويرغمها على سحب احكامها ، والتنازل عن جمالها البادي في انغام الشرق كلها ... واغرب من هـذا انهم يناقضون انفسهم فيرفضون سلم الانصاف ويؤيدون سلم الارباع ، ولا فارق بينهما سوى التعبير عن درجة سيكاه البياتي — التي تساوي ١٢/١ من الوتر أي ١٥٠ ذرة صوتية فوق مطلق الدوكاه — اما ادعاء بعضهم ان هذه السيكاه تستعمل بنجاح في نغم الراست فغير صحيح ، بل خطأ اصبح شائعا كمن يلفظ الذال تاء والسين ثاء ، ذلك لان سيكاه الراست تساوي ١٠/١ مطلق الدوكاه أي ١٨٢ ذرة صوتية ، فهي اقرب الى الارباع الاربعة — ٢٠٠ — ذرة ، منها الى الثلاثة — ١٥٠ — ذرة ، فما هي اذن فائدة الارباع ؟؟؟

وانا بهذه المناسبة نسأل دعاة هذه الارباع ، هل يؤلف اتفاقا رنانا صوت سيكاه البياتي — مي نصف بيمول — مع صوتي الراست والنوى ، كما تدعي آذانهم ؟ ان الاتفـاق الصحيح الوسطى البالغة يقع عند ٥/١ الوتر اى ٣٨٦ ذرة — دو ، مي بيمول كوما ، صول — واتفاق الوسطى القاصرة يقع عند سدسه اى ٣١٦ ذرة صوتية — دو ، ره دييز طبيعية ، طول — وليس بين هاتين الدرجتين مجال لصوت السبعة ارباع — ٣٥٠ — ذرة ، اذ لاتوجد نسبة بسيطة تتوسط بين الخمس والسدس . وقس على ذلك هرمنة البعد بأربع عند صوت سبع الوتر وعند ثمنه ، ومثل ذلك كثير حسبما يقتضيه ناموس الاتفاقات الصحيحه التي يمكن تطبيقها في موسيقانا ، لأنها منها ، وقد قضى العلامة « وديع صبرا » حياته في البحث عنها ، بعد ان درس الموسيقى المعدلة سبع عشرة سنة في كونسرفاتوار باريز ...... فهل يأتم به من درسوا في بلاد الحضارة ولو ربع هذه المدة ؟ .

ولقد اذعت في محاضرة سابقة ، اقوال عشرين من عظماء الغرب وعلمائه ، اظهروا نفورهم واشمئزازهم من الالحان المعدلة ، على الرغم مما حوت من سمو الفكرة الفنية ، وها انا اسرد كلمة الموسيقار كيل سانسانس بهذا الصدد قال « سوف يأتي زمن تصبح فيه آذاننا اشد احساساً ، فتقوم موسيقى جديدة ، يصبح الفن المعاصر ازاءها لغة ميتة لا ينطق بها » وليست هذه الموسيقى المنتظرة سوى الطبيعة ، التي نسميها العربية ، ولا يوجد سواها . واذا كان الافرنج يتلكأون خشية ضياع الاوبرات والسوناتات والسيمفونيات التي ابدعتها قرائح كبار المؤلفين ، فنحن نطمئنهم ان تلك الالحان سوف تنقل الى الموسيقى الطبيعية فلا يضيع منها شيء . بل تزداد جمالا حتى تصل الى اوج البلاغة والافصاح ، مثلما تنقل رواية رائعة من السينما السوداء الى الملونة ، او قصيدة رفيعة من اية لغة ضعفت حروفها باثني عشر ، الى اللغة ذاتها بالحروف الكاملة وفق احكام التجويد ، ولا أظن أحداً يختار غير ذلك .

ولو ألقينا نظرة على الهرمنة الفاسدة ، التي تمشقها دعاة التعديل وتنازلوا في سبيلها عن صفاء الانغام وروعة الانسجام ، لوجدنا اصلها الطبيعي وحصلنا على اعظم منها صفاء وجمالا وايقاس.

والـيكم مثلاس الاتفاق السداعي للحساس معدلا وطبيعيا ، فباجراء حساب التناسب الصوتي بين درجاته ، وعزفه على آلة اليان ، في حال تسوية الدرجات وفق احكام الطبيعة ، يتضح الفارق الصوتي لكل ذي احساس ، وهذا بيانه بالارقام والنوطة =

عند الغربيين بالنوطة المعدلة = سي ره فا لا (سي)

وبالذرات الصوتيه = ٣٠٠ ٣٠٠ ٤.. ٢٠٠

عند الشرقيين بالنسب البسيطة = ٣١٨ ٢٧٠ ٣٨٤ ٢٢٨

اي = ١/٦ ١/٧ ١/٥ ١/٨

وبالنوطة = سي ره F فا لا L (سي)

يعني = +٢٤ ذرة −٢٤ ذرة

وبفقدان هذا التناسب ، يتحول الاتفاق من الرنين الى الخنين ، اى من الطبيعة الى التعديل حتى يبلغ في معظم الاحيان سماجة الضوضاء ، وقس على ذلك سائر الانغام واتفاقاتها .

ولما كانت مزية بلاد الحضارة التي يتغنى بها المستغربون ، هي حب الوصول الى الكمال ، فلا ريب عندنا بانها سوف تصل في الموسيقى ، عاجلا او آجلا ، الى النتيجة الطبيعية المحتومة ، فتهمل الانغام المشوهة المؤلفة من الاصوات المعدلة ، وتقبل على الانغام الصافية ذات الجمال اللحني والنسب المؤتلفة ، والاتفاقات تامة الدقة ، وعندئذ يشعر دعاة الانصاف والارباع عندنا ، انهم كانوا يرتكبون خطأ جسيما ضد الحق والجمال ، بل ضد التراث الفني الذي تفخر الامة العربية برعايته ، وصونه من الضياع .

ان البحث واسع شديد الدقة ، هذه هي هندسة الموسيقى ، كل نقطة تحتاج شرحا لا يلذ الا لارباب الاختصاص ، اما باقي الناس فلا يطلبون الا سماع الالحان الصافية التي تبعث الطرب والانشراح ، وهي لاتقوم الا على اساس الرنين دون الخنين ، لذلك يتوجب ان نزيل الخلافات بين العازفين بالتجارب والحسابات التي لاتدحض ، لان النبش السمي الذي يسيطر على آذان بعضهم ليس برهانا على صحة آرائهم ، فالتناقض بينهم لن ينتهي ، اذا انكروا مارسمته الطبيعة وأيده العلم ، هنا يكمن السر الخفي فيما تعانيه موسيقانا الان ، فارجو ان يتفهمه المختصون قبل فوات الاوان ، يوم لن يكون بامكاننا ان نرد على كل سؤال ، او ندفع اي اعتراض .

بقي ان نوجه نصيحة الى الذين يحاولون جرنا الى تبعية الموسيقى المعدلة ، كي يتوقفوا ، لانهم لن يمتلكوا ناصية القيادة الفنية بهذه المحاولات ، بل سيكونون اول ضحاياها ، يوم تطغى الألحان المعدلة فلا يجد مؤلفونا من يبتاع بضاعتهم ، هذا اذا هضم شعبنا التعديل . ولنا بما جرى في تركيا من جهة ، وبالتجربة المشهورة التي قام بها المرحوم مصطفى رضا في اذاعة القاهرة من جهة اخرى ، عظة وعبرة ، فالطبيعة والتعديل ضدان لا يجتمعان في موسيقى واحدة ، كما لا تجتمع المياه الصافية والكدرة في مجرى واحد ، وفي ابحاثنا اثباتات علمية لما نتداوله من انغام بحكم الحس الرهيف ، والطبيعة لن تعدل احكامها ودولة الحق والجمال ستبقى مرفوعة اللواء الى قيام الساعة ، فهي دنيا تجمع كل جميل من انغام الامم ، ولكل منها نكهته الخاصة ، ويكفي المرء ان يعرف قواعدها الاساسية ، ثم يختار ما يحلو له من المقامات والاوزان التي تشبه دنيا العطور والازهار والالوان ، او انواع المأكولات والمشروبات وعديد البلدان ، لا يعرف منها كل فرد الا النزر اليسير ، وهنا يتجلى اختلاف الأذواق ضمن النظام الجامع بأجلى مظاهره .

اما اذا كان المستغربون يستحسنون الألحان الافرنجية ، من جهة رقي الفكرة الفنية فيها ، او حسن أساليب العرض والتزام الهرمنة ، فنحن نستحسنها كذلك ، ونتمنى ان ترتقي الحاننا الى هذا المستوى ، لان الفكرة الفنية والاساليب الانشائية حرة مطلقة ، ولكننا لا نوافق بأي حال على تشويه لغة الموسيقى وتعديلها ، اذ لا فائدة من تحسين الروح باتلاف الجسد ، ولا من بيع الفصاحة لشراء البلاغة ، فلماذا اذن لا نعمل جميعا شرقيين وغربيين على تطهير الالحان الجميلة من التعديل الخاطىء ، حتى تتمشى مع احكام الطبيعة ، وليس التعديل في الانغام سوى تنقيص الصوت او تزيده عن مركزه الطبيعي بشكل محسوس ، اما التعديل في الايقاع فهو تنقيص او تزيد مدد اجزائه الزمنية حتى يمسي توزينا متساوي الخطى ، كنقل وزن المصمودي مرتين (فعولن مفا ـ علن فاعلن) الى (مفعولاتن ـ مفعولاتن) وبعبارة اخرى ، نقل (١ ٢ ٢ ١ ٢ ـ ١ ٢ ٢ ١ ٢) الى (٢ ٢ ٢ ٢ ـ ٢ ٢ ٢ ٢) بالعلامات الموسيقية .

. . .

يتضح مما تقدم ان الخلاف بين الموسيقتين الشرقية والغربية ينحصر بالأوزان والأنغام وما يتفرع عنها ، فاذا اتفقنا على الفائه والسير حسب وحي الطبيعة ، ثم اوجدنا الآلات اللازمة في العصر الالكتروني لأجل تحقيق الهرمنة الطبيعية ، تتوحد لغة الموسيقى عالميا ، ويرتفع جمالها الى اعلى الرتب ، لان مادتها الغزيرة الملونة لا تمت بصلة الى وطن او دين او لسان ، عندئذ تغدو جميع الالحان الممتازة عالمية بكل معنى الكلمة باجتماع الفصاحة والبلاغة الفنية فيها ، وتصبح الموسيقى وسيلة للتفاهم الصحيح بين الأمم ، تقرب الاذواق ، وتشيع الهدوء في النفوس والاعصاب . فاذا لم يتفق البشر على هذه القضية الفنية ، مع ان البراهين الدامغة تفصل في الخلاف الناشب حولها ، فكيف يمكن ان يتفقوا على خلافات اساسها اللغات والجنسيات والعقائد ، لا تفصل فيها براهين رياضية ؟؟؟ بل كيف يمكن ان نصل الى السلام ، ما دامت اسباب الخصام قائمة بين الناس في كل قضية بسبب الخلاف على الحقيقة الواحدة ؟

ان هذا الموضوع وحده كاف لاثارة العلماء والمفكرين ، فكيف اذا اضفنا اليه كل ماتقدم من الفوائد ، التي نجنيها من علوم الموسيقيين على مستواها الرفيع كما سبق البيان ؟ في حقل الموسيقى وحده سوف توجد اعمال لكثيرين الى مئات السنين ، ولئن كان الاجانب لم يهتدوا بعد الى تقدير هذه الابحاث فلا غرابة ،لأن امتي وجامعاتها ورجالها المسؤولين لما يهتموا بها ، ليدركوا خطورتها، ويولوها حقها من العناية ،وكاد الاهمال ان يكون كفرا ، ما دامت روعة الشيء وضعه في مكانه . . .

والخلاصة ان انغامنا تتألف من أبعاد صوتية طبيعية ،لا علاقة لها مطلقا بالانصاف او الارباع المعدلة ، وان تلك الارباع البائسة ليست سوى خطوة انزلاق نحو الانصاف الافرنجية اذ لا فارق ذا اهمية بينهما كما تقدم ، ولنتساءل ماذا يكون موقفنا نحن العرب ورثة الموسيقى الطبيعية الجامعة عندما يصحو الافرنج من غفلتهم في هذه الناحية ، فينصرفون عن التعديل والتشويه في الانغام الى الدقة والجمال ، كما انصرفوا عن السينما السوداء الى الملونة ؟ اترانا نقف يومئذ ضدهم ونتمسك بالتعديل المحموم الذي سرت الينا عدواه في آخر الزمان ؟ ام ترانا نرقص طربا لاهتدائهم ونعود لنتبعهم في السبيل القويم وقد كان سبيلنا ؟ هل نحن اذن تبع لا رأي لهم ؟ فان اخطأ الافرنج اخطأنا ، وان عادوا الى الهدى عدنا ، اذا غربوا غربنا ، وان شرقوا شرقنا ؟ نحن لسنا بأتباع كما يقول قادة العرب ، وما دمنا نملك الحق والجمال في مادة الموسيقى ، فما علينا الا ان نظهر شخصية أمتنا ،ونضعها في خدمة الانسانية جمعاء ،ذلك هو فخرنا يوم توزن المواهب وتتلألأ الكفاآت .

وما دامت فلسفة الموسيقى وما تلاها من دراسات قد اوضحت خفايا هندسة هذا الفن ، فما هو سبب التأخر في تفهمها وانتفاع الامة العربية بنتائجها ؟ هل هناك موسيقيون لهم آذان ولا يسمعون ؟ ام يتذرعون بعدم الفهم ولا عذر لهم ما دام المؤلف حيا ؟

ان في التأخر ضررا بالغاً وخسارة فادحة،لأن الامم في سباق والموضوع يحتاج الى الرعاية

والتحقيق وبما انني اخشى ان يسبقنا الغرب في هذا المضمار ، تراني الح بالاسراع ، لكي نستثمر جهدا عربياً ونسجل لأمتنا نصرا عالمياً ، يرد نكسة المؤتمر الاول ، ويجلب لنا احترام جميع الامم في المؤتمر القادم .

وبما ان غاية الجميع ولا شك ، هي خدمة العلم والفن والسلام ، والوصول الى القناعة التامة بالبراهين الدامغة ، لذلك اطلب من الجامعة العربية ومن المجالس العليا التي تأسست لمثل هذه الغاية النبيلة ان تنشط لاثبات وجودها بالعمل المجدي ، حتى تحوز امتنا النصر الفني المرتقب بدون ابطاء ، فهو يشعرها بقوتها ، ويدعم معنوياتها ، ويساعد على احترام آرائها في سائر النواحي الاخرى ، ويدرأ عنها ألم الشعور بمركب النقص كلما شاهدت ابداع الامم !

وعندما نستعرض جميع النتائج وما اقتضته من جهد ومال ، يتضح اي الاعمال كانا اكثر فائدة للبشرية ، والمستقبل كشاف. ويكفينا اننا خلصنا ذمتنا تجاه امتنا ، يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .



حوارية تاريخية

الأمير الحمداني

سيف الدولة

بقلم سامي الكيالي



الفصل الاول

تجري حوادث هذه المسرحية في مدينة حلب .. وفي قصر الحلبة — قصر الامير سيف الدولة .. وهو من القصور الذي تغنى بجماله الشعراء لما حواه من دقائق الفن وبديع الزخرف ومختلف التصاوير والنقوش .

وقد بناه بواسطة الأسرى العديدين على ضفاف نهر قويق فجاء بأحذق المهندسين وأمهر المصورين وأبرع البنائين والنجارين يعتنون ببنائه وفرشه على أفخم طراز وابدع ماتضمنه قصور أباطرة الرومان ..

يقول المؤرخون : ان الامير عندما فتح ابواب القصر المرة الاولى كان ذلك مثار الدهشة والاعجاب لأن الابواب كانت من البرونز النحاسي .. نقشت عليه التصاوير المستغربة الجميلة وهي تدور على قواعد من الزجاج حتى لاتأتي بحركة ....

واذ تدخل البــــاب تواجهك قاعات متتابعة ملأى بالاعمدة المرمرية المزركشة الموشاة بالذهب والفضة :.

وقد جعل المصورون رسوم الزهور في اواسط القبب العـــالية حيث حفروا بين جهة واخرى آيات من كتاب الله الكريم بأحرف كوفية جميلة ، وابيات مختارة لأعاظم الشعراء بأحرف فارسية فتانة ...

وكان للقاعة الكبرى قبب بلون اللازورد يحملها ١٤٢ عموداً من المرمر المزركش بالفضة والذهب .. تنيرها الوف من النوافذ الزجاجية الملونة ...

وفي وسط كل عمود خرجت زهريات ملأى بالزهور والنباتات النادرة .. وفي الوسط افريز عظيم من الخشب الابنوس الموشى بالذهب جعل خصيصاً لجلوس الامير ورجاله الاخصاء وحفر عليه رسم الامير منتصرا ...

وكان السجاد الفاخر والدمقس الذاكي ومحارق البخور تزين القصر .. كما كانت البحيرات المنتشرة في الحديقة الكبرى آية الفن والذوق الرفيع حيث المياه البلورية تتدفق من فم اثنتي عشرة سمكة من الذهب الابريز وغير ذلك مما يضيق به الوصف ..

. . .

(*) منذ اكثر من عشرة أعوام ، كتب الاستاذ الكيالي ، تاريخ حلب وسيف الدولة في كتاب معروف . واليوم يعود الى تركيز الوجه التاريخي لعهد سيف الدولة في حوارية تاريخية ذات أربعة فصول ، تنشر (المعرفة) الفصل الأول منهـــا ، الذي كان قد اعد لعدد المسرح ووصل متأخراً .

في هذا القصر الشامخ الذي كان الامير الحمداني يعقد مجالسه الادبية ويستقبل الوفود والسفراء من شتى الاقطار القريبة والنائية .

المنظر الأول

قصر الأمير .. وقد اخذ المهنئون يتوافدون الى القصر ، وكلهم وقوف يتبادلون احاديث المعركة الاخيرة التي خاضها الامير والتي انتهت بانتصاره على الاعداء ...

. . .

يطوف الحجاب ورجال القصر مرحبين وقد اديرت عليهم اكواب الشراب ... الامير مازال في غرفته .

يدخل عليه كاتبه ابن أبي الفياض ويخبره بامتلاء باحة القصر بوفود المهنئين ويجري بينهما الحديث التالي :

الاميرسيف الدولةـ انني اليوم منهوك القوى ، أشعر بالتعب على غير عادتي ..

امين السر ـ وكيف لاتتعب يامولاي ، ومنذ سنة لم يغمض لك جفن ، ولا ذقت لذة الكرى ، فمن غزوة الى غزوة .. ومن بلد الى بلد .

في كل يوم تزور الثغر لا ضجر ... يثنيك عنه ولا شغل ولا ملـــل
فالنفس جاهدة والعين ساهرة ... والجيش منهمك ، والمال مبتذل

قطعت دروب الاناضول وجبالها حتى بلغت قونية .. وكدت تبلغ ، وانت تطارد الاعداء ، القسطنطينية عاصمة الروم ..

الامير ـ أجاء القائد عمار ؟

امين السر ـ نعم .. وكثيرون من وجوه المدينة مع حشد من الشعراء جاؤوا لانشاد قصائدهم بين يدي مولاي ..

الامير ـ ليدخل القائد ...

القائد عمار ـ عم صباحا مولاي الامير ..

الامير ـ ما اخبارك ؟

القائد ـ جاءتني انباء تقول ان نقفور يجمع جيوشه للانقضاض على حلب بعد موقعة حصن زياد التي لقي فيها هو وجيشه الوبال والخذلان ..

الامير ـ هبه .. سواء كان الخبر صحيحا ام غير صحيـــح .. فامتلاك حلب وانطاكية والسيطرة على بلاد الشام هي بعض خطط نقفور ، فواجبنا ان نكون حذرين ،

وان نحصن المدينة من جميع اطرافها .. وان نثير القوى الشعبية لتكون عونه الجيش في الدفاع عن ذمار الوطن .

القائد — لقد قمت يامولاي بما تفرضه علي خطط الدفاع .. وقد اصبحت جميع اطراف حلب وابوابها محصنة ... ومغلقة في وجه العدو .

الامير — بورك فيك ياقائدي الشجاع .. فواجبنا ان نكون يقظين جدا .. وان نكون حذرين جدا .. وان نستميت في الدفاع عن الثغور .. فهي الدرع الذي يقي بلاد الشام من الهجمات البيزنطية .. انك تعلم ان الروم اذا استولوا على حلب استولوا على جميع بلاد الشام . واستولوا على مصر .. ولنقل بعدئذ : السلام على بلاد الاسلام .. ولكن هذا لن يكون وفي جسم سيف الدولة عرق ينبض..

امين السر — مولاي .. أأنت وحدك ستقوم بعبء الدفاع عن هذه البلاد التي تمزق شملها نتيجة سفه الملوك وتخاذلهم وضعف ارادتهم .

الامير — هذا واجب في عنقنا يا ابا الفياض .. اعود فاكرر اذا سقطت حلب بيد الروم عادت بلاد الشام كلها الى حوزتهم .

امين السر — قليلا من الراحة مولاي الامير .. فقد انهكت قواك وانت تخوض المعارك الواحدة بعد الاخرى .

الامير — هذه المعارك التي اخوضها تزيدني قوة ومضاء .

امين السر — ايسمح مولاي ان تدخل المهنئين ؟

الامير — اف ... لقد مللت رؤية هذه الوجوه والسحن التي لاتحسن الا التزلف والانحناء والخضوع حتى اذا دعوت اصحابها للواجب المقدس تلكأوا وتواروا مختبئين في الجحور كالفئران .

امين السر — يدرك ماينطوي عليه صدر الامير .

— يخرج ثم يعود —

مولاي : لقد اخبرتهم انك في خلوة مع القائد لبحث خطط الدفاع فأنصرفوا وجميعهم يدعون لمولاي الامير بطول العمر ودوام النصر .

الامير — بورك بك .. الم يبق احد ؟ انني اسمع بعض اللغط .

امين السر – لم يبق في اليوم غير بعض الشعراء .. جاؤوك لانشاد قصائدهم والتماس ..

الامير – والتماس الجوائز .. من هم ؟

امين السر – لم اتعرف على واحد منهم .. انهم يزورون حلب ويدخلون عتبة القصر لاول مرة .. واغلب ظني انهم جاؤوا من الاطراف يلتمسون العطاء ...

الامير – امهلهم الى الغد .. فحسبي ما سمعته من المتنبي وانا في طريق عودتي ..

امين السر – مولاي .. انهم يلحون بمقابلتك .

الامير – اف ... لقد مللت هـذا الكلام المعاد .. انني احب الشعر واطرب لمجالس الادب .. وقد اغدقت على الادباء والشعراء الشيء الكثير حتى خلقت مملكة ادبية في هذه البقعة الجميلة .. ولكن ، لا اكتمك يا ابا الفياض ، لقد فاض هذا القول الهراء يردده كل من هب ودب .. كلهم يدعي الشعر .. وكلهم يطمع بالمنح الغالية .

امين السر – المال .. المال يامولاي هو معبود الجميع .. وقد عودتهم انت على ذلك .

الامير – لقد اردت من هذه الهبات ان اوقظ دولة الادب الغافيـة .. وانت تعلم ان الادب لايزدهر مالم ترعه الدولة بعنايتها .. ولكن من المؤسف .. اصبح كل شويعر يدعي الشعر .. حسبي من الشعراء من اصطفيتهم .. وحسب دولة بني حمدان ان يكون شاعرها المتنبي .. وخطيب معاركها ابن نباتة ، ومعلم ابنائها ابن خالويه ، وفيلسوفها الفارابي ، وقيم مكتبتها الصنوبري والخالديان .. نعم ، حسبي من الشعراء .. ابو الطيب ، هذا الشاعر الطموح الذي استطاع ان يفهمني ويفهم الاغراض العليا التي ينبض بها قلبي

امين السر – ولكن هل خلا قلبه من عبادة المال ؟

الامير – ابداً « هو ايضاً » من عبيد المال .. ولكنني استطعت أن أروضه في هـذه السفرات التي صحبته معي الى الغزوات . وان أنفخ فيه روح البطولة ... فشعره لون من معاركي . وتصوير لبطولاتي .. ولولا ذلك لما كان مقرباً الى نفسي ..

امين السر – مولاي الامير .. انك متعب ، فخذ قسطك من الراحـة ولنترك حديث الشعر الى الغد ...

المنظر الثاني

يسمع لغط خارج البهو ..
أصوات تنادي بحياة الامير .
يزدحمون على الابواب يريدون الدخول فيصدم الحراس .
فتقع بينهم شبه معركة ..
يقتحمون الباب فيدخل رجـــل مهلهل الثياب .. منفوش الشعر .. تبدو عليه مظاهر الفقر والفاقة ..
يهتف بصوت عال « ليحي الامير .. ليحي الامير ثم يقول :»

الشاعر — مولاي الامير « جئت احمل اليك حبي وحب آلي وعشيرتي ... هل من شيمك وشيم العرب ان أصد وان اعود دون ان أكحل عيني بمحياك .. وان ـ يحاول امـــين السر ان يسكته فيزجره الامير ويسمح له بالقاء مافي جعبته ـ

الشاعر — يا أمير البلاد .. ايها السيف البتار .. ايها النور الذي اضاء الآفاق ...
لقد هزمت الاعداء ... و و .. وكنت .. وكانوا ..
وكانوا كفأر وسوسوا خلف حائط
وكنت كنور عليهم تـفـــا

امين السر — صه ايها الاحمق .

يتوقف الشاعر عن اتمام قصيدته ، وقد عراه الذهول بعد ان لوى الامير وجهه وبدا عليه الامتعاض ..
كان امين السر قـــد اشار الى الحاجب ان يخرجه .. فتقدم منه يزجره بحركة بهلوانية اثارت ضحك الامير .
خرج الشاعر المتكسب وارتمى على باب القصر وبدأ يتمتم ويبكي ..
سمع الامير بكاءه فرق له وأمر بادخاله ...

الامير — مالك تبكي ياشيخ جدعان .. وليس هذا من شيمة الرجال ؟

الشاعر — مولاي .. قصدتك بكل ما أقدر عليه ، اطلب منك بعض ما تقدر عليه .. فلما خاب أملي ... بكيت ...

الامير — ويلك فمن يكون له هذا النثر .. ايكون له ذلك النظم ..! وكم كنت املت ؟

الشاعر – خمسمائة درهم ..

الامير – الى امين السر – ادفعوا له الف درهم ...

الشاعر – يقبل اذيال الامير وينصرف هاتفاً : ليحي الامير .. ليحي الامير

المنظر الثالث

امين السر – أأغلق باب القصر في وجه الباقين .. انهم كثر يامولاي ..

الامير – ويلك .. لقد جاؤوا يلتمسون العطاء .. ويرجون الثناء .. ثم يكون لقاؤنا الزجر والحرمان ..

لا ... لا ...

ولم يكد الامير ينتهي من كلامه حتى دخل القاضي محمد بن محمد النيسابوري فطرح من كمه كيساً فارغاً ودرجاً فيه شعر .. وبعد أن قلب صفحات الديوان أخرج قصيدة بدأها بقوله :

حباؤك معتاد ، وأمرك نافذ
وعبدك محتاج الى الف درهم

الامير – بخ بخ .. الف درهم فقط .. يا لك من شاعر متورع ...

القاضي الشاعر – مولاي .. ان قافية القصيدة ألجأتني ان اذكر الدرهم .. والدرهم يرمز الى الدينار .. والف دينار ليست شيئاً يذكر اذا قيس ذلك على فيض عطاياك ..

الامير – ايها القاضي العفيف .. لك ما تريد .. فلتكن الالف درهم الف دينار

– ليحي الأمير .. ليحي الامير .. ليحي اميرنا المغوار –

امين السر – مولاي .. شاعر آخر اسمه الناشيء الحمصي يريد ان ينثر درره :

الامير – الناشيء .. من هذا الشاعر ؟ لم اسمع بهذا الاسم بعد ..

امين السر – ان عطاياك قد فتحت الباب على مصراعيه .. واللهى تفتح اللهى ..

الامير – وماذا يريد ؟

امين السر – ما اراده زملاؤه ... في قلنسوته قصيدة يريد ان ينشدها بين يديك ..

الامير – اصرفه الى ان تصل الاموال .. لقد فرغت الخزانة ..

امين السر – افرغها والله هؤلاء المنافقون الكاذبون ..

امين السر الى الشاعر

الامير تعب .. وهو حريص على سماع شعرك ..
ويمكن ان تحضر بعد اسبوع ...

الناشيء الحصي – ابدا .. ليس من تقدمني افضل مني وقد نعموا بعطايا الامير .
اني جئت من جبال الحص احمل اليه شعري فأصد .. لا . لا يا ابا الفياض...
يدخل الى البهو وينشد بين يدي الامير .

رعاك الذي يرعى بسيفك دينه
ولقاك روض العيش اخضر يانعا

الامير – بارك الله بك ايها الشاعر الفذ .. كفى .. كفى ..

امين السر – ان الامير مقدر لموهبتك ، وسوف لاينساك من جائزة ثمينة بعد فترة نرجو
ان لا تطول . .

ويخرجه من البهو بحركة اثارت شفقة الامير .

. . .

الشاعر يتفوه بكلمات مقذعة ويتحدث عن كرامة الادباء ويلعن الساعة التي قذفته الى بلاط الاميرليغبر وجهه بالملق والرياء ويكون سخرية الجمع دون ان يصيبه امله من عطايا الامير الذي لم يترك شاعراً او شويعراً الا غمره بفضله .

امين السر – يلحق به ويربت على كتفه مواسيا ويقول له – ان الامير لن ينساك وسيخصك بجائزة سنية متى وصلت الاموال . ثق ان الخزانة فارغة .. افرغها زملاؤك .

الشاعر – الم تفرغ الا حين جئت انا لسوء طالعي .

يخرج الشاعر من الباب الخلفي واذا به يجد كلاباً في فناء القصر يذبح لها السخال وتطعم لحومها فأثاره المنظر وسرعان ما تفتحت قريحته على بيتين عبر فيها عن المه وهرع الى الامير ينشده اياهما .

مولاي – رأيت بباب داركم كلابا
تغذيها وتطعمها السخالا
فما في الارض أدبر من اديب
يكون الكلب احسن منه حالا

الامير – ما هذا الكلام يا شاعر الحمص .. « الكلب احسن حالا من الاديب ...
لا ..... لا .. انك تزدري الادب وتهين الشعر ..

امين السر – ايها الامير .. ان الادب لم يزدهر في عهد كما ازدهر في عهد اميرنا الشجاع ...

الشاعر – واحرم انا من عطاياه ...

الامير – هون عليك ... – الى امين السر – متى وصلت الاموال ابعثوا اليه بمبلغ وفير ..

يخرج الشاعر .. وقد علم جمهرة من الشعراء والادباء بما قاله الناشي وما جرى له في القصر فأخذوا عليه هـــذا الصغار فلحقوا به وهموا ان يضربوه لمساسه كرامة الادب ، فهرول منهزما الى بيته وهو يلوم نفسه
وعكف على نظم قصيدة يكفر فيها عن زلاته ...
مرت الساعات دون ان يفتح عليه بيت واحد ..
خرج من البيت يروح عن نفسه .. وما يكاد يخطو خطوات حتى تراءى له شبح ظنه لصاً ، فهجم عليه بالسلاح واذا به يراه بغلاً محملا بالذهب ، وعرف انه بغل شرد عن بغال قافلة الامير .
فأخذ المال وشخص الى حلب فما كاد يدخل على سيف الدولة حتى قبل الارض بين يديه وأنشد :

الشاعر – ومن ظن أن الرزق يأتي بحيلة ۝ فقد كذبته نفسه وهو آثم
يفوت الغنى من لاينام عن السرى ۝ وآخر يأتي رزقه وهو نائم

الامير – أوصلك المال الذي كان على البغل ؟

الشاعر – أي نعم يامولاي .

الامير – خذه بجائزتك مباركا لك فيه .

الشاعر – وكيف عرف مولاي ذلك ..

الامير – عرفته من قولك « وآخر يأتي رزقه وهو نائم » بعد قولك « يكون الكلب أحسن منه حالا » ...

أمين السر ـ مولاي .. جاء شعراؤك الذين ادنيت مقامهم يحملون قصائدهم الغراء وهي تشيد بيطولتك ـ جاء النامي والرفاء والوأواء .. والببغاء .. والخليع .. الشامي.

الأمير ـ .. لا . لا .. لا .. كفى ما سمعته اليوم من القول .. انني في حاجة الى نغمات تطربني لا الى هراء يزعجني .. دعني أخلو الى نفسي .. وانصرف انت حيث تشاء .. تمتع يا ولدي بشبابك .. ولكن اياك ان تعب كثيرا من خمر الاندرين فحسبك خمرة حسنائك رباب .. فقد تفاجئنا الانباء غدا فنضطر الى الترحـــال لخوض معركة جديدة .. وخذ هذه الصرر وزعها على الشعراء ...

ـ المنظر الثالث ـ

أمين السر ـ يخرج الى الشعراء وينفح كل واحد صرة بعشرة دنانير من دنانير الصلات ويعتذر اليهم باسم الامير بسبب تعبه وحاجته الى الراحة ..

ويطلب اليهم ان يحضروا غدا الى البلاط ـ

ينصرف الشعراء وقد قبض كل واحد منهم منحة الامير وهم يتطلعون الى منحة اكبر حين القاء قصائدهم بين يديه ...

الوأواء الدمشقي ـ بينه وبين نفسه وقد فتح صرته واخذ يتأمل هذه الدنانير التي لم يرها قبل الان .. واذا كل دينار بعشرة مثاقيل عليها اسمه وصورته .. فما كان يقلبها بين يديه حتى ارتجل على الفور هذه الابيات واخذ ينشدها بحركة لاشعورية ...

نحن بجود الامير في حرم	نرتـــع بين العود والنعم
ابدع من هذه الدنانير لم	يجر قديما في خاطر الكرم
فقد غدت باسمه وصورته	في دهرنا عودة من العدم

اطل الامير من مقصورته فرأى الشاعر ينشد الابيات بصوت عذب .. وهو في نشوة غريبة .. فأمر بمنحه صرة اخرى ...

الوأواء ـ بورك بأميرنا البطل .. بورك بأميرنا البطل .. ما اجزل عطاياه .. لقد كنت في امس الحاجة الى هذه المنحة ..

يتلمس الصرة .. بينه وبين نفسه ـ مائة دينار من دنانير الصلات ، انها ستفرج عني وعن عيالي .. يا له من رجل عظيم وامير خطير .

ـ يسمع هذا الحديث الرفاء فيلتفت الى النامي الشاعر ويجري بينهما الحديث التالي ».

السري الرفاء ـ كيف انتقص الامير من مكانتنا ؟.. ولم فضل الوأواء علينا ؟ هذا الشويعر الرضيع الذي عاش حياته في دار البطيخ يسمى بالفواكه رائحا غاديا ، ويتغنى عليها مناديا . .

النامي ـ مالنا ولوضاعة اصله .. ألم يمتهن غيره من الشعراء اقل من هذه المهنة .. وبلغوا مرتبةعالية من الشعر ..?أليس بين الشعراء من كان سقاء وخبازا وطباخا ? . . المهم في الشاعر موهبته الخصبة وقريحته الوقادة المعطاء .. وقد استطاع الوأواء ان يهتبل الفرصة ، وان يعبر عن حاجته فنفحه الامير على الفور بعض ما جادت به سجيته المعروفة بالكرم .

الرفاء ـ ولكن هذه الابيات التافهة ليست مما يثير الامير لان يدفع له عشرة اضعاف ما منحنا اياه . مائة دينار من دنانير الصلات .

النامي ـ ما العمل وفهمه الشعر بهـــذا الحد قد دفعه الى ذلك .. يالنا من اغبياء . . لقد جعلنا الامير شاعرا واديبا ، ونقادة اريبا .. مع انه ..

ـــ ويلتفت حواليه ـــ

مع انه من ابعد الناس عن تذوق الشعر الجيد وتمييزه من الشعر الرديء . . ولكن عطاياه هي التي جعلته من اكبر المتذوقين للادب ومن فطاحل الشعراء ولم يتورع البعض ان ينظم اجمل مقطوعات الشعر وينسبها اليه .. بل ذهب البعض في اماديحهم الى تأليهه.. واعتباره من ملوك السيف والقلم ، يا لنا ، نحن الشعراء من كذبة منافقين ومرتزقة مذبذبين

الرفاء ـ نطقت بالصواب ايها الزميل .. ان سيف الدولة لا يحسن غير تضريب السيوف وخوض المعارك .. اما الشعر ...

ـــ ويلتفت حواليه ـــ

دعني من الخوض في هذا الموضوع . . من رأيي ان نعيد هـــذه المنحة . . عشرة دنانير لنا .. ومائة للوأواء ..
يا لسخرية القدر ...
والله لو حملت قصيدتي الى كافور الاخشيدي لنفحني المئات . .

النامي ـ لا تتسرع ، ايهـــا الصديق ، في احكامك . . فهذه الدنانير العشرة مقدمة للمنحة الكبرى . .

ومن جهة ثانية فليس من الادب ان ترد منحة الامير ..
ولا يوجد امير او ملك يجاريه في هباتـــه وعطاياه .. فقد خلق للادب دولة رفيعة الذرى ، وطيدة الاركان ..

الرفاء — اذن ، فلأبحث الموضوع مع كاتبه ابن الفياض .

النامي — حسن .. ولكن كن لبقا .. اين هو الآن .. وقد ترك القصر منذ برهة .

الرفاء — انه في حانة متى بن جرجيس يحسو الشراب مع صديقته رباب ..

النامي — حسن .. هناك يطيب الكلام وتباح الاسرار على اشمة خمرة الاندرين

— المنظر الرابع —

في الحانة

شبـــاب حلب المترفون يرتادون حانة متى التي عرفت بتقديم اطيب الخمور ..
تقع في غرب المدينة .. على ضفاف النهر .. وقد قامت الاشجار الباسقة حواليها وعند المدخل ....
ابيح لبعض الاسرى من القواد البيزنطيين ان يرتادوها مرة في الاسبوع مع بعض الروميات القاطنات في المدينة .
القصف يبز مقاصف بغداد بجوه النواسي ..
ابن الفياض مع خليلته رباب في ركن منعزل بعيدا عن الناس ، وقد صفت أمامه مائدة حوت مالذ وطاب من شهي المـــآكل ولذيذ الشراب ..
يتحادثان احاديث الحب وهما في نشوة السكر
يدخل الشاعر الرفاء الحانة يتفحص الوجوه باحثـــاً عن ابن الفيـــاض امين سر الامير ..
لايكاد يلمحه حتى يسرع الخطى نحوه فيضمه ويقبله .

ابن الفياض — اهلا اهلا بشاعر الامير والصديق الحميم .. تفضل وشاركنا الشراب والطعام...

الرفاء — لا .. لا .. دعني وشأني ، فأنا شبه محموم .. جئتك في هذه الساعة معاتباً في أمر هام .. واريدك ان تنقل عتبي وعتب اخواني الى اميرنا البطل . كيف يدفع للوأواء عشرة امثال مانفحنا به انا واخواني — مائة دينار لبائع الفاكهة —

الوأواء جابي الفندق .. ونحن وانت تعلم من نحن .. وما مقامنـا من دولة الشعر عشرة دنانير ؟

ابن الفياض ـ من قال ذلك ؟

الرفاء ـ الوأواء ...

ابن الفياض ـ انه يكذب .. انه يخادعكم .. وقد اراد ان يوغر صدرك وصدر اخوانك على وان يظهر بأن الامير اكثر عطفاً عليه منك ومن النامي . مع انكما عزيزان عليه ، اثيران عنده . مائة دينار .. انه يكذب .. اقسم ان لا شيء من هذا قط ..

الرفاء ـ كفى .. كفى .. لقد صدقت .. كل ما ارجوه ان تمهـد لي الظرف الملائم لالقاء قصيدتي الجديدة التي نظمتها تمجيداً لبطولته .

ابن الفياض ـ ان الامير حريص كل الحرص على لقائك والاستماع الى شعرك وشعر زملائك .. ولكنه .. متعب وفي أمس الحاجة الى الراحة التي تعيد له نشاطه لاسيما وامامه اعباء جسام ونضال طويل .. ولا اكتمك أن اركان حربه يعدون العدة للقاء العدو في معركة ستكون من المعارك الحاسمة ..

الرفاء ـ وقد تمتعه الفكر ـ يا مولاي انت تعلم ان دولة الشعر عند اميرنا المقدام هي اوطد ركناً من دولته وعرشه ، وهو حريص على ان يسمع شعري كلما عاد من احدى معاركه ..

ابن الفياض ـ انه يحب ذلك .. ولكن في ساعات الهدوء والطمأنينة .. وفي لحظات الدعة والاطمئنان .. ولكن اليوم غير الامس .. ونحن كما تعلم في حرب طـاحنة . والروم على الابواب .. وقد يخرج الامير غداً الى الغزو ..

الرفاء ـ غدا ...

ـ بعض الضباط الاسرى يتقطون الحديث
يدعو احدهم « رباب » للرقص ..
ينتهره ابن الفياض بلكمة ترميه الارض . .
تقع معركة بين ابناء العرب والروم
تطفأ الانوار . وتنهال الكراسي على الرؤوس وتقلب الموائد .

تأتي الشرطة فتقتاد الضباط الى المعتقل –
يعود ابن الفياض الى ركنه ..

ابن الفياض – الى رباب – هل لك سابق صلة به ..

رباب – بمن ؟

ابن الفياض – بالضابط .

رباب – اعوذ بالله ..

ابن الفياض – اذن .. لماذا اختارك دون بقية الفاتنات .. واكثرهن من بنات جلدته ..

رباب – والله لا أعرف ..

ابن الفياض – يا كاذبة ..

– يظهر الشاعر الرفاء وكان مختفياً وراء ركن المشرب وقد اصابته كدمة في وجهه تورمت على اثرها عيناه . فأخذ يعب من الشراب بغير وعي .

الرفاء – – يخاطب ابن الفياض وقد حسبه الامير سيف الدولة – مولاي .. في قصرك الفخم هذا يطيب لي ان أنشدك ابلغ ما نظمته في معاركك وسجاياك .

ابن الفياض – ينقلب ازوراره الى ابتسام ـ يأخذ هـذه الصرة من دنانير الصلات .. وليكن موعدنا غداً لسماع نفحات جديدة من شعرك وسنضاعف لك الهبات .

الرفاء – يتحسس الصرة وقد انفرجت أساريره عن ابتسامة عريضة .
أطال الله عمر الامير .. أطال الله عمر الامير ..
ويهجم على يد ابن الفياض يقبلها ويستزيده بالهبات ..

ابن الفياض – الى الغد .. الى الغد .. والى اللقاء ..

المنظر الخامس

يرجع الرفاء وهو شبه مخمور ويجري بينه وبين النامي بحضور بعض الادباء الحديث التالي :

النامي – ماوراءك ياصاح ..

الرفاء – لاشيء .. لاشيء ..

النامي ــ قل .. افصح .. هل قابلت ابن الفياض ؟

الرفاء ــ قابلته .. وكان مخموراً يغازل حبيبته فلم استطع ان اكاشفه بالامر . .

النامي ــ قال بعض من كان في الحانة انه نفحك مبلغــا ثمن سكوتك . . وقد انشدته قصيدة من شعرك .

الرفاء ــ اي نعم ، حسبت المبلغ منحة جزيلة .. واذا هي دراهم هزيلة . الحق ياأخي ان بلاء المملكة من امناء السر .

النامي ــ كيف ؟ . .

الرفاء ــ ان ابن الفياض يخون الامير في ماله . .

النامي ــ ومادليلك على ذلك ؟..

الرفاء ــ انني اعرف نفسية الامير . ، فعطاياه لاتقل عن المئة دينار . .

وقد اعطى الوأواء مائة دينار لطول لسانه لا لجمال بيانه . . واعطى كل واحد منا عشرة دنانير .

آه .. لو استطعت ان اخلو الى الامير لاسر اليه بالكثير مما اعرفه عن الاعيب ابن ابي الفياض الذي يتصرف بشؤون الامارة تصرف المالك المسيطر . وقد اصبح بألاعيبه واكاذيبه صاحب مال ودور وضياع . . وكل يوم مـــع عطية جديدة .. ونحن ..

النامي ــ نحن ... نحن الذين نصنع الرجال ونوطد اركان المملكة بأدبنا وشعرنا . . نحن لاشيء . .

الرفاء ــ الحجاب . . وامناء السر .. والاصفياء هم دائما مصدر البلاء . .

ــ وبينما هما في حديثهما يفاجئهما المتنبي فيقصان عليه الخبر . . فيعدهما ان يحصل لهما على منحـــة جزيلة فيدعوان لملك الشعر بطول العمر ــ ...

المنظر السادس

صحا سيف الدولة من نومه المتقطـــع . . ومازال الاعياء بادياً عليه .

يتقدم منه عبدان اسودان يلبسانه بعد ان يكون قد خرج

من الحمام وقد فاحت العطور من اردائه . . يأمر الخدم بالانصراف ويخلو الى نفسه .

سيف الدولة ــ ينادي جاريته هيلانة وهي من بنات ملوك الروم كانلايرى الدنيا الا بها ويشفق من الريح الهابة عليها ــ

هيلانة .. هيلانة .. اين انت ياحبية الروح ..

هيلانة ــ بين يديك يامولاي . . اسهر على راحتك واتملى من محاسنك ، واعتز بجميل رعايتك .

الامير ــ اقتربي .. اقتربي .. مااخبارك ؟

هيلانة ــ اخباري .. لاشيء .. لاشيء .

الامير ــ كيف امضيت ايامك خلال غيابي

هيلانة ــ في غم وكمد .

الامير ــ في غم وكمد .. لماذا .. هل تهاونوا في تحقيق رغباتك ؟

هيلانة ــ مولاي .. لقد كثرت الدسائس حولي .. وكل يوم يلصقون بي تهمة جديدة . ويحيكون فرية دنيئة . لقد هجرت اهلي ووطني في سبيل حبك ومرضاتك .. و..

الامير ــ اصحيح مايقولون

هيلانة ــ ومايقولون . .

الامير ــ انك على اتصال بمدوي اللدود نيقفور .. وان اسرار القصر واعمال الجيش ترسل اليه بواسطة بعض الضباط الاسرى . .

هيلانة ــ مضطربة ــ ومن قال ذلك يامولاي ، انهم يفترون علي . اني لااعرف احدا في هذا البلد غيرك .. ومابارحت القصر مذ اعتصمت في حناياه .

الامير ــ كيف .. الم تخرجي قط ..

هيلانة ــ ابدا . . ان حظاياك من اللواتي يذعن اخبار السوء عني . . ان الغيرة السوداء تأكل قلوبهن .... وقد سقوني السم مرارا ليتخلصوا مني ولكن شاءت القدرة الالهية ان انجو بأعجوبة . .

الامير ــ ومن سقاك السم ..

هيلانة ـ تجمجم بكلام مهموس وهي مطرقة الرأس ـ

ياسيدي ومولاي .. لا .. لا .. دعني وسل الجواري والحجاب.

الامير ـ اريد ان تكاشفيني انت بالامر . .

هيلانة ـ سيدي .. مولاي ،. ـ وتنهمر دموعها ـ .

الامير ـ من ؟

هيلانة ـ ابنة عمك ..

الامير ـ اين ؟

هيلانة ـ اغلب ظني انها تياه . .

الامير ـ ام ابي فراس .

هيلانة ـ نعم ..

الامير ـ وماشأنها بك .

هيلانة ـ لااعلم .

الامير ـ هل من عداوة بينكما ؟

هيلانة ـ ابدا .. ولكنها كثيرة الضيق بوجودي . ـ وهي ، كما سمت ، تـأخذ عليك اهمالك فكاك ابنها من الاسر .. وطالما تحدثت مع لداتها انك غير مهتم الا بلذاذاتك ..

الامير ـ هيلانة .. دعي هذا الكلام .. ولا تتداخلي بما لا يعنيك ..

هيلانة ـ مولاي .. طلبت الي ان اكاشفك بما تهجس به الالسن فامتثلت للامر ..

تقترب منه ، وهي في ثورة من الانفعال والنشيج .. ثم ترتمي تقبل يديه وتتوسل متضرعة ..

مولاي « اني غير امينة على حياتي .. ان حظايا القصر يفرن مني كل الغيرة ويدبرن لي المكائد .. »

الامير ـ هوني عليك يازهرتي الجميلة فأنت مني في السويداء ..

ـ لايكاد يواسيها بهذه الكلمات السحرية حتى تنتشي وتعود اليها اشراقتها .

ينادي مطربه معبد . ويطلب اليه ان يغني قطعة من شعره . يحضر معبد مع جوقته ومعها راقصة .

معبد – يغني القطعة التي نظمها الامير يعبر فيها عن حبه لهيلانة ..

راقبتني العيون فيك فأشفقت ولم اخل قط من اشفاق
ورأيت العذول يحسدني فيك مجداً يا أنفس الاعلاق
فتمنيت أن تكوني بعيدة والذي بيننا من الود باقي
رب هجر يكون من خوف هجر وفراق يكون خوف فراق

هيلانة – ما أجمل الحياة بقربك يامولاي .. أطال الله عمرك وجعل ايامك كلها سعادة وهناء .. مولاي ، هل لي ان التمس منك ان تنقلني الى قصر بعيد عن هذا القصر الموبوء بالشائعات والدسائس لأكون في معزل عن كل ما يعكر صفو هذه العلاقة ..

الامير – لك ما ترغبين ياحبيبة الروح .

– ينادي ابن ابي الفياض ويطلب اليه ان ينقلها الى بعض الحصون حرصاً على حياتها من جهة ، ودفعاً للشكوك التي حامت حولها – .

المنظر السابع

سيف الدولة مع ابن ابي الفياض

الامير – ماهي آخر الاخبار ؟

امين السر – لاشيء يامولاي .. سوى لغط الناس عن أمر أبي فراس .. وقد وصل اليوم القائد عمرو رفيقه في الجهاد . ، وهو في البهو يرغب المثول بين يدي سيدي الامير .

الامير – ادخله ... .

يدخل القائد عمرو ويتقدم من الامير محيياً ويجري بينهما الحديث التالي :

الامير – ما حال ابي فراس ؟

القائد عمرو – انه في ألم ممض .. لقد قاسينا الاهوال يامولاي .. وبعلمكم اننا التقينا مع الروم في معركة دامية .. كنا قلة بينما كانوا كثرة هائلة .. وقد دخلنا معهم في

حرب ضروس وقتلنا منهم المئات .. ثم تغلبوا علينا .. وكان ابو فراس السيف البتار الذي عرف ان يثأر لعزة العرب .. واخيرا احتاطوه فرماه الدمستق بنصل خزت خاصرته ، فلم يعبأ بها ..

قاتل كل الف فارس بسبعين . . وما زالوا عليه حتى طوقوه فوقع أسيرا بين ايديهم . . ثم اقتادوه الى قلعة الخرشة . . وبعد ذلك انكفأوا يلاحقون بقية افراد جيشنا ..

اما أنا وقد وقعت اسيرا فظللت الى جانبه . . ووضع علينا الحرس من كل جانب . . كان الحصن الذي حجزونا داخله عالياً . . وهو مطل على الفرات. وفي علو مئتي قدم تقريبا . وما كان لمثل ابي فراس ان ينام ليله . . لقد ظل ساهرا ينشد الاشعار الحزينة . . ويبكي تفرق جيشه وتغلب الروم عليه . وصمم ان يفلت من ايديهم ليلم افراد جيشه ويعاود القتال . وكانت فرسه الى جانبه فما اطل الفجر حتى قفز من هذا العلو الشاهق ليعبر النهر . . فنجا وذهبت فرسه البلقاء ...

الامير ـ بارك الله . . بارك الله

القائد عمرو ـ ولكن الحرس البيزنطي كانوا له بالمرصاد ، فقد احاطوه من جميع الاطراف وقبضوا عليه . . ثم قيدوه ـ تحت ايديهم ـ واقتادوه وهو مهشم الاعضاء الى استانبول .

وحين دخلناها ابتهج الاهالي وفرحوا فرحا عظيماً وظنوا ان الاسير هو سيف الدولة ـ قاهر الروم ـ لا ابن عمه . .

وقد انزلونا قصراً فخماً على ضفاف البوسفور وأحاطونا بكل عناية . . ووضعوا تحت امرتنا الخدم والجواري . . فما كان جمال استانبول لينسيه مرارة الاسر ولذة الجهاد . . فهو لا ينِي يبكي وينشد الاشعار . .

وسمح له ان يقوم كل يوم بنزهة على ضفاف البوسفور . . فكان زيه العربي موضع الانظار . . وكانت الروميات يتحدثن عن هذا الامير العربي بزهو واعجاب . . وما من واحدة الا تمنت ان تتحدث اليه . . انه يرقب فكاكه بين يوم وآخر .

سيف الدولة ـ يطرق مفكراً . وقد تبدلت أسارير وجهه ـ يجب أن نشن حملة جديدة . . يجب أن أفك أسره . . وان افتديه ولو تخليت عن كل ما املك من مال . و كيف أتيح لك الهرب ياعمرو وتركت زين الشباب في الاسر . . ؟

القائد عمرو ـ لقد استطعت أن اتزيا بزي قائد بيزنطي وان اخرج الى القفار ، وكانت هذه الخطة بعلم الامير أبي فراس لأنقل لسيدي الامير وضع الجيش البيزنطي — ومنذ ثلاثة شهور وانا اسير في الدرب وفي الفيافي الى ان وصلت يوم امس في هذه الحالة الزرية التي تراني عليها الآن . .

وليثق مولاي ان لا حديث للعدو الا غزواتكم التي القت الرعب في قلوب الكبير والصغير ، النساء والرجال . .

الامير ـ اما من رسائل من ابن العم . .

القائد ـ لا شيء ياسيدي . . لوددت لو كان هو الذي استطاع ان يفلت ولكن العيون عليه بالمرصاد . . وهو الذي حرضني على الافلات من يدهم لأنقل لكم اخبارهم واخبارم . . وهو لا يريد الا العودة الى الوطن ليحارب تحت لوائكم . . وهذا ما يفكر به ليل نهار . . وقد نظم عدة قصائد موجهة الى أمه واليك يامولاي .

ـ يخرج من جيبه ورقة قد ثنيت عشرين ثنية .

يفتحها الامير ويقرأ . .

الامير

فمن مبلغ عني الحسين الوكة	تضمنها در الكلام المنظم
لئن ذاد الكرى حتى أراك محرم	وثار الأسى بين الحشا تضرم
وأترك أن ابكي عليك تطيرا	وقلبي يبكي والجوانح تلطم
واظهر للاعداء فيك جلادة	واكتم ما القاه . . والله يعلم

تنفر الدموع من عيني الامير . . تدخل في هذه الفترة تياه ام ابي الفراس وقد بلغها افلات القائد عمرو — رفيق ولدها من الاسر . . . فتهجم عليه تقبله وتبكي .

تياء يا للعار . . يا للعار . . ابني اسير الروم . . وانت — تلتفت الى سيف الدولة — وانت في قصرك تلهو . . تلهو . . مع . .

سيف الدولة ـ يهجم عليها مؤاسياً — خففي من شجوك يا ابنة العم . . والله ان جرحه جرحي . . ولكن ثقي ان أسره لن يطول ولو افتديته بروحي . .

ـ صوت من بعيد ، في الظلام ، ينشد قصيدة مشجية كأنه صوت ابي فراس . . والشعر شعره .

ـ الجميع ينصتون —

مصابي جليل والعزاء جميل — وظني بأن الله سوف يزيل

جراح تحاماها الاساة مخافة　　وسقمان باد منهما ودخيل
وامر أقاسيه وليل نجومه　　أرى كل شيء غيرهن يزول
تطول في الساعات وهي قصيرة　　وفي كل دهر لايسرك طول

ام ابي فراس تبكي ويبكي لبكائها سيف الدولة وجمع من في القصر ،

تناساني الاصحاب الا عصابة　　ستلحق بالاخرى غدا وتحول

سيف الدولة ـ لا يا ابن العم .. لن ننساك .

الصوت ـ وان الذي يبقى على العهد منهم　　وان كثرت دعواهم لقليل
اقلب طرفي لا ارى غير صاحب　　يميل مع النعماء حيث تميل

قيماء ـ لا ينقطع بكاؤها .. وسيف الدولة يواسيها ويطمئنها ـ

أكل خليل ، هكذا غير منصف　　وكل زمان بالكرام بخيل
نعم دعت الدنيا الى الغدر دعوة　　اجاب اليها عالم وجهول
فيا حسرتي من لي بخل موافق　　اقول بشجوي مرة ويقول
وان وراء الستر اما بكاؤها　　علي وان طال الزمان طويل

سيف الدولة ـ لن يطول هذا الزمن يا ابن العم

تيماء ترتمي على الارض وقد فقدت وعيها

الصوت ـ فيا امتا لاتعدمي الصبر انه　　الى الخير والنجح القريب رسول
تأسي كفاك الله ما تحدينه　　فقد غال هذا الناس قبلك غول

الامير ـ يناكي الحجاب لنقل ام ابي فراس الى القصر ..

يدخل ابن أبي الفياض وبيده رسالة يسلمها الى الامير .

الامير ـ يقرأ الرسالة بكثير من الاضطرات .. ماذا ؟

لقد ثار بنو كلاب مجددا .. الويل لهؤلاء الخونة ..
انا نكافح العدو الخارجي وهم يثيرونها فتنة داخلية عمياء ..
انهم يمهدون للعدو أن يحتل ارض الوطن .. ويل امهم ما اخس طباعهم ..
لقد باعوا انفسهم للاجنبي في سبيل نفوذ كاذب ومآرب خسيسة . سوف ابدد
احلامهم ، واقض مضاجعهم ، واقضي عليهم ، القضاء المبرم ..
الى الجهاد .. الى الجهاد ..

ستار

مجلة المعرفة

مع التيارات الفكرية

العربية والعالمية

مجلة المعرفة مع التيارات الفكرية العربية والعالمية

كتاب المعرفة

فكرة المسرح



تأليف فرنسيس فيرغوسن
عرض وتلخيص الدكتور فؤاد ايوب

بعد فرنسيس فيرغوسن من ألمع النقاد الادبيين الاميركيين ، وقد ترأس طوال سنوات عديدة القسم المسرحي في كليته ببنينغتون ، كما شغل فيما بعد منصب مدير معهد برينستون للنقد الأدبي . وقد ولد عام ١٩٠٤ في ولاية نيومكسيكو ، ودرس في جامعتي هارفارد وأكسفورد ، وفي المسرح المخبري The boratory theater في نيويورك حيث كان مديراً مساعدا لمدة سنتين . أما حالياً ، فانه يشغل مركز الأستاذ في كلية الآداب في جامعة انديانا .

أما الكتاب الذي نستعرضه هنا، « فكرة المسرح » فقد نشر للمرة الاولى عام ١٩٤٩ ، وقال الناقد ريتشارد غيلز عنه في ذلك الحين : « اني أعتقد أن هذا الكتاب هو أهم المؤلفات التي نشرت في اميركا عن فن المأساة ».

يقول هملت : « ... ان غرض التمثيل ، من قبل وحالياً ، كان ولايزال أن يرفع المرآة أمام الطبيعة ، وأن يطلع الفضيلة على ملامحها الخاصة ، وأن يسخر من صورتها ، وأن يبين لعمر الزمان وجسده هيئته ومطالبه الملحة .

ان هذا التحدي الذي يوجهه هملت الى الممثلين يعبر عن الحاجة القائمة أبداً الى محاكاة مباشرة وذات مغزى للحياة والفعل الانسانيين ، محاكاة يمكن أن تمثل مثلما تعزف الموسيقى ، واذا طلب هملت من الممثلين ان يرفعوا المرآة أمام الطبيعة، فذلك لأن المسرح في عصر اليزابيت كان بالفعل مرآة تقوم في مركز هذا العصر ، وفي مركز حياة الجماعية ووعيها . أما الآن فان الشعور يخامرنا بأن المسرح بذلك المعنى لم يعد صالحاً لزماننا ، وأن مثل تلك المرآة نادراً ماتتوفر لنا . اننا نشك في أن يكون لزماننا عمر أو جسد أو هيئة أو مطالب ملحة ، بل نميل الى اعتباره صحراء عديمة الشكل . وانه ليتراءى لنا أن الطبيعة الانسانية وجود متقلب غامض ، ويكون كتابنا المسرحيون محظوظين اذا هم تمكنوا من تثبيتها ، في فواصل نادرة ، في أحد مواقعها العابرة ، ومن زاوية وحيدة الرؤية ، نيرة حقاً ، لكنها منحازة بصورة دائمة . وهكذا تضيع فكرة المسرح مثلما يفترضها هملت ، ويختلط فن المأساة ، وقد فقد مكانه في الحياة المعاصرة ، بالشعر الغنائي أو الموسيقى المجردة من جهة واحدة أو بالوعظ والثرثرة من جهة ثانية .

ولا يقصد من هذا الكلام أننا نفتقر الى كتاب مسرحيين رائعين ، بل ان الامر على النقيض من ذلك ، لأن في مكنة المسرح الحديث أن يطلعنا على صور عديدة للحياة الانسانية هي فاتنة

وعميقة المعاني في وقت واحـــد . ان التنوع المركز لمسرحنا يمكن أن يغمر بالثراء ، ولسنا نريد أن نتخلى عن أي من عناصره ، من لوركا الى اليوت ، أو من تشيخوف الى كوكتو. لكننا حين نفكر بسائر هؤلاء الكبار معاً ، فانتا لاندري ماعدنا نفعل بهم . فليس في وسعنا أن نفهم فنون الكتاب المسرحيين المخصوصين ورؤاهم ، أو الكمال المحدود للأنواع المأسوية الصغرى من دون مفهوم جمعي عن الفن بصورة عامة . ولذا فان جهودنا من أجل تقدير الكتاب المسرحيين المعاصرين تقودنا بالضرورة ماوراءهم ، الى فن شكسبير المسرحي وفن سوفوكليس المسرحي ، هذين الفنين اللذين تطورا في مسارح كانت تجمع ، في مركز حياة الجماعية ، المفاهيم المتكاملة لمجموع الثقافة . ولسنا نملك مثل هذا المسرح ، كما أننا لانرى سبيلا الى الحصول عليه ، لكننا نحتاج الى « فكرة المسرح » كي نستطيع من جهة أن نفهم روائع المأساة على خير وجه ، ومن جهة أخرى أن نقرر سلوكنا في عصرنا الحاضر .

ويضم هذا البحث أربع مسرحيات قديمة انتقيت لأنها يمكن أن تشكل بالنسبة الينا معالم في طريق دراسة المسرح ، كما نضم عدة مسرحيات حديثة يمكن أن تعتبر نماذج للشكل المأسوي الحديث . ومن المؤكد أن هذا الانتقاء القليل في ذاك الحقل الواسع يظل انتقاء اعتباطياً تماماً ، لكنه لاحيلة لنا في الأمر ، اذ لابد من الانتقاء في مثل هذه الحال ، وما يشفع لاختيارنا هو أن هذه المسرحيات جميعاً كانت ولا تزال موضع الجدال الواسع بين كتاب المسرح ونقاده من جهة والفلاسفة والانتروبولوجيين من جهة أخرى . (١)

بيرينيس ، أو فعل العقل ومسرحه .

انتقيت بيرينيس كنموذج عن مأساة العقل وخصائص المسرح الباروكي ، وان يكن بعض النقاد ينكرون ان تكون مأساة حقاً ، لأن العاطفة فيها هي الحب وحده ، والكارثة كل الكارثة هي انفصال أنتيوكوس عن بيرينيس التي يحبها ، وبيرينيس وتيتوس المتحابان عن بعضهما بعضاً . لكن راسين كان يعتبرها من أكمل مآسيه : « ليس من الضروري ان يكون في المأساة دماء وجثث ، بل يكفي ان يكون العقل عظيماً ، وممثلوه بطوليين ، وان تستثار الأهواء فيه ، وان يؤدي المجموع الى تلك التجربة من الكآبة المهيبة التي تقوم كل لذة المأساة فيها . »

وهكذا تتوفر لدينا في هذه المسرحية مأساة تنطبق على تعاريف الكتب : « فعل بطولي ، يقوم به أشخاص مثلهم الاعلى انتصار الارادة على الغريزة » . وهذا ما سعى راسين اليه . انه يريد ان يبرهن على ما في وضع الملوك العاشقين الثلاثة من حياة مأسوية للنفس التي هي عاقلة . ان العقل هو القيمة الوحيدة ، والعقل يجب ان يطاع دائماً .

---

(١) راجع « الاسطورة والشعائر في مسرحية اوديب ملكاً » الترجمة عن هذا الكتاب في عدد (المعرفة) عن المسرح الشهر الماضي . وقد اوردها الكاتب كمثل من امثاله .

ويمكننا ان نقدم مسرحية **بوليوكت** لكورني كنموذج آخر عن المثل الاعلى الاخلاقي لذلك العصر، وقد يبدو للوهلة الأولى انموضوع المسرحية هو تحول بوليوكت من الوثنية الى الايمان المسيحي ، لكننا لا نستطيع ان نصدق ان هذا التحول هو المادة الفعلية للمسرحية . ان النبيل الوثني الروماني سيفير يقف تلقاء بوليوكت في المسرحية ، وهويحب بولين ، زوجة بوليوكت حباً لا رجاء فيه ، على طريقة انتيوكوس ، وان سلوكه حيال بولين ، حين يكبح جماح حبه لها ويعرض عنها؟ لا يقل بطولة عن سلوك بوليوكت الذي يعرض عنزوجته هو الآخر ـ وهو يحياـ بدافع من ايمانه الجديد . ان ايمان هذين النبيلين متناقض، لكنه قائم عند كليهما على اساس كمال النفس العاقلة ، وقد يكون موقفهما مختلفاً ، لكنه في كلتا الحالتين يصدر عن العقل وحده ، ويطمح الى نفس «المجد» غير المتبدل .

وحين غادر المسرح الباروكي الحياة تدريجيا حين لم يعد مجتمع لويس الرابع عشر يبدو أزلياً ولم تعد صرخة العقل مقبولة كدليل معصوم من أجل السلوك ـ فقد طرأ تبدل على الفن المسرحي يتظاهر لنا في المحاولات الجريئة التي بذلها الرومانطيكيون من أجل تحطيم قيود المسرح الباروكي أو الافلات منها . ومع فاغنر، تطور شكل من المأساة لايرفض مسرح العقلانية الجامد فحسب ، بل ينكر العقل نفسه ايضا . ان المأساة الفاغنرية الموسيقية، مثلما نراها في **تريستان وايزولد**، أونفل الهوى ومسرحه .

ان مفهوم المسرح والفن المأسوي المحقق في مسرحيةفاغنر **تريستان وايزولد** لمطابق الكمال والوعي الذاتي مثل مفهوم راسين تماما . ولقد رجع فاغنر ايضاً الى الاسس الاولية ، اذ يفترض في **تريستان** ، مثلما يفترض في المأساة النيو كلاسيكية ، انهـا روح المأساة الاغريقية وقد بعث الى الحياةفي العالم الحديث . ان صورة الحياة والفعل الانسانيين، وفن المأساة ، وما يكمن خلف ذلك من فكرة عن المسرح ، هي في **تريستان** «مثالية» ومطلقة ونهائية قدر ماهي عليه عند راسين ، لكنهـا مناقضة من مختلف وجهات النظر لمأساة العقل ومسرحه .

فقد طرأت تبدلات اساسية في حياة اوروبا وفي المسارح التي تعكس هذه الحيـاة بين زمن مسرح العقل وزمن فاغنر . ان البورجوازية المثرية حديثاً، المتماسكة باشكال سياسية واجتماعية جامدة ، تحتل الصفوف الاولى في حياة القرن التاسع عشر ، وهي تشاهد نفسها راضية في المسرح التجاري . لكن الجماهير كانت تقف في المؤخرة ، جماهير فقدت مراسيها في التقليد ، وهي تحت الخطا في مسيرة لاتعرف نهايتها بعد . في حين ينادي الفنانون ـ هؤلاء الانبياء المكتشفون ـ بألف طريقة وطريقة بأن الحيـاة العامة لتلك الازمـان ـ المنتج الصالح للسوق ، والصورة الانسانية المقبولة ـ هي حياة مذلة ووهمية .

ولقد كان فاغنر واحداً من هؤلاء الفنانين الانبيـاء ، وهو نسيب لكل من بتهوفن ودولاكروا وابسن ودوستويفسكي . بل لقد

انضم في مطلع حياته العامة الى الثوريين السياسيين ولاقى الأسرين بسبب افكاره الثورية . ونحن لا نعرف بعدما يجب ان نصنعه بالحركات الرومانطيكية والثورية لذلك الزمن ، ولعلنا لا نبرح في ملتها . ومهما يكن من امر ، فاننا نستطيع أن نرى أن **تريستان** تمثل خاتمة **أحد** الحوافز الـــلاصقة بالتقليد الرومانطيكي . واننا نستطيع ان نرى فيها ان مفهوم الحياة الانسانية ، ومفهوم الفن الذي يحاكي هـــذه الحياة ، قد بلغا ذروة جديدة منذ راسين . ان العقل نفسه يجحد فيها ، جنباً الى جنب مع المحاولات العقلانية الخرقاء للمسرح التجاري لكننا لا نستطيع ان نقول أن **تريستان** تلخص كل الزخم الرومانطيكي ، او أنها تحقق كل امكانات الالهام الفاغنري . بل ان فاغنر نفسه ، ونيتشه ، قدر فضاها اخيراً ، لقد أبلا وحاولا الاستمرار قدماً .

وكما كان مسرح العقل يعبر عن مجتمع « مغلق » ثابت ، لا يتطور الا في بطء عظيم ، فقد كان مسرح فاغنر ، وبالخاصة **تريستان** تعبيراً عن تلك اللحظة التاريخية للانتقال خارج المجتمع المغلق . انه يمثل الحياة الفعلية لاوروبا الرومانطيكية . ولقد كان الفنانون الانبياء والثوريون في القرن التاسع عشر يشتركون في نقطة واحدة على الاقل ، ألا وهي مناداتهم بفناء المجتمع البورجوازي الجامد والمغلق ، ومحاولتهم اتخاذ موقف لهم في مجال اوسع واصدق من ذلك المجال المحدود .

فما الذي كان يراه فاغنر « قيد التحضير » ؟ ان **تريستان وايزولد** تعتبر الهوى مفتاحاً للحياة البشرية المتحولة ، مفتاحاً لمجال وجودنا الليلي الحقيقي . ان الهوى هو المرشد ، لكن جهداً كليا تبذله الارادة ويبذله الذكاء يأتي في اعقاب ذلك المرشد الكئيب . ولا ريب ان هذه المسرحية مثلها مثل المآسي الكبيرة الاخرى ، هي محاكاة للفعل ، لفعل معني ، فهي ترينا احد الاتجاهات التي يمكن للروح الضائعة ان تسلكها .

لكن من هم اولئك الذين يشاهدون مسرح فاغنر ؟ انهم طبعاً اولئك الذين يستطيعون أن يبتاعوا بطاقة الدخول اليه ، من صيـــارفة ، وملاكين ، وموظفين كبار ، وأصحاب أعمال وزوجات عاطلات — أي بالضبط أعمدة ذلك المجتمع الذي يجحده فاغنر ، ولقـــد كان فاغنر يعرف ذلك ، لكنه لم يكن يعتبر اولئك الاشخاص أفرادا أو عناصر ذات قوة في الجماعية ، ان الأنوار تنطفىء ، والاوركسترا تعزف ، فاذا الارادة المناطيسية للفنان تحرض ذلك « المزاج الموسيقي » حيث تتلاشى سائر المفارقات العقلية او المدركة ، وان المفارقة بين المستمعين والمسرح تتلاشى أيضاً ، فاذا الممثلون والشاهدون يعيشون على حد سواء حياة الموسيقى الواحدة . وهكذا فان فاغنر لا يتجاوز بواسطة الموسيقى المفارقات التافهة للحياة اليومية فحسب ، بل سائر قيم العالم العادي أيضاً . وبذلك تستيقظ الروح الألمانية ، و « تتحرر » كي تحلم حياة مأسوية خاصة بها .

ان التعريف الذي يعطيه هملت عن المسرح بوصفه مرآة للطبيعة يتردد طموحاً في آذاننا ، نحن الذين نعاني في انقسام الآراء بشأن الطبيعة البشرية . ولقد كان في مكنة هملت ان ينظر

بعد الى المأساة بوصفها محاكاة ، والى الواقع الانساني بوصفه شيئاً قابلاً للادراك بصورة مستقلة عن عالم عواطفنا المغلق. لكن فاغنر يبني النزعة الذاتية الأشد جـذرية ، ويقبل مضامين الفن الكاملة على اعتبار الفن تعبيراً عن الانفعال. ان المسرحي الموسيقي ، بهواه وهوى الجمهور ، مثله مثل موسى الاسطورة بوعده المقدس ، سوف يخلق — من يدرك ومن يعكس — الروح الجماعية. وعندئذ تتلاشى المفـارقة بين الفن والحياة — أو بين الاوبرا والثورة — ويحتل الفن المهمل مكان اولئك المرائين وعالمهم الصغير الحقير.

واذا ما نحن قبلنا مقدمات راسين عن المسرح فان **بـيرينيس** تبدو لنا بوصفها الـكمال البلوري للشكل ، ولما كانت الرؤيا التي تمثلها لنا عن الكائن الانساني متماسكة تماماً ، فانها تتراءى لنا «أصدق» من أية صورة يمكننا تحصيلها من تجربتنا مباشرة. كذلك اذا قبلنا عالم الهوى الليلي الذي يطلبه فاغنر ، فان **تريستـان** تشكل تماسكاً سحرياً أشبه بالحلم ، ونحن نحسها بوصفها الحقيقة الجامعة للشرط الانساني. حين نصغي الى راسين نحس النفس الانسانية بوصفها عاقلة في جوهرهـا ، وبقية التجربة بوصفها ظلاماً خارجيـاً. وحين نصغي الى فاغنر نحس النفس الانسانية بوصفها هوى فحسب ، وكل ما تبقى وهم عديم المعنى ، وان هاتين الصورتين عن الحياة لمتضـادتان ومتنافيتان ، لكن بينهما بعض الاطلاق المشترك ، الا وهو ارجاعهما حياة النفس الى لحظة وحيدة من الفعل ، او اسلوب واحد من الوجود ، وفي هذا يختلفان عن دانتي وسوفوكليس وشيكسبير.

بيد ان في المسرح المعاصر عناصر هامة ، وبالخاصة في الواقعية الحديثة ، لايمكن ادراكها مطلقا على اساس هذه المبادىء المثالية. ان فن إبسن وفن تشيخوف يكتشفان من جديد بعض المغزى القديم للمأساة بوصفها **محـاكاة** للفعل ، الامر الذي سيتبين لنا من دراسة الواقعية الحديثة.

الأشباح وبستان الكرز ، أو مسرح الواقعية الحديثة

حين أقول **الواقعية الحديثة** ، فـاني آخذ هذا التعبير بمعناه العريض ، باعتباره محاكاة فوتوغرافية دقيقة للمشهد الانساني. وبهذا المعنى تصبح الواقعية الحديثة لغة سهلة المخيلة يستطيع كائن من كان أن يفهمها. وان آلة التصوير والراديو ، اذ يواصلان عملية بدأت قبل مائة عام على أقل تعديل ، يكرران بدقة متعاظمة ابداً سطوح وأصداء ومناظر الحياة المتمادية على الشاشة او المهموسة في آذان الملايين. فاذا كنا قد فقدنا اتجاهنا ، واذا كنا ننكر بصورة آلية أي صورة ثابتة عن الشرط الانساني ، فاننا نستطيع بعد ان نثرثر عن جيراننا ونسترق السمع الى الحيوات الاخرى. وانه ليتراءى لنا للوهلة الاولى ان هذا الوسيط ، وما يتضمنه من مشهد ضيق للحياة الانسانية ، لا يتسعان مطلقاً من اجل المأساة. ومع ذلك فقد رضي ابسن وتشيخوف بهذه الحدود المفروضة عليهما ، وصنعا مسرحيات رائعة.

ان مسرح الواقعية الحديثة لشديد الانكماش

بالقياس الى المسارح التي درسناها سابقاً . لقد خرج من ذلك « المسرح المتقلص للعقلانية » الذي نجم عن انحلال مسرح راسين العقلي : لقد اختفى الابطال وغابوا ، وضاع نضال العقل نفسه في الضباب ، واعتلى الخشبة اولئك الراؤون البورجوازيون بكل مكرهم الاعمى البصيرة . ذلك هو المسرح الحقير الذي رفضه فاغنر كلياً في مصلحة عالم الهوى الليلي . وهكذا فان مسرح الواقعية الحديثة لا يزودنا بأي وسيط محدد بكل دقة ، لا يزودنا بأي عرف وطيد الاسس من اجل كشف اللثام عن الفعل الانساني ، ولذا يعتبره إليوت مضاداً للشاعرية ، مؤدياً بصورة محتومة الى « صحراء التشابه المضبوط مع الواقع الذي يدركه أتفه فكر على الاطلاق » . وفي الحقيقة اننا نشاهد هذه الصحراء في الف شكل وشكل ، وبالخاصة في تلك التقارير العديمة المعنى عن الحياة المستقاة من مختلف انحاء العالم . وانه لصحيح بكل تأكيد أن مسرح الواقعية الحديثة لا يزود الكاتب المأسوي بأي وسيط فني محدد ، بل يفرض عليه ضرورة الزعم بأنه يفتقر الى أي غرض شاعري ، بل كل مقصده هو الحقيقة بمعنى شبه علمي . ومع ذلك فقد تمكن ابسن وتشيخوف (كي لا نقول شيئاً عن كتاب آخرين دونهم موهبة) أن يسبغا نوعاً من الشاعرية المسرحية على هذا المسرح الضيق . وانها لشاعرية خفية ، « شاعرية المسرح » حسب تعبير كوكتو وليست شاعرية الكلمات ، وتعتمد بالدرجة الاولى على فن التشخيص ، بحيث لا يمكن أن تشاهد الا اثناء التمثيل او بواسطة تخيل التمثيل . وان هذه الرابطة الوثيقة للواقعية الحديثة بالتشخيص هي ما يعتبره هنري جيمس دليلا اكيداً على حيويتها ، على النقيض من اليوت الذي يعتبرها نقطة ضعف هامة .

ان أبسن وتشيخوف يحددان الفعل الذي يريدان محاكاته بواسطة عقدة المسرحية ، وهما يحققان ذلك وفقاً للمبدأ الارسطوطالي : ليس بواسطة تسلسل للأحداث ، بل بواسطة حركة للنفس ، وليس لسلوك أحد الأشخاص ، بل لسلوك أعم يشترك فيه الجميع ، ولا تفعل الشخصيات المفردة وعلاقاتها سوى الرمز اليه . وهكذا فان كليهما يقبلان الواقع الحرفي ويتساميان عليه ، وبذلك يحققان النصر على قيود المسرح الواقعي الحديث . لقد كانت المشكلة الاساسية التي واجهاها هي مشكلة فاغنر عينها : ان المشهد المقبول عموماً للحياة الانسانية هو مشهد البورجوازية المرائية باخلاقها المتصلبة واشكالها الاجتماعية ، وكل ما تبقى من وهم التجربة الانسانية . لكن ستراتيجيتهما كانت نقيض ستراتيجية فاغنر ، اذ قبلا بهذه المنطقة الضيقة كميدان قتال وعمدا الى حشر رؤياهما الاوسع فيها . واذا نجحا في ذلك ، فبعدما كابدا الفشل مرات عديدة ؛ وقد كان نجاحهما محدوداً على اية حال .

ومهما يكن من امر ، فان مسرح الواقعية الحديثة ، وبالخاصة في مسرحيتي **الاشباح** **وبستان الكرز** يزعم التجرد عن الفن كي يكون الحياة نفسها .

ومثلما يناضل إبسن كي يصور رؤياه الشعرية ضمن نطاق المسرح الضيق للواقعية الحديثة ،

كذلك تناضل بطلته السيدة ألفينغ كي تحقق شعورها بالحياة الانسانية في الصورة الفوتوغرافية البيضاء لردهتها الخانقة للأنفاس . ولا تكتشف هناك اية وسائل ، او امكانيات ، او غذاء روحي ، الامر الذي يشكل المأساة المبتورة الكامنة الموضوعة المتوحشة المسرحية . بيد انها تعثر على ولدها ، اوسوالد ، فتجعل منـــه رمزاً لكل ما تبحث عنـــه : الحرية ، والبراءة ، والفرح ، والحقيقـة ، لكن اوسوالد ليس مجرد رمز من اجل والدته ، بل هو شخص قائم بذاته ، ويملك طموحه الخاص الى الحرية والانطلاق ، كما يملك نصيبه غير العادي في ميراث ألفينغ . وانه رمز كذلك بالنسبة الى القس ماندرز ، رمز ما يطلبه من ملكية ألفينـــغ ، ألا وهو ثبات الأعراف البورجوازية واستمرارها ، ان اوسوالد هو الواقع الخفي في المسرحية بأسرها ، مثل وضع اوديب الفعلي كابن وزوج في وقت واحد : انه القدر الخفي الذي ينكشف خلال سلسلة من الخطوات الفاجعة والساخرة معاً ، فيؤدي الى خاتمة الفعل كله .

لقد كانت السيدة ألفينغ تعتقد أنها على حق في سعيها الى الحرية ، وان ثورتها ما يبررها ، وانها توشك ان تحقق تحرر اوسوالد ، وبالتـــالي تحررها الخاص ، من أشباح الماضي ، لكن علاقة اوسوالد بريجينا تكشف لها بصورة مباغتة عن الحقيقة القاتلة ، ألا وهي ان ولدهـا لن يجلب الحرية لها ، بل هو مجرد حياة الماضي المشؤومة ، الطافية ، المستمرة . وهكذا تكابد انهيـــار الكيان الاخلاقي الذي بنته على عودة ولدها . بيد أنها تتحمل الطعنة بكل شجاعة وإيمان ، وتنال جزاءها في بصيرتها العميقة : « أني أميل حتى درجة ما الى الاعتقاد بأننا اشباح جميعـــا ياسيد ماندرز ، فليس ماورثناه عن آبائنا وأمهاتنا هو وحده ما يعيش فينا من جديد ، بل مختلف أصناف الافـكار الميتة ومختلف أنواع المعتقدات الميتة ، وأشياء اخرى من هـذا القبيل . وهي ليست حية فعلياً فينا ، لكنها كامنة على أية حال ، ولا يمكننــــا الخلاص منها قط . وأيان تناولت صحيفة وقرأتها ، توهمت اني أرى أشباحاً تزحف بين السطور . لابد ان هناك اشباحاً في كل أنحاء العالم ، ولابد انها لا تحصى مثل حبـــات الرمل فيما يخيل الي ، واننا لنخاف بصورة بائسة جداً من النور ، نحن جميعاً . » ان هذا المقطع لايملك شاعرية الشعراء المأسويين الكبار ، لكنه يملك شاعريته الخفية الخاصـــة ، وليست هي شاعرية الـكلمات بـــل شاعرية المسرح ، ان شاعرية الأشبـــاح تقوم خلـــف الـكلمات ، في تفاصيل الفعل ، حيث أحس إبسن على خير وجه بالنسق المأسوي للحياة الانسانية في الف صورة صغيرة . وان « حركات النفس » الصغيرة هذه تتركب في نسق معقد مثل الموسيقى وتستمر حتى النهاية . بيد ان الفعل لايكتمل ، اذ تترك السيدة ألفينغ ناشجة تحت وطأة الـكارثة ، ان الموسيقى تنقطع ، وقبول الـكارثة النهائية لايتفق مع البصيرة الثاقبة التي اكتسبتها السيدة الفينغ في سياق الفعل . ولعل السبب في ذلك هو انها قد حلت ابنها من المعاني اكثر مما يطيق كائن انساني ، بحيث ان انهيار اوسوالد يثبت اشياء كـثيرة ،

لكن الارجح هو ان السبب في ذلك يقوم في فراغ هذا المجتمع البورجوازي الذي يشاهد الحياة الانسانية بعينين قصيرتي النظر ، وبأغراض غير شريفة مطلقاً ، ومهما يكن من امر فان **الاشباح** تبين لنا على افضل وجه كيف ان الحياة البورجوازية لاتكفي كي تكون مسرحاً للحياة الانسانية .

لكن امكانيات الواقعية الحديثة لاتتضح لنا الا اذا درسنا رائعة تشيخوف **بستان الكرز**، ولم يحل تشيخوف المشكلة التي واجهها ابسن في **الاشباح**، اذ لم يحاول ان يعرض علينا بحثاً يائساً مثل بحث السيدة الفينغ ، يستخدم فيه كل سلاح ممكن للفكر والارادة. ولم يكن تشيخوف يملك قوة ابسن وذهنيته . لكنه استطاع ان يقبل المسرح الواقعي بمزيد من الكمال ، وان يستخدمه بمقدرة اعظم من اجل اغراضه الفنية .

وما اكثر ما اتهمت **بستان الكرز** ، بأنها خالية من اية عقدة على الاطلاق ، وهذا صحيح ، اذ لايحدث شيء فيها على حد تعبير بعض النقاد على اية حال ، فقد انتقيت الحوادث فيها ورتبت كي تحدد فعلا معينا بأسلوب معين ، له بداية ، ووسط ، وخاتمة في الزمان . وان حريتها في الترتيب الآلي الموضوعة او الحبكة الدلالة على كمال فن تشيخوف الواقعي .

ان **بستان الكرز** قصيدة مسرحية عن تألم التبدل ، وهذا الاسلوب في الفعل قريب جداً من الأساس التشككي للواقعية الحديثة . ان العائلة التي تملك بستان الكرز والملكية التابعة له – ليوبوفا واخاها غاييف وابنتيها فاريا وآنيا – تقف على شفا الافلاس ، والمسألة هي كيف يمكن منع مأموري الحجز من بيع الملكية من اجل دفع الديون المترتبة عليها . ويقترح لوباخين ، الذي كانت عائلته رقيقاً في الملكية من قبل والذي اصبح اليوم رجل اعمال مزدهر الاحوال ، مشروعاً معقولا جداً ، الا وهو اقتطاع اشجار البستان ، وتقسيم الملكية الى حصص صغيرة وبيعها بحيث تصبح ضاحية سكنية المدينة الصناعية النامية في جوارها ، وهكذا فلن يحافظ على قيمة الملكية النقدية فحسب ، بل ستزداد في الوقت نفسه . بيد ان ذلك لن ينقذ ما تعتبره ليوبوفا واخوها ذا قيمة في الملكية العتيقة ، فهما لا يقبلان بدمار البستان . بيد أنهما عاجزان في الوقت نفسه عن ايجاد او استدانة او كسب المال اللازم من اجل دفع ديونهما ، وحين يحين الاجل تباع الملكية بالمزاد العلني للوباخين نفسه الذي سيحقق صفقة رابحة بواسطتها ويروح رجاله يقطعون اشجار البستان حتى قبل ان تغادر العائلة البيت .

ان سائر اشخاص المسرحية يعانون الألم بسبب زوال الملكية ، لكن باشكال مختلفة ، ان كلا منهم يجد في بستان الكرز قيمة معينة – اقتصادية او عاطفية او اجتماعية او ثقافية ، ويريد « ان ينقذ هذا البستان » ، وان فعل المسرحية كامل رغما عن « عاطفيته » ، فالفصل الأول مقدمة تشاهد الملكية خلاله في سائر معانيها

الممكنة ، ونلاحظ في الفصل الثاني القيم المتنازعة لسائر الاشخاص ، والمساعي التي يبذلونها (خارج المسرح) كي ينقذ كل واحد منهم « بستانه » . ويقابل الفصل الثالث الشكل المأسوي التقليدي للفعل ، ومناسبته بيع الملكية لكن الفصل الرابع هو ختام المأساة ، اذ تغادر الاسرة الملكية . لقد اغلقت النوافذ وسمرت بالألواح الخشبية ، وتكدس الأثاث في الزوايا ، وحزمت الأمتعة . وان سائر الاشخاص ليحسون ، والمشاهدون يرون ذلك بألف طريقة – ان الارادة في انقاذ الملكية قد ادت الى دمارها ، وان تلاقي المقيمين فيها قد ادى الى انفصالهم ، وان الترحيب انتهى الى الوداع . ولا يقال لنا ما هو « المقصود » من ذلك ، بيد أن الفعل اكتمل ، وقصيدة ألم التبدل قد اختتمت بادراك جديد حاسم ، وبسحابة ترقص الشعور ، ان مظاهر اساسية من الوضع الانساني قد كشفت لأعيننا .

ان ابسن يعرض علينا سبباً يائساً من اجل المبررات ومن اجل القيم الاخلاقية النهائية والمفهومة ، لكنه لا يستطيع في نهاية الفصل ان يحقق لنا ادراكا مقبولا . لكن الامر على خلاف ذلك عند تشيخوف الذي يرى ان الامور العاطفية هي اقرب الى حقيقة الوضع الانساني ، ان **الاشباح** مسرحية قتالية ، ملحة بالذهن العقلاني ، وتختفي شاعريتها خلف مبرراتها . لكن **بستان الكرز** شاعرية كلها ، ولا شيء غير الشاعرية في اوسع معانيها ، ولذا كان تشيخوف مكشوفاً على المسرح المعاصر : انه لايناقش ، بل لا يفعل سوى عرض الحقائق علينا . وبالرغم من ان مشاهديه يتأثرون في ختام المسرحية ، فانهم يخرجون وهم حائرون في تفسير مقاصد المؤلف .

ومهما يكن من امر ، فلعل تشيخوف يكشف لنا المقام عن اشياء كثيرة لانه لايتحدث الا قليلا ، فيزودنا هكذا باساس حسي من اجل الجهود المتنازعة المستهدفة اخضاع التبدل الاجتماعي المعاصر لمتطلبات العقل . وحين رضي تشيخوف بما في الواقعية الحديثة من لصوق بالواقع وامتناع عن الادراك ، فقد تجاوز بطريقة ما نقائصها ، وهيأ الطريق امام التطورات اللاحقة في المسرح الحديث ، حيث يقبل افضل المؤلفين المسرح بوصفه « مسرحاً » بالضبط ، محاولين هكذا الافلات من ربقة نقائصه وضيق حدوده .

النزعة المسرحية عند شو وبرانديللو

ما اكثر ما قيل ان الواقعية الحديثة تؤمن بعرف الحوار الرابع ، اذ يزعم المشاهدون انهم غير حاضرين الا خلف جدار الردهة الرابع غير المنظور ، هذا الجدار الذي يمثله المسرح بصورة مناسبة ، وذلك زعم تصعب المحافظة عليه ، ولذا ازدهرت اشكال مسرحية تقبل بحضور المشاهدين في المسرح ، كالأوبرا ، والباليه ، وبالخاصة الملهاة .

وان الملهاة في كل العصور تفترض وجود المشاهدين ، فلا يمكنها ان تزعم الانتساب الى واقعية ابسن وتشيخوف الحديثة الصارمة ،

وصحيح ان تشيخوف يكشف بعض المظاهر الهزلية وينتظر الضحك من قبل المتفرجين ، لكن عرقه لايعترف بالعلاقة بين المسرح والمنزل بل ان الحقيقة الواقعـــة تظل عنده لا مسرحية وغير مرتبة . لكن الاشكال الهزلية تقبل نوعاً من المنظور المحدود تتقاسمه مع الجمهور كأساس للهزل ، وهي تظهر الحياة الانسانية مضحكة لان عنصراً من اللاوقمية يشترك فيها .

وذلك هو اتجاه شو في المسرح ، اذ هو يمثل للجمهور الجالس في الصالة في المحل الأول ، وان لم يميز بادىء الأمر اغراضه عن واقعية ابسن. لكن شو عاش عصراً بعد عصر ، وظل فكره نشيطاً وفعالا أبداً ، بحيث تطور مسرحه مع الأيام مع تطور اشكال الواقعية الحديثة .

لكن شو لا يستطيع في نهاية الأمر الا أن يعظ قليلاً . وهذا هو يصف لنا شخصياته على لسان أحد ابطاله : « ان شيئاً وهمياً يرين عليهم ، شيئاً ملتوياً ولا واقعياً ، شيئاً يرسل النقمة عميقاً في النفس . انهـــم أسخف من ان تؤمن بهم ، ومع ذلك فليسوا م من صنع الخيال ، بل ان الصحف ملأى بهم . » هؤلاء صور عن عالم في طريق التفسخ والانحلال ، عالم يجب انقاذه . ولذا لايستطيع شو ان يلوذ بالصمت . وهذا بطله يسترسل : « وفي هـــذه الاثناء تتملكني موهبتي . يجب ان اعظ واعظ مهما كان الوقت متأخراً ومهما كان النهار قصيراً ، وحتى اذا كنت لا املك ما اقول . » ذلـــك هو صوت شو ، عبقري المجون ، الذي أدرك اخيراً قاعدته الحقيقية . أما شو الاخلاقي ، اللائذ في آخر المسرح ، فانه يقول الكلمة الاخيرة : « لكن الكلمات الرائعة لا تجدي فتيلا . ان المؤلف لا يؤمن ، بالرغم من انه صانع محترف للكلام ، بأن في المقدور انقاذ العالم بالكلام وحده » .

ولقد كان شو ، بوصفه فناناً مسرحياً ، يتحسس شيئاً لم يكن بد من بيرانديللو في سبيل تحقيقه ، ألا وهو تجديد ذلك السحر القديم الذي كان للمسرح ، يعني لتينك « الخشبتين والهوى » التي تسلط عليها الاضواء أمام ابصار النظارة ، ان الكائن الانساني يؤخذ ، في المسرحيـــين ، وهو يتمنطق في الفراغ ، لكن بيرانديللو الذي كان عالك رزانة الفنان وصرامته يصور لنا هذه الرؤيا المجونية الرهيبة بغائيـــة واضحة وشكل مسرحي متكامل . وان دراسة هـــذا الكاتب لتمكننا ان نرى كيف انبثقت الفكرة المعاصرة عن المسرح من واقعيـــة القرن التاسع عشر ورومانطيكيته وتسامت عليها .

شاعرية المسرح

ان الجهود الرئيسية المبذولة في ايامنا من أجل تحقيق شاعرية المسرح مماثلة للروائع القديمة قد تمركزت في باريس خـــلال العشرينيات والثلاثينيات في هذا القرن حيث بلغ المسرح « القمة » . ولقد كانت تلك الجهود متواقتة مع فكر برغون وفاليري وماريفان ، ومع مخاضات جويس « فوق الشعرية » ومـــع لوحات بيكاسو ، وموسيقى سترافنسكي وميلو ، وكان تحت تصرفها موارد الباليـــه الروسية والسويدية ، وذلك التقليد المسرحي الفرنسي

الذي لاينقطع مطلقاً . واذا كان النشاط المسرحي قد تمركز في باريس ، فقد اسهم فيه فنانون من مختلف انحاء العالم : اليوت، ولوركا ، وييتس... انهم جميعاً ينتسبون الى تلك الحركة التي يشكل البحث عن شاعرية حديثة للمسرح مضمونها .

فكوكتو يستخدم ، في **الآلة الجهنمية** خشبة المسرح البيرانديللية ، يعني خشبة المسرح بوصفها وسيطاً فنيـاً كذلك الذي يستخدمه الرسام او الموسيقي . وهكذا يجد كوكتو طريقه الى بعض العادات الذهنية الخاصة بالمسرح الباروكي : ان رأسين في عظامه . لكنه يحاول في الوقت نفسه ان يتجاوز بيرانديللو والمسرح الباروكي على حد سواء ، وذلك حين يعرض لنا بصورة حديثة اسطورة قد اصبحت قديمة منذ القرن السابع عشر ، وهي اسطورة اوديب الملك ، اسطورة« احدى تلك الآلات الاكثر كمالا واحكاماً ، التي تنصبها الآلهة الجهنمية من اجل سحق كائن انساني سحقاً رياضياً . »

ان الستراتيجية المسرحية التي يستخدمهـا كوكتوكي يصل الاسطورة بالحياة المعاصرة مماثلة لستراتيجية جويس في **اوليس** . ان الحياة العصرية ، بكل وضوحها المعرى ومكرهـا الحقير ، تحتل المقدمة ، في حين ترين الحقيقة المغايرة الخاصة بالعالم الاسطوري في الظلمة المحيطة وان الترتيب المتطور للمسرح يكشف عن هذا المشهد الذي يجري ضمـن المشهد ، اذ ان كل ما يجري على الخشبة المضاءة في مركز المسرح ينتمي الى الحياة المعاصرة ، فكأنه مأخوذ من الصحف ، في حين تعمل الآلة الجهنمية على مهلها خلف « الستائر الليلية » . ان مدينة طيبة التي نتعرف اليها في الفصل الاول من خلال ثرثرة الجنود ، بمقاهيها النابضـة بالموسيقى الشعبية ، وجوها الخانق ، واسمارها الفاحشة ، وما يدور فيها من الحديث عن خطر الحرب او الثورة ، يمكن ان تكون اي مدينة حديثة في البلقان او حوض البحر الابيض المتوسـط . وتلك هي حال الاشخاص ايضاً : فجوكاستا في البيت ترزح بالاوهام التي يمكن ان تعاني المرأة منها في اي عصر ، لكنها يمكن ان تقارن خارج المنزل بأي نجمة حديثة من نجوم المقاهي. اما اوديب الشاب فيمكن ان يكون ، اذ يستجوب الوحش في صبر نافد ، احـد ابطال سباق الدراجات ، او ذلك السياسي الطموح الذي يرتقي الى المجد في سرعة فائقة بفضل تثبيت النقد المتدهور لبرهة من الزمان .

ان الأحداث الجارية في مقدمة المسرح يمكن ان تكون قصة اي تمثيلية مما يسمى اصطلاحاً المسرح التجاري . لكن **شاعرية المسرح** التي يطلبها كوكتو هي موضوع المشهد الجاري خلف المشهد الحرفي ، وموضوع العقدة الكامنة خلف المكيدة المسرحية الظاهرة .

ولقد كانت المشكلة بالنسبة الى كوكتو هي الخلاص من فاغنر الذي كان « موكبه الجنائزي الطويل يمنعـه من عبور الطريق في سبيله الى داره » . انه لايستهدف أن يسحر النظارة ويسيطر عليهم ، بل ان يلتقي معهم على شروطه المحدودة الخاصة ، فيقدم لهم على هـذا الاساس

رؤياه وفنه. انه يعارض ديانـة فاغنر الفنية «بشعر يصلح لكل الايام»، بفن يأخذ مكانه الى جانب الحس العام للحياة اليومية دون أن ينكرها او يزيحها. ووفقاً لذلك، فانه يجد خلف الآلية العديمة المعنى، لكن المفهومة، للذات واساليب الحياة المعاصرة، آلة «الآلهة» الاسطوريين، وهي آلة أبعـد متناولاً عن الفهم، لكنها اعمق مغزى، وان آلة الآلهة وآلية العقلانية الانسانية تتشابهان، «والتشابه قوة موضوعية تصمد لسائر التحويلات الذاتية».

وانه ليمكن ان يقال عن مسرحية كوكتو انها انتهت قبل أن تبدأ: ان حقيقتها الاخيرة تقوم في تلك الآلة الآلهية الجهنمية، في الاشخاص باعتبارهم خاضعين لقـدر فاجع، وفي التماسك الرائع للاسطورة – وليس في الاحداث العمياء لحياة اوديب وجوكاست اليوميـة، او في الادوار التي يلعبانها كابن او زوج او والدة. وهكذا ينكشف اوديب لنـا بصورة رائعة مدهشة، مثل احد ابطال كورني او راسين في «المجد» الازلي للفن والعقل من جهة، وفي وضوح خشبة المسرح من جهة اخرى، كما هي حال ابطال بيرانديللو. ولعل مضمون التمثيلية كلها يقوم في هذه الكلمات التي يلقيها علينا صوت كوكتو في مطلع الفصل الاخير: «ان الملك سيعرف، بعد السعادة الكاذبة، الشقاء الحقيقي التكريس الحقيقي الذي سيجعل من هذا الملك الخاص بورق اللعب بين ايدي الآلة الرهيبة انساناً أخيراً».

وتعرض تمثيلية آندريه اوبي **نوح** اسطورة قديمة اخرى على المسرح الذي تقبله على علاته ايضا، دون اوهام ودون الاعيب، لكن فن اوبي يختلف عن فن كوكتو، اذ هو يريد ان يظهر قصة نوح وكأنها حقيقية حرفيا، وبالتالي فكأن كل العالم الاسطوري للعهد القديم «بالهه المختبىء لكن الحاضر في كل مكان» هو حقيقي بالطريقة نفسها.

ان كوكتو يلاقي نظارته حيث يحيون، ويقبل الذهن المعاصر كلياً، ويأمل ان يتمكن «الناس، والشعراء، وانقياء القلب» – ان كانوا موجودين – من الاحسـاس بواقعية الاسطورة ايضا حيث يلمح اليها خلف المظاهر المتـألقة للتمثيلية. لكن اوبي يعمد الى استراتيجية جريئة مغايرة، فيتغاضى عن سفسطة الجادات العامة، ويتوجه الى النظارة مباشرة بوصفهم أناساً وشعراء، وانقياء القلب بصورة متصنعة على الاقل، وبذلك يفتح المسرح المعاصر امام حكمة التقليد القديم.

وان تمثيلية إليوت **جريمة في الكاتدرائية** لتدين بالشيء الكثير الى اعمال المسرح الشاعري القاري الذي يمثله بيرانديللو وكوكتو وأوبي انها قريبة جـداً، من الناحية الفنية، من **الآلة الجهنمية**، لكنها تستند على فكرة مغـايرة عن المسرح، اذ هي تمى الى اساس مختلف، واكثر جذرية، في الحقيقة الواقعة. ان **جريمة في الكاتدرائية** برهان عـلى «الحق» في الاستشهاد الديني، ومن وراء

ذلك على العقيدة الحقة للحياة الانسانية بصورة عامة – اي الدين القويم . وهكذا فهي لاهوت ، او اثر ذهني ، على خلاف التمثيليات القارية .

ان **الآلة الجهنمية** و**نوح** تمثلان اسطورتين لكن **جريمة في الكاتدرائية** تمثل (بواسطة قصة توماس بيكيت) نمطاً من **الاسطورة** ، وهي الاسطورة المركزية والاساسية للحضارة بأسرها . وقد تنطبق عبارة **شاعرية المسرح** على التمثيليات القارية ، لكنها لاتنطبق على تمثيلية إليوت رغماً عن اتقانها المسرحي . فليس اليوت هنا شاعراً مسرحياً بقدر ماهو لاهوتي يستخدم خشبة المسرح لأغراضه الدينية الخاصة . وقد لايكون مكانها كانتربوري عام ١٩٣٥ (حيث مثلت للمرة الاولى) ولا كانتربوري عام ١١٧٠ (حين استشهد توماس بيكيت في سبيل مجد الكنيسة) ، بل مخططاً يشملها معاً ، ونظاماً اجتماعياً كذلك الذي تعكسه المأساة السوفوكلية ، أي نظاماً مثلث الأجزاء يتألف من الشعب ، والافراد اصحاب المسؤولية في الدولة والكنيسة ، وراعي القطيع المسؤول عن الديانة القبلية . وهكذا فليس الاشخاص المسرحيون افراداً حقيقيين بقدر ماهم ادوار في حياة الجماعية المصورة . انهم رمز لأفكار اكثر منهم بشراً احياء .

وتتميز **جريمة في الكاتدرائية** ايضاً بأنها التمثيلية المعاصرة الوحيدة التي تشكل الجوقة فيها جزءاً اساسياً في المخطط المأسوي . والجوقة تلعب هنا دوراً مماثلاً من وجوه عديدة لدور الجوقة السوفوكلية ، اي انها تعبر بالموسيقى والشعر التصويري ان لم يكن عن آلام توماس ، فعلى الأقل عن آلام محاكية لآلامه ، لكن على مستوى مختلف من الوعي ، وهذا ما تختلف فيه عن الجوقة السوفوكلية . وكما ان سائر اشخاص المسرحية هم قبل كل شيء تعابير تصويرية وبراهين على مفاهيم عقلانية سابقة ، ومن ثم بشر ، كذلك توجد الجوقة بادىء الامر بوصفها تعبيراً بواسطة الموسيقى والصور عن اسلوب من الألم (كما هي الحال في تريستان) ، ومن بعد فقط بوصفها « نسوة كانتربوري » .

ومهما يكن من امر ، فانه يظل في مقدورنا ان نقرأ **جريمة في الكاتدرائية** وكأنها محاكاة لذلك الفعل الانساني الذي نعرفه من الف مصدر آخر ، والذي تعبر عنه روائع المسرح الحديث ، أعني به انقسام الحياة الانسانية بفعل تدخل الفكر وحصرها نتيجة اشواق الحاسية الجشمة . ولذا فانها تحل مكانها الى جانب تمثيليتي كوكتو واوبيي . ان هذه المسرحيات الثلاث متماثلة بوصفها محاكاة للفعل الانساني ، وبوصفها محاولات لانارة الحياة الانسانية المعاصرة باضواء التقليد واذا لم يكن لنا بد من فكرة حديثة عن المسرح ، فان هذه الفكرة ستفسح بالضرورة مكاناً لتلك المسرحيات ، جنباً الى جنب مع بعض قيم الواقعية الحديثة التي يمكن لشاعرية المسرح الحديثة الاستغناء عنها .

فكرة المسرح التي لم تتحقق

ان الانطباع الذي يتركه المسرح الباريسي

في العشرينيات والثلاثينيات في هذا القرن ايشير الى حرية وترف فائقين . ولقد كان الاهتمام عظيما ليس بالمسرح وحده ، بل بسائر الفنون ، فلا بد انه كان هناك عدد كاف من الناس الذين يملكون حساسيات مصفاة من جهة ، والامكانات التقنية والمالية من اجل ارضاء تلك الحساسيات من جهة اخرى ، وذلك ليس في مجال التصوير والموسيقى والفلسفة فحسب ، بل في الاوبرا والبالية والمأساة ايضاً . وتعارض تمثيلية اليوت ، بوصفها لاهوتاً ، هذا المفهوم الباريسي عن الفن التمثيلي ، اذ يرفض المؤلف فيهـا تلك الحرية المطلقة للفنان باعتبارها رومانطيقية ووهمية لكنها ما دامت تلاقي الترحيب على مسارح هذا العالم الذي فقد الايمان ، فانها تقف جنباً الى جنب مع **الآلة الجهنمية** بوصفها دفاعـاً عن الفن « الخالص » والمنزه ، بالرغم من ان هذا المفهوم عن الفن يتقهقر يوما بعد يوم .

ان الفن الحديث لبريء من بعض التهم الموجهة اليه ظلماً . فاؤلئك الذين يزعمون انه عصي على الأفهام لم يكلفوا انفسهم عادة عناء تحصيل اي من لغاته . ان تمثيليات كوكتو واوبيي واليوت على سبيل المثال قابلة للفهم كلياً حين ننظر اليها ضمن الشروط التي اتخذتها كل منها . واول هذه الصفة بالضبط هي التي تمنحها جمالها وامتيازها . ولا تنالهـا كذلك تهمة « البرج العاجي » ، هذه التهمة التي يقصد منها عادة ان الفن الحديث معزول عن التجربـة المعاصرة . انه معزول ، مثله في ذلك مثل العلم الحديث واللاهوت الحديث او النظرية السياسية الحديثة ، عن اي مجال مشترك للوعي العام — وهذا ما يدل على اننا نفتقر الى مثل ذلك المجال لكن حرية الفن الحديث هي على وجه الدقة حرية التجاوب المباشر ، ودون سابق تصميم ، تلقاء مختلف التجارب الانسانية . وهل نجـد اسلوبا للفعل او الوعي لم يرض به احد الفنانين المحدثين ، في جرأة او التواء ، ويثبته في شكل هو بحد ذاته جميل ومرض ؟ ان لآلهة الشعر شهرة سيئة ، لكنها تمكنت ان تقيم مأوى لها في كل ساحة خربـة تلقاها في الطريق الى الفوضى ، وان تزودنا بشيء من البهجة بفضل بعض التعاون من عبادها .

واذا لم يعد مفهوم الفن مرضياً ، فليس ذلك بسبب افتقارنا الى الفن ، بل لأن الفن لا يزودنا حين نفهمه بصورة تجريدية ونمارسه بكل حرية بما نطلبه منه بصورة غريزية . ان الانتصارات الفنية المدرسة الباريسية لا تنجز المهمة التي حققتها مآسي سوفوكليس وشكسبير ، واعراضها غير محـددة بالقياس الى اي فكرة مركزية عن المسرح ، بحيث تبين لنا ان حدتها وكمالها الفنيين قد تم اكتسابها لقاء ثمن فاحش جداً .

لقد كان مسرح الواقعية الحديثة هو المسرح الحي الأخير الذي حصلنا عليـه . فحين قبل ابسن وتشيخوف بردهة الجلوس البورجوازية ووعيها الضيق للوضع الانساني ، فقد كان في مقدورهما ان ينظرا الى تمثيلياتهما بوصفها تعكس الطبيعة كالمرآة . ان بعض المؤلفين المحدثين ليمون الى شاعرية مسرحية مبنية على الواقعية الحديثة ، لكن مشاهدهم — قاعات اجتماعات

النقابات العمالية ، والمعسكرات العسكرية ، والمطابخ البروليتارية - لا تعدو كونها صوراً نوتوغرافية هي جميعاً سواء في مغزاها : انهـا اعتباطية ، مثلها مثل الوقائع اليومية تماما ، او « صحراء الشبه المضبوط » على حد تعبير اليوت اما بالنسبة الى ابسن وتشيخوف ، فقد كانت الردهة البورجوازية ، فعليا ، بؤرة حياة الزمن وبالتالي فقد كانت ذات مغزى ، مهما كان حظ هذا المغزى من الشؤم . وكان يمكن اسباغ معنى رمزي على عناصرها المعقنة ، بحيث تتطور شاعرية مسرحية خفية في ذلـك المشهد الصغير الضيق . ولقدشاهدنا في اعمال شو وبيراندللو كيف فقدت الردهة البورجوازية معناها ، الأمر الذي عبد الطريق امام المأساة الشعرية الحديثة لكن شـاعرية المسرح التي تحررت من قيود الواقعية الحديثة قد فقدت مكانها في المجتمع الفعلي ولم تعد مرآة للطبيعة الانسانية ، او مرآة مشوهة في احسن الأحوال .

وليست تلك خطيئة المؤلفـين الذين بذلوا قصاراهم ليعرضوا رؤاهم على الرأي العام . لكن الامور اصبحت بالغة التعقيد في عصرنا ، والفارق عظيم بينايام ارسطو وايامنا . وهذا ما يعبر عنه احـد المتحدثين في كتاب اليوت **حوار الشعر المسرحي** : « لم يكن ارسطو مضطراً الى الاهتمام بعلاقة المأساةبالدين، او بأخلاقية الهيلينيين التقليدية ، او بعلاقة الفن بالسياسة ، كما لم يكن مضطراً للصراع مع علم الجمال الالماني او الايطالي ، او قراءة المؤلفات الهامة لهذا الفيلسوف او ذاك ، او يغضن جبينه في دراسة التوداوالفيداء او ان يأخذ المسرح من وجهة نظر الربح المادي . » وهذا حق ، لأنه ليس في مقدورنا ان نتهرب من اسئلة لاجواب عليها ، اسئلة لم يضطر ارسطو الى طرحها . ان تحليل فن المأساة يقود الى فكرة عن المسرح تمنحه تكريسها ، وتمنحه حياته الفعلية في زمانه ومكانه . وحين تكون فكرة المسرح ناقصة او معدومة ، فانه لا يتبقى امامنا سوى التأمل في مأزق الحضارة كلها وما لم نتوصل الى فهم القوة المفسدة للصناعة الحديثة في نطاق منظور محدد ، فكيف يمكننا ان نشاهد في الحياة الانسانية نفسها شيئاً آخر سوى مجرد انتاج ثانوي (قابل او غير قابل للتسويق ، ورأسمالي أوبروليتاري) لآلات هذه الصناعة المتطورة والمتدهورة ؟ وما لم نتوصل الى تقدير العناصر الثقافية المركبةالبوتقتناوفهمها والاعتراف بها في نطاق جملة معينة من العلاقات ، فكيف يمكننا الحصول على منظور عن اي شيء كان ؟ ومن اين لنا اذن أن نأمـل في ان يكون المسرح وسيطاً للاتصال فيما بيننا ؟ .

ان المسائل الخاصـة بشأن مسرح الحياة الانسانية في زماننا ، ومأساة العالم الحديث ، هي مسائل متداخـلة ، نظرية وعملية في وقت

واحد ، وبالتالي لا جواب عليها . اننا لا نملك مسرحاً بالمعنى الكلاسيكي للكلمة ، ولا نرى كيف يمكن ان يكون لنا مثل هذا المسرح . لكننا نستطيع ان ندرس مع ذلك المعالم الثقافية – مآسي سوفوكليس وشكسبير ، **والملهاة الالهية** – حيث تحققت فكرة المسرح بكل اقتضاب . وهكذا يمكننا ان نفهم وان نقدر المناظير الجزئية التي لدينا ، وان نجمع الأجزاء المبعثرة ، محاولين الاحتفاظ بالفكرة حية في ضوء المقارنات المغرية والموحية ، مهما تكن قابلة للضلال في الوقت نفسه .

تصحيح خطأ في العدد ٣٣

سقط سهواً من مقال الاب صليبا شمعون المنشور في العدد ٣٣ من مجلة المعرفة . بعض الكلمات مما بدل المعنى قليلا .

فيرجى قراءة المقطع الثاني من الصفحة ٣١ على الشكل الآتي : « ومما ضاعف مكانته في القلوب اخلاصه للعلم وتنزهه عن المادة . فكان يقصده الطلاب من كل حدب وصوب ويتألبون حوله للسماع اليه ولاستجزال فوائده . فينثر عليهم درره الغوالي مجانا . ولشد كرهه المادة وللذين يتخذون العلم ذريعة للوصول اليها ، ينحي باللائمة على احد معاصريه يدعى يعقوب الدمشقي الذي كان اذا قصده طالب يدرس عليه أو يستعيرمنه كتابا يشاطره قبل ان يفعل ، فيقول عنه الفيلسوف ان هذه خساسة مباينة للانفس الفاضلة » .

مع الاستاذ
مصطفى عبد اللطيف السحرتي

القاهرة
من « ابو طالب زيان »

لا أغالي اذا قلت : ان الاستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي ، اول من حمل رسالة الفكر ، ونزاهة القلم ، وقدر شرف الكلمة وخطرها وأثرها في التوجيه : العقلي والقومي والانساني.

والذين يعرفون السحرتي ، منذ اربعين عاماً ، يُعنى بحركة النقد ، ويكتب العديد من الفصول النقدية في مجلات : السياسة الاسبوعية ، والبلاغ الاسبوعي ، وابولو ، والامام ، وأدبي ، والمقتطف ، والاديب ، والآداب ، والاديب المصري ، والعرفان ، والمجلة ، والرسالة ، والثقافة ، لايفتأون يعاودون النظر في توجيهاته السليمة التي وضعها في «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » و « شعر اليوم » و « شعراء مجددون » و « الفن الادبي » و « أدب الطبيعة » و « أزهار الذكرى » و « ايديولوجية غربية جديدة » و « شعراء معاصرون » و « النقد الادبي من خلال تجاربي » وهو الكتاب الذي ثارت من حوله العواصف بما حمل من آراء جريئة ، وتوجيهات نحن بحاجة اليها في هذا العصر الحديث ..

على أن السحرتي ، الذي يتوارى خجلاً من المدح والاشادة ، ويختفي في مواطن الظهور ،

هو اول من شرع للنقد مناهج جديدة ، ووضع أسساً ، هي النبراس الذي يسير عليه الناقدون في شتى اقطار العروبة ، بما كتب ، ووجه ، وحاضر في اكثر من ناد ومعهد وجامعة .

والسحرتي في هذا الحديث ، يكشف النقاب عن بعض الهنات ، ويمسح بيده الجراح التي ظهرت ندوبها هنا وهناك في عالم الادب ، ودنيا البيان ، غير عابيء بالمجاملات ، او سائر وراء البرق الخلب الذي يخطف الابصار .

ولقد توجهت الى هذا الناقد بأكثر من هذه الاسئلة ، الا أن تركيزه في الاجابة على ما وجهت اليه ، جعلني أقنع ببعضها ، ولعل مافيها يغني عن كثير ..

(ابو طالب زيان)

● يلاحظ كثير من النقاد ، أنك تعنى العناية كلها بالدفاع عن الأدب الحديث وبخاصة شعر اليوم ، الذي أفردت له كتاباً ، فهل لك رأي أو اتجاه في هذا ؟

— حقاً ؛ ان النطاق الذي جرى فيه قلمي ، هو الادب المعاصر ، لأني أومن بالقيمة الحاضرة ، ولا أنظر الى الماضي والى ادبه ، الا بقدر ما يربطنا الماضي بالحاضر ، والذين يعيشون على ادب الماضي ، يعيشون في رأيي على اكفان الموتى . والذين يختارون الانغماس في ادب الماضي ، يختارون مجالا سهلاً ، بعكس الذين ينظرون في ادب العصر وفي مشكلاته ، فانهم يضطرون الى التفكير ، ويواجهون مسئولية التوجيه والارشاد وحل المعضلات . وأنا بطبعي احب المغامرة ، وفي مراجعة الادب المعاصر ونقده في فنونه المختلفة مغامرات جديدة .

● من المعروف ، أنك بدأت حياتك بالاشتغال بالصحافة الأدبية ، فهل لها سيطرة عليك حتى اليوم ، أم أنها مؤقتة ؟

— لم اعمل بالصحافة الادبية في يوم من الايام بالمعنى الذي يفهم من الصحافة الادبية . فقد كنت محباً للأدب ، وهاوياً له طول حياتي . فكتبت وأنا اشتغل بالمحاماة عدة مقالات ادبية بجريدة : « السياسة الاسبوعية » يدور اغلبها حول تراجم الشخصيات الادبية : شرقية او غربية ، وكان ذلك من عام ١٩٢٧ الى عام ١٩٣٤ وفي نهاية هذا العام الاخير ، اتفقت مع المرحوم الصديق : الدكتور احمد زكي ابو شادي ، على اعادة اخراج مجلة : « الامام » التي كان يصدرها والده المحامي الكبير : محمد ابوشادي ، وكانت كل مقالاتي ، او خواطري فيها ، ادبية بحتة . وقد كان بعض شباب « ابولو » يكتبون في هذه المجلة ، وكان يحلو لهم اللواذ بالمداعبات والمناوشات الصحافية ، ومن ذلك : ما كانوا يثيرونه من مناوشات مع الاستاذ العقاد ليست من الموضوعية في شيء ، فلم يطب لي هذا اللون ، وطلبت اليهم ان يكونوا موضوعيين وأردت أن أضع مثالا لهم بنقد كتاب : « ابن الرومي »

للعقاد ، وكتبت على ما اذكر مقالين في عرض مافي هذا الكتاب القيم وتقديره وتقويمه .

وبعد أن توقفت مجلة « الامام » في عـــام ١٩٣٧ بسبب بعض المقالات الحرة التي كان يكتبها المرحوم اسمـــاعيل ادهم ، والمرحوم سلامة موسى ، وثورة بعض رجال الازهر على بعض مقالاتها ، طلبت الى الدكتور ابي شادي ايقافها ابتعاداً عن المماحكات ، فلم يستطع الا تلبية طلبي . وهذه هي الفترة القصيرة التي رأست فيها هـــذه المجلة ، وسرت في طريق الادب ، هاوياً الى اليوم .

● في أكثر من كتاب لك ، يلاحظ نزوعك الى معالجة الموضوع عـــلى أساس علمي مطعم بالنظرات الأدبيـة التي تشيـع في الجوانب التي يتناولها البحث ، فما تعليل هـــذه الظاهرة ؟

– أحب ان اصرح لك ، بأني لاأميل الى ماتسميه بالاساس العلمي ، فان مزج كلمة العلم بالادب او النقد لاتطيب لي .

والحق ، اني في كتابتي الادبية او النقدية ، اميل الى الموضوعية ، والى الارتكاز عـــلى الحقائق ، والى الايجابية ، وذلك بسبب قراءاتي القانونية واشتغالي بالمحاماة التي علمتني البحث عن الحقائق ، والفحص عنها ، فاذا سميت هذا النزوع اساسا للمعرفة العلمية ، فلك ان تعبر كما تشاء ، ولكن الحقيقة اني لااصدر في اعمالي الا عن روح ادبية محضة ، ولااحب مايسميه الاكاديميون بالعلمية .

● لاشك انك اطلعت على الادب الغربي ، فهل لاحظت بعد هذه السنين تحولا في ثقافتك العربية . وهل يجب على الاديب ان ينهل من الثقافتين ، او ان يطعم ثقافته العربية بثقافـــة او بأخرى ، حتى يصل الى ماوصل اليه الكتاب العالميون ؟

– كان جيلنا منغمسا في الاطـــلاع على الثقافتين : الفرنسية والانجليزية . وقد تأثرت بهما كل التأثر : تأثرت بالثقافة الفرنسية في دراستي للحركة الرومانسية ، قبل وبعد اتصالي بجماعة « ابولو » وهمت باشعار لامارتـــين وهوجو واضرابهما ، ثم تأثرت بالاحوال النقـــدية من الثقافة الانجليزية ، وظهرت آثار ذلك في كتابي : « الشعر المعاصر على ضوء النقـــد الحديث » الصادر في عام ١٩٤٨ ، واعتمدت في كثير من بحوثي على المراجع الانجليزية ، في قراءة الادب الروسي وغيره من الآداب . ومنـــذ بضع سنين وانا اشعر بأن هذه التبعية للثقافة الانجليزية ، يجب الحد منها ، ومحاولة الاستقلال عنها ، والصدور في كتاباتنا في استقلال تام ، فاني أجد بعض ادبائنـــا تكاد تضيع أصالتهم بالانغماس العميق في الثقافة الغربية ، واجـــد البعض الآخر يسبح بحمدها ويحتذيها ، ويصب نفسه في قوالبها ، وهذه ظاهرة مشجية ، بدأت

من سنين في مجاهدتها ، ليكون لنا ادب صادق مستقل نابع من انفسنا ومن بيئتنا العربية .

ومع هذا ، فلا مفر لكل كاتب واديب من ان يتزود من الثقافات الاجنبية ، لتوسيع نطاق تفكيره ، وتثقيف تعبيره بالتقنيات الجديدة . ومن رأيي :

التزود بكل مايدعمنا ، ويوائم أمزجتنا ، ويتساوق مع طبيعتنا العربية .

ولهذا لااقر دعاة الطرافة والغرابة من استجلاب مايسمونه بأدب العبث ، واللامعقول ، فهو ادب غريب عن بيئتنا وعن مزاجنا ، ولايفيد البتة تطلعاتنا الجديدة في مستقبل حضاري يقوم على التعقل والحكمة .

● هل للعقاد مدرسة أثرت في الأدب العربي ، أم أغلقت أبوابها بموت صاحبها ؟

– لم يكن العقاد مدرسة بالمعنى المعروف ، أي مذهب أدبي ومنهج ، فقد كانت له في العشرينيات آراء في الشعر ووحدة القصيدة ، أخذها عن النقاد الانجليز وسبق اليها مطران قولاً وعملاً ، كما لم يتأثر بالعقاد الا جماعة لم تقرأ الأدب الغربي ، فوجدت في مراجعاته ومطالعاته ، ضالتها ، والزاد الذي ينقصها ، فأخذت عنه ، لأنه لم يكن لها سبيل غير ذلك .

ويلاحظ أن آراء العقاد ، كان لها أثرها ونفوذها في هذه الجماعة حتى الحرب الكبرى الاولى ، وبعدها بقليل من السنين ، حيث توقف العقاد عن مواكبة الحركات التقدمية : اجتماعية كانت أو أدبية .

واذا كنا نرى اليوم جماعة من انصاره ، يشيدون بآرائه وبعبقريته ، فذلك لان ماتركه العقاد ، يعد تراثاً حياً ومهماً من تراثنا القومي.

● يقول بعض النقاد ، ان العقاد كان يؤمن برأيه ، ولا يقبل المناقشة مع صاحب رأي مخالف ، مهما يكن قدره ، معتمداً في تأييد رأيه على الحجج الدامغة مع من ينازعه . فما رأيك فيما يقولون ؟

– الحق ، اني لم أتصل بالعقاد اتصالاً مباشراً ولكني أعرف من كتاباته أنه كان لا يؤمن برأي الا بعد تفكير طويل ، فاذا آمن بشيء فلا سبيل الى رده عنه ، لاعتداده بفكره ، وذكائه الذي يشهد به الكافة . والذي يلاحظ عليه ، أنه كان عنيفاً مع من يختلف معه ، لاعتقاده ان رأيه في كل مسألة ، هو فصل الخطاب ، وذلك راجع الى مركب السمو الذي كان يكابده .

● قرأت لأدباء كثيرين ، فمن هو الكاتب العربي الذي تأصلت جذوره في ثقافتك ، وترسبت أفكاره في نفسك ؟

– لايمكن حصر ذلك في كاتب بعينه ، فان

ثقافة المرء ، هي خلاصة قراءات متنوعة ،يصعب عليه بيان جذورها وأصولها .

وكل ما يمكن قوله ، اني تأثرت في شبابي بكتابات المنفلوطي ، ثم بكتابات الدكتور طه حسين ، وكانت لآراء أحمد زكي ابو شادي ، أثر كبير في تطعيم ثقافتي وتوجيهي ، ومع هذا لم تكن ثقافة هؤلاء العربية كافية لتزويدي بما أطمح اليه ، ووجدت زادي الثقافي من الثقافة الأجنبيه .

● يقول بعض الأدباء ، انك تعمد الى التفرد بأفكار وخواطر لا يعلم عنها كثير من الادباء شيئاً الا حين نشرها ، كما فعلتم مع الشاعر ناجي وغيره ، فهل معنى هذا أنك تعيش حياتك متصلة بحياة هؤلاء الأدباء ؟

– لا أدري مـــا يقوله الأدباء عني ، ولا أعرف ميزة التفرد التي تقول بها ، وكل ما اعرف اني في دراسة تراجم الشعراء ألوذ بهم شخصيا ، فان لم استطع ، لذت بما حصلت من معارف سيكولوجية لتعرف سمات هؤلاء الشعراء ، كما فعلت مع الشابي شاعر تونس الخضراء ، ومع التيجاني : الشاعر السوداني النابغة ، ومع مطران الشاعر الوجداني الرائد ، وغيرهم من الشعراء .

● ما أحب كتاب اليك ، ومـا الدافع الى هذا الحب ، وما موقعه في نفسك حين تتناوله بالنقد ، أو التعقيب عليه بالثناء ؟

– ليس هناك كتاب واحد أفرغت عليه حبي ، فكل كتاب عربي أو غير عربي ، احب ما اجد فيه من فكرات جديدة ، تؤثر فيّ ، وتدعوني الى التفكير ، واذا وقعت على مثل هذا الكتـــاب أحببته ، وابديت مايضم من حسنات ، وشأني مع كل كتاب شأن النحلة التي تطوف على الازهار لترشف رحيقها ، ولكن بعض النحلات قد تمتص رحيق ازهار لايخرج منه عسل ممتاز ، واميل الى الكتب التي يجني منها ذهني وذهن القارىء ثمرات طيبة .

وعلى هذا لا أميل الى الكتب الروائية ولا أميل الى نقدها ولا التعليق عليها . وقد سجلت ذلك في كتابي : «النقد الأدبي من خلال تجاربي»

● عشت والشعر الجديد ، وقرأت الشعر المنهجي (الكلاسيكي) ، فهل هناك فرق بين هذين الشعرين ، وهل يعجبك الشعر الجديد (الحر) كتجربة وهل سيكتب لها البقاء ؟

– لا أفرق بين شعر منهجي وحر ، فكلا النوعين شعر ، اذا كان فيه روح الشعر ونكهته وقد أثبت ذلك في كتابي : « شعر اليوم » الصادر في عام ١٩٥٧ كما عززت هذا الرأي في مقالاتي المنشورة في مجلة « الرسالة » هذه الايام.

والملحوظ ، ان الشاعر الجديد يلوذ بالشعر الحر ، لأنه يجد فيه وعاء مرنا لاستيعاب دفقاته الشعورية المنوعة ، وفكراته التي يبغي ابرازهـــا في دقة وشمول ، دون اعاقة القافية له .

والشاعر المنهجي يمكنه أن يجاري زميله

الشاعر الجديد اذا تسلح بموهبة شعرية نفاذة ، ومقدرة بيانية يطوع بهـــا القافية ، ويسير في الاعراب عن مشاعره وافكاره في ليونـــة وطلاقة ومرونة .

ولكننا لانجد مثل هـــذا الشاعر القدير المتفوق ، ولهذا نرى ان معظم الشعر المنهجي رتيب ، يدخل على النفس الاملال .

واحسب ان الشاعر الجديد ، اذا تمكن من ابداع قصائده ، وسار فيها على نظام ثابت ، فسوف يتقدم الشعر الجديد على يديه تقدما شادها ، وسوف يكتب لشعره البقاء ، كما نجد شواهد ذلك في كثير من شعر : عبد الوهاب البياتي ، ونازك الملائكة ، وبلند الحيدري ، من شعراء العراق ، وفي كثير من شعر : كمال نشأت ، واحمد عبد المعطي حجـــازي ، وصلاح عبد الصبور ، من شعراء مصر ، وفي كثير من شعر : نزار قباني ، وبعض شعر خليل الخوري ، وسليمان العيسى ، وادونيس ، من شعراء سورية ومحي الدين فارس وجيلي عبد الرحمن ، وتاج السر من شعراء السودان ، وغيرهم كثير من شعراء العربية .

● لاشك أنك أعجبت بكثير من شعراء اليوم ، فمن هو الشاعر الذي أثار نفسك ، وحرك أشجانك بانفعالاته وخواطره ولماذا ؟

— من التعنت القول بأن شاعراً واحداً أثار نفسي ، وحرك مشاعري ، فقصائد شعراء اليوم كالحديقة المتنوعة الازهار والورود ، وثمرات الفاكهة ، وفي حديقة الشعر أزهار وورود ، وثمرات شهية ، ومن عادتي قطف ما يحلو لي من ازهارها وورودها وثمارها الناضجة الشهية .

فقد طابت لي قصيدة : « المخبر » لبـــدر شاكر السياب ، وتصوره الدقيق له ، وقصيدة : « ثلاث اغنيات منوعة » لنازك الملائكة ، وهي تصور في سخرية تعقب الارهابيين للقوميين في بلاد الرافدين ، وقصيدة : « اوراق الخوص » لكامل امين ، وهو يصف فيها حالة الموظف الصغير الذي مات ولده ولم يجد له مكانا يدفنه فيه ، وقصيدة : « أبي » لنزار قباني ، وقصيدة : « انتظار » لعبد الوهاب البياتي ، وقصيدة : « طفل » لصلاح عبـــد الصبور ، وقصيدة : « كان لي قلب » لأحمد عبد المعطي حجازي ، وكلها من القصائد الوجدانية والتأملية .

كما طابت لي بعض التجارب الطازجة ، ومن بينها : اذكر قصيـــدة : « رؤى واصداء » للشاعر الاردني كمال ناصر الذي يصور فيهـــا شروده في الفيافي بعد الحكم عليه بالسجن ، وقصيدة : « مات حبـــا » للشاعرة المصرية جليلة رضا وهي تصور انفعالاتها المتنوعة وحبها الذي ظنت في اول القصيدة انه مات ، واحست بدبيبه في آخرها ، وقصيدة : « الحرية » لكامل ايوب ، وقصيدة : « هذي الجموع » للشاعر نجيب سرور ، وهي من القصائد ذات المضمون الايديولوجي التقدمي ، وقصيدة « اناوجارتي » للشاعر المصري كيلاني سند ، وعشرات غيرها من القصائد التي جلوت بعض اسرارها الفنية فيما كتبت .

● ماهي الازمات الادبية التي مرت بك ، وهل وقفت منها موقف الدفاع ، والتغاضي ، شأنك في كل الامور تاركاً للزمن الاصلاح والرجوع الى الحق ؟

– لا اذكر ان ازمة ادبية مرت بي ، وكل ما اذكره ان ازمة نفسية طافت بي بسبب اشتغالي بالادب ، وذلك في عام ١٩٣٧ على ما اذكر ، عندما كتب الدكتور اسماعيل ادهم بحثا في مجلة « الامام » عن الزهاوي ، وكتب فيه بعض آراء متحررة ، اثارت وكيل الازهر في ذلك الحين ، فقدم بلاغا ضد المجلة ، وسئلت كرئيس لها ، ودافعت عن حرية الكاتب فيما يكتب امام النيابة ، وانتهى التحقيق بالحفظ ، كما اذكر انه انتابني شعور بالالم ، لم يبلغ حد الازمة النفسية عندما هاجم احد الشباب كتابي : « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » الصادر في عام ١٩٤٨ ، فقد تناولني بعبارات مارقة ، ورددت عليه ردا هادئا ، ثم عاد بيني وبينه الصفاء في هذه الايام ، واذكر كذلك حملة لصديق لي على كتابي « النقد الادبي » الصادر في عام ١٩٦٢ ، وهي حملة لم انتظرها منه ، وقد رددت عليها ردا هادئا ممكنا ، وادركت منها شيئا كان غائبا عني : من اخلاق الكتاب !

هذه احداث ثلاثة ، أثرت في نفسي ، ولكنها لم تحفر فيها عقدا ، وذلك لطبيعتي المتسامحة ونزوعي الرواقي .

● هل أدت رابطة الأدب الحديث التي ترأسونها ، رسالتها الأدبية أم ينقصها أشياء تودون لو توافرت لها ، لتعمل على خدمة الأدب ، ورفعة شأن الأدباء ؟

– في مدى اربعة عشر عاماً عاشتها رابطة الادب الحديث ، قامت بنشر كتب ادبية كثيرة ، اذكر منها : كتاب : « ناجي الشاعر » للكاتبة المصرية الدكتورة نعمات فؤاد ، ونشر كتاب للدكتور ابراهيم ناجي ، وكتاب : « شعراء مجددون » وكتاب : « شعر اليوم » لي ، وديوان هارون هاشم رشيد ، وديوان : « الانشودة الخالدة » للشاعرة صفية ابو شادي ، و« حصاد القلم » للاديب التونسي ابو القاسم كرو ، وكتاب : « شاعر الانسانية المغترب » الدكتور ابو شادي ، للاستاذ روكس العزيزي : الاديب الاردني ، واصدرت في هذه الفترة مجلة اسمها : « ليالي الادب » ، وغيرها من الاعمال والكتب والدواوين ، كما قامت الرابطة ، ويقوم اعضاؤها ، بالقاء محاضرات كل ثلاثاء من كل اسبوع طول العام ، ولا تقصر جهودها على كتب ادباء مصر ، بل على كتب ادباء البلاد العربية ، وكثير من هؤلاء الادباء يحضر ندواتها ويسهم بالحديث فيها ، وهي تخص الشعر باهتمام كبير ، وكثير من الشعراء المجودين في هذا الجيل من شعرائها .

والرابطة بحاجة الى كثير من المعونات لتستطيع اداء رسالتها على اكمل وجه ، لاسيما

العمل على نشر تأليف الناشئة وتشجيعهم على أداء رسالتهم الكريمة .

● من الذي أنشأ هذه الرابطة ، وكيف أسندت رياستها إليك ؟

— بعد هجرة المرحوم الدكتور احمد زكي ابو شادي الى امريكاوبعد حل جماعة « ابولو » التي كان يشرف عليها ابو شادي نفسه ، فكر الدكتور ناجي ، وكان عضواً في جماعة « ابولو » في تأليف جماعة ادبية اسماها : « رابطة الادباء » وبعد موته ، كان الاستاذ وديع فلسطين وخليل جرجس ، ومبارك ابراهيم ، وأنا ، من اعضائها ، فكرنا في استمرار عمل هذه الجماعة ، وسميناها : « رابطة الادب الحديث » وأسندت رياستها لأخ الدكتور ناجي ، وهو المرحوم محمد ناجي ، اكراماً لذكرى اخيه ، ولما استعفى ، لظروف خاصة ، تفضل الاعضاء باسناد رياستها الي .

● ماهي أمنياتك للأدباء ، وبماذا تنصح الطليعة الواعية وسط هذا السيل من المؤلفات التي تلفظها المطابع كل يوم ؟

— كل ما ارجوه من ادباء الطليعة ، ان يتوافروا على اتقان اعمالهم الادبية ، والا ينظروا الى الغنم العاجل ، او التجارة ، لان هذه ظاهرة أليمة ألحظها في نزعات طائفة من الادباء : كبارا وصغارا ، وفضلا عن هذا ، فأود من أدباء الطليعة ، الا يعيشوا على ثمرات ما يجنون من قراءة الكتب ، بل ان يخوضوا الحياة ويتصلوا بقطاعاتها ، ويتفهموا في وعي ما يجري في : الحقل وفي المصنع ، وفي الوظيفة ، وفي المؤسسات العامة : اي بمعنى آخر ، ان يمارسوا الحياة ، ليحصلوا على تجارب حقيقية ، تكون خير زاد لهم في تجاريبهم الادبية . فاذا اتقن ادباء الطليعة ما يخرجون من اعمال ادبية بعد ممارسة حيوية ، فسوف نجد الكتاب الصالح الذي يقبل عليه الجمهور ، ويتلقفه ولا يتركه نائما على الأرصفة ، ويضيع هو ، في زحمة الحياة .



أسبوع العلم الخامس

بقلم زهير الكتبي

لا أحد يشك أننا نعيش اليوم بعصر يتسم بطابع مميز – هو العلم وثوراته التي تكاد تفصل بين الماضي والمستقبل، ولعلنا لا نخطئ الصواب اذا قلنا ان هذه الثورات العلمية هي الحقيقة الكبرى التي يجب ان نتفهمها ونسعى الى امتلاك القدرة على المشاركة فيها اذا اردنا ان يكون لنا مكانا تحت الشمس وان نكون من بناة المستقبل.

وان فهم صفة عصرنا البارزة، فهم العقلية التي ولدت التطورات والثورات العلمية المذكورة عامل هام وضرورة ملحة بالنسبة للعالم العربي في أقطاره المختلفة وهو يقف على أبواب نهضة فكرية واجتماعية واقتصادية شامله في سبيل القضاء على آثار التخلف الطويل وتحرير أجزائه السليبة واقامة مجتمع ينعم أفراده بالحرية والكرامة والسعادة.

وأسبوع العلم، هذه التظاهرة السنوية، التي ترعاها الدولة تعتبر مظهراً من مظاهر العناية بالحركة العلمية في الجمهورية العربية السورية وسبيل لتشجيع العلماء الشباب وحثهم على العمل في مجالات العلم المختلفة وطريق لتوطيد اواصر التعاون فيما بينهم لرفع مستوى البحث العلمي والتعرف على المشكلات المحلية الهامة ومناقشتها والاطلاع اخيراً على احدث التطورات العلمية المعاصرة.

أقيم أسبوع العلم الخامس هذا العام تحت رعاية السيد رئيس مجلس الرئاسة وألقى كلمة الافتتاح نيابة عنه السيد نائب رئيس مجلس الوزراء وكانت حفلة الافتتاح على مدرج جامعة دمشق الكبير

وقد حضرها السادة الوزراء وكبار رجال الدولة كما حضرها السادة العلماء ورجال الفكر في الجمهورية العربية السورية. وقد رافق أسبوع العلم ندوات وأحاديث ومناقشات علميـة عن طريق وسائل الاعـــلام المختلفة كما تناولت بحوثه ومحاضراته مشكلات العلم وقضايا التخطيط والتنظيم والتطور العلمي بصورة عامة والمشكلات المحلية خاصة .

اننا نحرص على ان نخطط لمستقبلنا العربي طريقاً أساسه العلم والمعرفة ...

لقد كانت كلمة الافتتاح التي ألقاهـــا السيد الدكتور نور الدين الاتاسي نائب رئيس مجلس الوزراء كلمة جامعة وموجهة وقد جاء فيها :

— لي الشرف ان يكلفني سيادة الفريـق رئيس مجلس الرئاسة ان ألقي كلمة افتتاح هذا المهرجان ، مهرجان العلم ، ويطيب لي ان المجلس الاعلى للعلوم يقيم أسبوعه العلمي الخامس في قطرنا العربي السوري ، منوهـاً بأن الفكرة من عقد أسابيع العلم قد اصبحت تقليداً تحرص عليه الثورة وتحرص على المشاركة فيه ، معتزة بما ينظمه المجتمع من الانتاج العلمي القيم الذي يحقق لمجتمعنا العربي ثورة اقتصادية واجتماعية تستند الى دعائم ثابتة على أسس علمية صحيحة .

— اننا نحرص على ان نخطط لمستقبلنا العربي طريقا أساسه العلم والمعرفة ودعامته القوة والبأس وتاجه الخير والسلام . وقـد عرف العرب على التاريخ دائبين للبناء عاملين لازدهار الحضارة الانسانية ، واننا اليوم كذلك سنتابع رسالتنا بأن نجعل من تقدمنا العلمي وسيلة تقدمية لاحلال التقدم والسلام ورفاه المجتمع العربي والعالم . . .

ان الاهتمام بالنهضة العلمية انما هو في الواقع مظهر أساسي لحركة البعث القومي . انها حركة تستوحي مقومات قوتها وعناصر حيويتها من تراثنا العظيم الذي كان للعلم مكانته الكبرى فيه ...

— اننا نؤمن بما للعلم من قوة جبارة . . . وبأن العلم قيمة من القيم الانسانية الاصيلة انـه ذخر في ذاته ، به تنهض الامم والشعوب لتحقق لأبنائها الخير والسعادة والرفاه وان فهم العلم بهذا المعنى الذي نؤمن به ، خليق باعلاء شأنه وتحقيق أهدافه . في حفظ الكرامة الانسانية والتمسك بالمثل العليا وتوجيهه نحو خير البشرية جميعاء .

وقد اختتم خطابه بقوله : ـ

— ان لنا أعظم أمجاد الماضي ... ولابد ان نهيء أنفسنا ليكون لنا وللانسانية بنا اعظم أمجاد الغد . وان من شأن تظاهرتكم العلمية هذه أن تزيدنا وعيا لامكاناتنا ووعيا لواقعنا وأملا بغـد باسم مشرق ، واني لأرجو لأسبوعكـم العلمي الخامس الذي تبدؤونه اليوم النجاح والاستمرار وفقكم الله وسدد خطاكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

لقد كان العلم ، منذ اللحظة الاولى في يقظة العرب ، وسيلة العرب في الحفاظ على وجودهم وكانت الحرية القومية هي الغاية التي يبحثون عنها في ظلال العلم .

ثم تكلم بعد ذلك السيد الاستاذ سليمان الخش رئيس المجلس الاعلى للعلوم ووزير الثقافة والارشاد القومي وقد افتتح كلمته بقوله : —

— في المهرجان الخامس للعلم ، يطيب لي أن أعيش مع الامال الكبرى ، التي تشرئب اليها أعناق الامـة العربية ، وان اعود فأجدد العهد

لأحلام الاجيال الغابرة ، التي انطلقت من عقالها مع الفجر العربي الجديد ...

وقد استعرض نواح مجيدة من الفكر العام والآمال المرجوة للانسان العربي في غده المشرق

ثم قال : —

— لقد كان العلم منذ اللحظة الاولى في يقظة العرب ، وسيلة العرب في الحفاظ على وجودهم ، وكانت الحرية القومية ، هي الغاية التي يبحثون عنها في ظلال العلم ، ولاجل هذا ، فقد اقترن العلم بالحرية القومية بالوجود القومي ، منذ اللحظات الاولى ، التي انطلق فيها العرب من عقالهم ... وفي تلك اللحظات كان الشعور القومي المشترك بوحدة المصير ، ثالوث هذه الاقاليم الثلاثة ، التي يعسر على الانسان العربي أن يجد بينها حدوداً ، أو يقيم بينها فواصل .

— ما من امة من أمم الارض ، نظرت الى العلم والعلماء بالقدسية التي نظر اليها الآباء والاجداد فلقد جاء في الحديث الشريف « ان الله جل شأنه يزن مداد العلماء بدماء الشهداء يوم القيامة » بينما نظر علماؤنا الاوائل الى العلم على أنه عبادة من تلك العبادات التي يطمع أن يتقرب بها الانسان من الخالق جل وعلا ...

وقد ختم كلمته بقوله : —

— أيها السادة المؤتمرون . . . انني أرحب بكم مجدداً في هذه الندوة التي أردتموها انطلاقا للمواهب العلمية الصحيحة المنتجة ، وأرادها الشعب منطلقا لاحلامه في العزة والمنعة والوحدة ، وسلام الله ورحمته عليكم .

ان العلم وحده هو القادر على ضمان التقدم الفعلي الكبير للقوى المنتجة بالمجتمع ...

ثم ألقى بعد ذلك كلمة الختام السيد المهندس وجيه السمان رئيس لجنة المقررين في المجلس الاعلى للعلوم ورئيس الاتحاد العلمي السوري ، وكانت كلمة قيمة استعرض فيها أهمية العلم في عصرنا الحاضر وقارن فيها سورية بأقطار مماثلها تقدمت وعزت بالعلم والمعرفة وفيما يلي مقتطفات من كلمته :—

— لقد تفضلتم ياسيادة الرئيس في مثل هذه الايام من العام الماضي برعاية أسبوع العلم الرابع وتشجيعه وها انتم اليوم ترعون أسبوع العلم الخامس وتشجعونه ، فأنا أتقدم اليكم باسم المجلس الاعلى للعلوم وباسم العلم في سورية بخالص الشكر والامتنان على جميل صنيعكم وأرجو لقطرنا السوري دوام التقدم في جميع الميادين ...

— ان العلم وحده هو القادر على ضمان التقدم الفعلي الكبير للقوى المنتجة بالمجتمع ، ان الخطط التي توضع لتنمية الاقتصاد القومي ينبغي ان تناظر آفاق التقدم العلمي وترتبط ارتباطا وثيقاً بمكتشفاته ومكاسبه ، لهذا السبب كان البحث العلمي وتطبيق المنجزات العلمية في نطاقات الصناعة والزراعة والخدمات الصحية والاجتماعية ينبغي ان يغطي قبل كل شيء حاجات التنمية الاقتصادية .

— ان العلم يتقدم في كل مكان والاعتماد عليه يزداد وكل دولة تتأخر في نيل نصيبها من العلم تزداد الهوة اتساعا بينها وبين من سبقها وتزداد المصاعب في سبيل تقدمها ...

— لقد اوصت دول الشرق الاوسط المجتمعة برعاية اليونسكو بوجوب اقامة مجلس مركزي للعلوم او هيئة مشابهة في كل دولة من الدول الاعضاء تكون غايته تنظيم البحث العلمي البحث والتطبيقي ودعمه وتنسيقه، وكذلك العمل على قيام مشاريع للبحث تؤدي الى تطور الامة اقتصادياً واجتماعياً وفكرياً …

بهذه الكلمات الموجهة افتتح اسبوع العلم الخامس وقد تتابعت أيامه العلمية يوماً بعد يوم حيث كانت تلقى البحوث الأساسية في كلية العلوم والعلوم الطبية في كلية الطب والعلوم الهندسية في كلية الزراعة اما العلوم الزراعيـة والبيولوجية فألقيت في قاعة المحاضرات بوزارة الزراعة .

هذا وقد نيفت المحاضرات والبحوث التي القيت عن ثمانية وأربعين موضوعاً تناولت المبتكر الجديد من العلم والتطور العلمي والمشاكل المحلية بصورة عامة ، وقد ساهم في القاء هذه الموضوعات بعض العلماء والخبراء الأجانب ومن أهم الموضوعات العامة التي القيت في اسبوع العلم الخامس :

١) التطوير الواجب تحقيقـه لزيادة انتاجنا الزراعي في ضوء الاتجاهات العلمية الحديثة .

٢) التعليم الطبي في خدمة المجتمع .

٣) الضجيج وأثره في الأذن والصحة العامة .

٤) عرض عام لمشروعات استثمار نهري الاردن واليرموك .

٥) شبكة الطرق السورية في وضعها الحالي .

الـخ …

ونلاحظ أن كل موضوع يعالج مشكلة من مشاكل القطر السوري ويقـدم الاقتراحات والحلول الكفيلة بحلها وتلافي أضرارها . اما الموضوعات التالية فهي محاضرات عامة تقدم صورة عن تطور العلوم في العالم ومدى ماوصلت اليه : —

١) الاورانيوم : الوقود الجديد للطاقة .

٢) الليزر وتطبيقاته .

٣) التحليل الطيفي وبنية الذرة الخ …

أما البحوث العلمية الاختصاصية فهي كثيرة أهمها : —

في القطاع الطبي :

١) سرطان الثدي ومعالجته .

٢) تأثير المواد الكاوية على انبوب الهضم .

٣) انفلاقات الأمعاء عند الاطفال .

٤) الفراسة بين الصحة والمرض .

في القطاع الزراعي :

١) دراسات مخبرية لتـأثير بعض المبيدات الحشرية .

٢) الاتجاهات الجديدة في زراعة الزيتون في سورية .

٣) التنظيم الحروري في الأبقار وعلاقتـه بانتاج اللبن .

في القطاع الهندسي :

١) النشاط الاشعاعي للفسفوريت في سورية .

٢) شبكة الارتباط الكهربائية في سورية ،

٣) الاهتزازات المسببة عن مرور الموائـع فوق الأجسام .

٤) العناصر القومية والاقليمية في الفن المعماري في الماضي والحاضر .

في قطاع العلوم الأساسية :

١) دراسات على الغضار السوري .

٢) مواد امتزاز جديدة من الزيولايت .
٣) اضعاف شدة عكس السطوح الزجاجية الخ ...

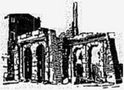
هذه لمحة سريعة عن اسبوع العلم الخامس وسيقوم المجلس الأعلى للعلوم كما هي العادة كل سنة بطبع جميع البحوث والموضوعات في خمسة مجلدات حسب توزيع الاختصاصات العلمية وستوزع على المختصين في داخل البلاد وخارجها .

هذا وقد رافق اسبوع العلم الخامس المعرض العلمي للعلوم العالمية الذي اقامته سفارة الولايات المتحدة الأمريكية بالتعاون مع جامعة دمشق والمجلس الأعلى للعلوم .

اختتم اسبوع العلم الخامس بحفلة أقامها السيد رئيس المجلس وزير الثقافة والارشاد القومي وقد ألقى كلمة الختام فيها السيد الدكتور عزة مريدن مقرر لجنة الاتصالات العلمية وعضو المجلس الأعلى للعلوم وقد جاء فيها : ــ

ــ ان المجلس اذ يقدم أخلص الشكر لكل من آزر في نجاح هذا الاسبوع من العلماء المواطنين والأجانب ، من الموظفين والاداريين والفنيين فانه يخص بالشكر سيادة رئيس مجلس الرئاسة على رعايته هذا الاسبوع وعلى حفلة تكريمه والسيد وزير الثقافة على جميل مؤازرته وكريم معونته وبقية السادة الوزراء ورئاسة الجامعة والكليات العلمية والاذاعة والتلفزيون وكل المسؤولين الذين أسهموا في نجاح أعمال هذا الاسبوع والى الأسبوع السادس باذن الله ونحن اشد ما نكون قوة وحماسة ومضاء ، يلفنا برعايته حزم وعزم وتأيد .

هذا هو اسبوع العلم الخامس بكلمات وهو التظاهرة العلمية الوحيدة في سورية التي تهيء لعلمائنا الفرص المناسبة لاظهار أعمالهم ونشر بحوثهم وتفجير طاقاتهم الكامنة وتشجيعهم . انها مرآة تعكس صورة حية لتطور نهضتنا وعلومنا وبحوثنا ولاسيما مايتعلق منها بصميم حاجاتنا القومية . واملنا أن تكون هذه التظاهرة سبيلاً لوضع أسس البحث العلمي في قطرنا العربي والوسيلة الوحيدة لتحقيق حياة حرة عزيزة تسيطر عليها الصحة والقوة والمنعة .



تقديم محي الدين صبحي

الجريمة والشخصية

تأليف : هـ . ج . ايزنك

Crime And Personality

By . H . J . Eysench

يعد البروفور ايزنك في الاوساط العلمية شخصية استفزازية محبة للجدل والنقاش . فقد نشر في الشهور الاخيرة ، بحثاً يتساءل فيه عن مدى صحة الفكرة العلمية التي تربط بين سرطان الرئة والتدخين . فأثار الاوساط العلميـــة به . واليوم يتحدى بكتابه « الجريمة والشخصية » روح العصر باسلوب علمي ايضاً .

يزعم البروفور إيزنك ان المجرم يولد ولا يصنع . فالدراسة المقارنة للتوائم المتشابهة وغير المتشابهة تبين ان الوراثة وليس المحيط ، هي المسؤولة عن السلوك الاجرامي . فالشخص الذي يصبح مجرماً يتصف بعاطفية شديدة وتقلب عظيم.

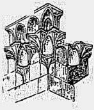
وهاتان الصفتان الموروثتان من حيث التقلب والعاطفية – أي السلوك العصابي – يجعلان الشخص في شروط سيئة لايستطيع أن يسيطر عليها ، بحيث يعجز عن تطوير ردود فعله وكبحها بالطريقة التي يتبعها « الضمير العادي » في الكبح.

وليس ثمة دليل واحد يشير الى فائدة العلاج النفسي المجرمين . وبالتالي فليس هناك سبب يدعونا الى افتراض أن العقاب تأثيراً رادعاً ، وان كانت هناك أسباب تجعلنا نعتقد ان العقاب يزيد دوافع السلوك الاجرامي ويدفعه الى حدود قصوى . واملنا الوحيد في اصلاح المجرم هو

ان نخضعه لسلوك بالفوقي (أي نسيطر على ردود فعله) بواسطة استعمال المخدرات في علاجه .

ويجعل البروفسور ايزنك من السلوك الاجرامي قضية تستحق ان تنفق عليها بسخاء . فالجرائم في بريطانيا مثلاً تحدث اضرارا تقدر بخمسمائة مليون جنيه استرليني في العام ، بينما لا يتجاوز ما تنفقه الدولة على حقل البحوث الاجرامية اكثر من عشرة آلاف جنيه . ومن السهل ان نذهب مع رأيه في ان نعامل المجرمين المتعددين معاملة مختلفة بدلا من ان نفرض عقوبات معينة على جريمة معينة بصرف النظر عن مرتكب الجريمة . وعلى كل فان معظم الباحثين في علم النفس الاجرامي سيختلفون مع ايزنك في تعريفه الشخصية حيث يقول : « يرى العالم ان وحدة الشخصية ليست سوى نقطة التقاء عدد من العناصر القابلة للتغير . » .

والكتاب موجز رائع للاتجاه الذري الذي يعتبر الفرد عبارة عن مجموعة من الصفات . ويحذف كل اشارة الى علاقته بغيره من الناس . غير ان هذا الاتجاه ناقص بشكل مريع . فمن المعلوم مثلا ان اثر العقاب يتنوع بحسب الصلة بين الحاكم والمحكوم . غير ان ايزنك يعتبر ان عقاب الانسان للانسان يماثل عقاب الانسان للفيران بالصدمات الكهربائية . وهنا تأتي النقطة الرئيسية في وصفه للشخصية . ان حرص ايزنك على بقائه ملتزماً المنهج العلمي يفقد عليه موضوعيته التي تعطي لآرائه قيمة ذاتية .



في قواعد اللغـــة

تعليق على كتاب « المرجع » للشيخ علي رضا

بقلم جميل علوش
— الكويت

« المرجع في اللغة العربية نحوها وصرفها » كتاب جامع شامل في قواعد اللغـة العربية مؤلف من ثلاثة اجزاء وصادر عن المطبعة السورية في حلب . وضعه الاستاذ الشيخ علي رضا مدرس اللغة العربية في مدارس حلب الاعدادية والثانوية.

والكتاب جليل الفائدة لاتساعه وشموله ، اذ يرجع اليه الطلاب الجامعيون في حل ابيـــات الشواهد العويصة ومشاكل الاعراب المستغلقة ، ففيه شرح مسهب وتفصيل دقيق لكل موضوع يطرق ولكل مسألة تعرض ولكل مادة توضع على بساط البحث .

ليس من ينكر فائدة الكتاب ولا من يجحد فضله على ابناء الجيل الذين يفيدون من الاساليب الحديثة في دراسة قواعد اللغـــة بحيث يعانون مشاكلها ويتفهمون غوامضها ويصدرون عن دراستهم بجليل الفائدة وعميق الفهم .

هذا مالا ينكره أحد ، الا ان في الكتاب من الهفوات والاخطاء والمزالق مالا يعذر المؤلف عليه وما فيـــه اكبر ضرر على النشء الطالع وخصوصا من ليس عندهم المقدرة على التمييز بين الغث والسمين وبين الخطـــأ والصواب ، ومن يعتبرون مايرد في كتب النحو حجة لا تمـارس ولا تناقش. وبما ان في الاغضاء على هذه الهفوات والاخطاء ضررا يلحق بأجيالنا الطالعة فقد اقدمت على التعرض لهذه الاخطاء والتنبيه عليها ما امكنني ذلك راجيا ان يتقبل الاستاذ الشيخ هذا النقد كما ذكر في المقدمة فيتلافى مافرط في الطبعات القـادمة . ولا ادعي اني احطت بكل شاردة

وواردة من هفواته بل اعتبر نقدي هذا جهدا معرضا للخطأ والسهو . وعليه فأرجو من النحاة واللغويين تنبيهي الى ما لم انتبه اليه وانا لهم من الشاكرين .

ولضخامة الكتاب وطلبا للتسهيل ونظراً لضيق المجال آثرت ان افرد كل جزء من الكتاب على حدة واضع له تعليقا خاصا به وعلى الله الاتكال .

نقد الجزء الاول من الكتاب

ورد في مقدمة الكتاب صفحة (٣) سطر (١) :

« أيها الاخ الذي تدرس اللغة العربية الـخ » وهذا خطأ والصحيح ان يقول : ايها الاخ الذي يدرس اللغة العربية ليكون في صلة الموصول ضمير يرجع اليه يسمى العائد والاستعمال المذكور لا يعتمد عليه .

ورد صفحة (٣٢) في اعراب « قدني » انها اسم بمعنى حسب مبني على السكون في محل رفع مبتدأ والنون للوقاية . وهذا خطأ والصحيح انها اسم فعل بمعنى « كفى » لأن نون الوقاية لاتدخل على الاسم باية حال من الاحوال . والياء ليست في محل جر مضافا اليه بل في محل نصب مفعول به. وعليه فالبيت بحاجة الى ان يعرب اعرابا جديدا حسب التصحيح الذكور .

ورد في صفحة (٥٤) في اعرابه لبيت المتنبي:

يا من نعيت على بعد بمجلسه

كل بما زعم الناعون مرتهن

ورد قوله في اعراب « من » انها اسم موصول مبني على الضم المقدر لأنه منادى معرفة منع من ظهوره سكون البناء الأصلي وهذا خلط لاحاجة لنا به . القاعدة تقول ان المنادى يكون مبنيا على ما كان يرفع به قبل النداء ، اذا كان علما أو نكرة مقصودة . هذا اذا كان معربا . أما اذا كان مبنياً قبل النداء فيبقى على بنائه بعده . ان المبنيات لاتقدر فيها علامات الاعراب ولتقدير علامات الاعراب مواضع معروفة . انها تعرب محلا ولا يتغير بناؤها وهي لهذا انما سميت مبنية . وما لم تظهر عليه علامات الرفع ولم تقدر فيه قبل النداء فلن تظهر عليه ولن تقدر فيه بعده بل ان التقدير خطأ شنيع وهو من المتناقضات . وليس السكون هو المانع من ظهور علامة الرفع ، ان البناء هو المانع . البناء حالة والسكون ظاهرة وعلامة والعمل للأصل وليس للفرع وعليه فتعرب « من » على أنها منادى مبني على ما كان مبنيا عليه قبل النداء . اما قوله انها في محل نصب بفعل النداء المحذوف فهذا خطأ شائع يحتاج الى بحث وسأتعرض له في « بحث النداء » .

ورد في صفحة (٥٥) في اعرابه لهذا البيت:

من لايزال شاكرا على المعـه

فهو حر بعيشة ذات سعـة

ورد قوله ان الفاء زائدة بينما هي الفاء الفصيحة . وهي التي تدخل على خبر كل مبتدأ فيه معنى الشرط . و « من » هنا اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ وفيه معنى الشرط ولذلك جاءت الفاء الفصيحة في جوابه .

ورد في صفحة (٧١) في حديث المؤلف عن المضاف اليه المصدر قوله « والمضاف اليه المصدر اما ان يكون فاعلا في الأصل فمحله الرفع أو يكون مفعولا به في الاصل فمحله النصب .فاذا

اتبعته بوصف جررت على مراعاة اللفظ وان شئت رفعت اتباعاً المحل . مثـــل سررت من احترام خالد المهذب استاذه بجر المهذب ورفعه . وهذا خطأ فالاسم المعرب ليس له اعراب لفظي واعراب محلي . ان هذا ينطبق على الاسم المبني فقط وعلى الاسم المعرب المجرور بحرف الجر الزائد . ولا يمكن ان يكون الاسم مضافاً اليه وفاعلا في نفس الوقت . انه مضاف اليـــه لفظاً ومحلا . وما دامت علامة الاعراب موجودة وليس مايمنع ظهورها فكيف يكون للكلمة اعرابان لفظي ومحلي ولسنا بحاجة لهذه التفسيرات الملتوية والتعليلات البعيدة والتقديرات السقيمة . أحرى بنا أن نخلص هذا الجيل الطالع منهـــا . للـكلمة وظيفة واحدة بتقدير واحد وما زاد على ذلك فهو محض تمحل وحذلقة وليس كل ماتحدث عنه النحاة صحيحاً فنحن نعلم ان لهم من التفـــاهات مالا يحصى . وأنا اقر أن هذه النقطة من تفاهات النحاة التي وقع فيهـــا المؤلف . ولا يجوز في « المهـــذب » الا الجر أما الرفع فلا يصح ولا يسمح به المنطق السليم . والحديث عن اللفظ والمحل باطل من اساسه . ان الاضافة حالة واقعة راهنة لها شروط وقيود صارمـــة ولا تجتمع الاضافة والفاعلية بحال من الاحوال ، والاضافة وظيفة اعرابية لها عمل واضح لايمكن ان تشاركها فيه وظيفة اخرى بنفس الوقت . ولا يصح لنا الحديث عن الفاعلية الا بفك الاضافة . ومن الخطأ أن تقدر فعلا مكان المصدر فنقول : ان يحترم خالد المهذب استاذه . ان هذا تركيب جديد ليس له علاقة بموضوعنا وهو بعيد عن الاضافة غريب عنها.

وكل ما كان من هذا القبيل فهو خطأ لست بحاجة الى التعليق عليه في موضع آخر .

ورد في صفحة (٨٣) في اعراب هـــذا البيت للأعشى :

كناطح صخرة يوما ليوهنهـــا
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ورد قوله : « وناطح مجرور بالحرف وفاعله ضمير مستتر تقديره هو » وهذا خطأ فاسم الفاعل ليس بحاجة الى تقدير ضمير . انه يتعدى الى مفعوله بنفسه وبدون تقدير . واسم الفاعل اسم فكيف نقدر فيه ضميرا أما قوله ان علامة الجر الكسرة فهذا خطأ ان علامة الجر تنوين الخفض الظاهر . وهو خطأ يقع فيه المؤلف كثيرا فيقول عن تنوين الرفع ضمة وعن تنوين النصب فتحة وعن تنوين الجر كسرة . وهذا ابتعاد عن الدقة اللغوية . وليس في امكاني حصر المواضع التي يقع فيهـــا المؤلف بمثل هذا الخطأ وحسبي الاشارة اليها .

ورد في صفحة (٨٦) في حديث المؤلف عن نائب الفاعل قوله : والمنسوب يرفع الاسم على أنه نائب فاعل فنقول : أحلبي جدك : فجدك نائب فاعل سد مسد الخبر . وهذا من توافه النحاة التي وقع فيها المؤلف والا فما هذا التقدير البعيد . ان الجملة هي « أحلبي جدك » وتقديرنا يبعدها عن اصلهـــا . و « شتان بين احلبي جدك » « وأمنسوب جدك الى حلب » فكأننا بهذا نترك الجملة الاصليـــة ونعرب جملة غيرها . ان الاسم المنسوب اسم جامد لايطلب فاعلا ولا نائب فاعل فلماذا نجهد انفسنا بالتقدير البعيد والتعليل الفاسد ، وما دام صح لنا هذا التقدير فلماذا لايصح لنا

تقدير آخر هو «أمنتم جدك الى حلب بدل أمنسوب جدك الى حلب» وتكون جدك فاعلاً. لا حسب التقدير الجديد بل لماذا لا نقول أمنتسب بـدل أمنسوب وهي من نفس المصدر، ان المنطق السليم لا يسمح بمثل هذه التقديرات كلها. والصحيح ان يكون «جدك» في هذه الجملة مبتدأ مؤخراً و «حلبي» خبر مقدماً لا اقل ولا اكثر وما زاد على ذلك فهو الخطل بعينه.

ورد في صفحه (٨٧) سطر (٢١) قوله، اذا كان اسم المفعول مشتق من اسم متعـد. والصحيح ان يقول «مشتقاً بالنصب لأنه خبر كان الناقصة».

ورد في صفحة (٩٨) قوله: قد يكون التفضيل بين شيئين في صفتين مختلفتين نحو العسل أحلى من الخل. والمعنى ان العسل في حلاوته يزيد على الخل في حوضته. وهـذا من اعجب المفارقات وهو قول يحتاج الى أن يستشهد له بكلام العرب. فهو غـير منطقي وغـير مبني على اساس سليم.

ورد في صفحـة (١٠١) قوله في اعراب «اهلاً وسهلاً» انهما صفتان لموصوفتـين كل منهما مفعول بـه لفعل محذوف. والتقدير اتيتم قوماً اهلاً ونزلتم موضعاً سهلاً. والتقدير المجمع عليه فيهما انهما مفعولان لفعلين محذوفين. والاصل جئت اهلاً ووطئت سهلاً. ولا ضرورة لتقدير الموصوف المحذوف فالصفة تعمل عمل موصوفها وتقوم مقامه. هذا مع العلم ان «اهـلاً» موصوف وليست صفة «والاهل هم الاقارب والعشيرة».

ورد في صفحة (١٢٠) قوله: أما التاء في اخت وبنت وعدة مثلاً فهي بـدلا من اصل والصحيح (بدل) بالرفع لأنها خبر المبتدأ الذي هو «التاء».

ورد في صفحة (١٤٤) في موضوع انواع اعراب الاسم قوله: حركات الاعراب هي الضمة والفتحة والكسرة والسكون. وهذا موضوع يحتاج الى بحث. ان الضمة والفتحـة والكسرة والسكون ليست من مصطلحات الاعراب انها من مصطلحات البناء. وعلينا ان نجـد لعلامات الاعراب مصطلحات جديدة تميزها عن مصطلحات البناء. فنسمي الضمة في البناء، حركة رفـع في الاعراب، والفتحة حركة نصب والكسرة حركة خفض. فنقول في اعراب الفاعل مثلاً: فاعـل مرفوع وعلامة رفعه الحركة الظاهرة او حركة الرفع الظاهرة وكذلك في المنصوب والمجرور.

ومن الخطأ ان نقول مرفوع وعلامـة رفعه الضمة الظاهرة لأن الضمة والفتحة والكسرة من علامات البناء ومن مصطلحات البناء. ولا اريد ان أتعقب هـذه المزالق في الكتاب فهي كثيرة وانما نبهت عليها في موضعها لأ كفي نفسي مؤونة الحصر والاحاطـة والاسباب. ولا اعتقد أننا بحاجـة الى فضل شرح وتفصيل ما دام المقصود مفهوماً.

ورد في صفحـة (١٦٩) قوله: وتعرب كيف في محل نصب اذا وليها فعل تام، نحو كيف ذهبت فعـلام تنصب، كان الواجب ان يقول تنصب على الحالية. وقال في السطر الذي يليـه وتعرب في محـل رفع خبر اذا وليس مبتدأ.

والصحيح ان يقول وتعرب في محل رفع «خبراً» بالنصب . وكذلك تعرب في محل نصب مفعولا به ثانيا وليس لمفعول به « ثان » كما ذكر المؤلف ويقول في السطر الذي يليه : وتكون في محل نصب مفعول مطلق والصحيح أن تكون مفعولاً مطلقاً .

ورد في صفحة (١٧٣) يتحدث عن وزن (فعال) سبا للانثى فيقول : وهـذا الوزن صفة لسب الانثى ويلزمه حينئذ النداء احياناً نحو: ياخباث وياخداع . وهذا تناقض فاللازمة لاتكون احيانا بل في كل حين . وشرط هذه الصيغة ان تكون بعد النداء وشذ قول الحطيئة .

أطوف ما أطوف ثم آوي الى بيت قعيدته لكاع

ورد في صفحة (١٧٤) قوله فى اعراب (فداء) في بيت النابغة .

مهلاً فداء لك الاقوام كلهمو

وما أثمر من مال ومن ولد .

قال في اعرابها : ويروى بالرفع على الابتداء أو الخبر المقدم . وليس تعليقي على الاعراب بل على اللغة التي صيغ فيها الاعراب . فمن الخطأ أن يقول على الابتداء او الخبر المقدم . فاما أن يقول على انها مبتدأ او خبر مقدم او بالرفع على الابتداء او على انها خبر مقدم . او بالرفع مبتدأ او خبراً مقدماً . وما ذكره المؤلف خطأ بين .

ورد في صفحـــة (١٧٦) في اعراب بيت لرؤبة بن العجاج .

واهاً لسلمى ثم واها واها

هي المنى لو أننـــا نلناها

يقول ان (واها) اسم فعل مضارع مبني على الفتح وهذا منتهى الاهمال وعدم الدقـــة فأين الفتحة في (واها) . أليس هناك فرق بين التنوين والفتحة . وفي نفس الصفحـة يقول في اعراب كلمة « تحمدي » الواردة في بيت عمرو بن الإطنابة .

وقولي كلما جشأت وجاشت

مكانك تحمدي او تستريحي

قال انها فعل مضارع مجزوم بجواب الطلب . وهذا خطأ فاما أن يقول مجزومـــة في جواب الطلب او لأنها واقعة في جواب الطلب . اما استعمال الباء فهو خطأ لأنها تعني السببية وهـذا غير المقصود فليس سبب جزمها جواب الطلب . انها بنفسها جواب الطلب وقـــد جزمت لأنها جواب الطلب .

وفي نفس الصفحة يقول : والجملة لايمكن ان تكون في محل نصب مفعول به الا بعد القول . وهذا خطأ نحوي والصحيـح ان يقول والجملة لا يمكن ان تكون في محل نصب مفعولاً به (حالاً او خبراً ثانياً لكان)

وفي صفحـــة (١٧٧) يقول : فاذا قلت الأكف بالجر يكون بله مفعول مطلق .والصحيح ان تكون مفعولاً مطلقاً .

وفي صفحة (١٨٨) يقول عن اسماء البلاد والمواضع : تنون اذا قصدبها معنى مذكراً وتمنع من التنوين اذا قصد بها معنى مؤنثاً . وهذا خطأ نحوي فاحش فنائب الفاعـل لايمكن ان يكون منصوباً . وعليه فالصحيـح ان يقول اذا قصدبها معنى مذكر وتمنع اذا قصد بها معنى مؤنث .

وفي صفحـــة (١٩٥) يقول في اعراب هذا البيت :

وندمان يزيد الـكاس طيباً

سقيت وقد تغورت النجوم.

ندمان : مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد وهو رُبَّ المحذوف. وهذا خلط فاضح فليس هنا موضع لتقدير علامة الاعراب ومواضع التقدير معروفة . والصحيح في اعراب (ندمان) انها مجرور لفظاً مرفوع محلا على انها مبتدأ وما زاد على ذلك فهو خطأ .

ورد في صفحة (١٩٩) قوله : قد يجر الفاعل لفظا باضافة المصدر اليه مثل لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض . فلفظ الجلالة هنا فاعل في حقيقته ولكن المصدر اضيف اليه فجر لفظاً وهذا خطأ من اخطاء النحاة ومن تفاهاتهم المشهورة . كيف تتنازع حالتان لفظة واحدة . لا يمكن ان تجتمع الفاعلية والاضافة في وقت واحد ووجود الفاعلية معناه فك الاضافة . والاسم ليس مبنيا وليس مجروراً بحرف الجر الزائد حتى يكون له اعراب لفظي واعراب محلي . ان حالة الاضافة تفرض وجودها لفظا ومعنى . والتقدير في هذا الموضوع خطأ ، كما ان الافتراض خطأ . ان الاضافة موجودة فلماذا نفترض حلها . واما كون اسم الجلالة فاعلا في المعنى فلا يعني ان يكون فاعلا في الوظيفة ان المبتدأ في مثل (زيد قام) فاعل في المعنى ومع ذلك فلم نقل انه فاعل لتعارض الفاعلية والابتداء. لا يمكن ان تتنازع وظيفتان لفظة واحدة في نفس الوقت . وكون اللفظة فاعلا في المعنى لا يجعلها تفقدوظيفتها ، ففي قولنا : اشتعل الرأس شيباً . لفظة (شيبا) المنصوبة على التميز فاعل في المعنى . ولكن هذا لا يعني ان تكون تميزاً لفظا وفاعلا محلا . ولم يذكر احد من النحاة انها فاعل في المحل . وفي هذا الشرح كفاية لبيان القصد . ان (الناس) مفعول به للمصدر ولا ضرورة لتقدير فاعل فهو يحذف ويستغنى عنه في مواضع متعددة.

في صفحة (٢٠٣) خطأ نحوي في قوله : في اعتبار نون النسوة حرف دال على جماعة الاناث والصحيح ان يقول في اعتبار نون النسوة حرفا دالا ...

في صفحة (٢٠٤) قال في اعراب هذا البيت .

جزى بنوه ابا الغيلان عن كبر
وحسن فعل كما يجزى سنمار

كما : الكاف للتشبيه . ما مصدرية . والمصدر المؤول في محل جر بالكاف متعلقان بصفة محذوفة او بموصوف محذوف يقع مفعولا مطلقاً مبينا لنوع جزى وتقدير الكلام ، جزى ابا الغيلان بنوه جزاء مشابها لجزاء سنمار » ولماذا هذا التقعر الفارغ والتقدير السقيم ، والتوهم الباطل ان حرف الجر متعلق بفعل جزى الأمر .

في نفس الصفحة تكرار . كان يجب ان يغفل البند(١٧) فهو اعادة وتلخيص لما ذكر في البند (١٢) صفحة (٢٠٣) وكذلك البند (١٨) فهو اعادة لما ذكر في البند (٢٠٠) والبند (٢٩) اعادة للبند (٢٣) .

وفي موضوع نائب الفاعل قال : فان لم يكن في الكلام مفعول به ناب الظرف او الجار والمجرور او المصدر . تقول سير ميل . وصيم

رمضان وجلس في الحديقة وجلس جلوس الامير وجلس امامك . وانا لا اوافق المؤلف ولا جمهور النحاة في اعتبار (جلوس) نائب فاعل في المثل جلس جلوس الامير . انها مصدر ويجب ان يكون المصدر منصوبا ولا اساس هنا لنيابته عن الفاعل. فاما ان يكون المصدر المنصوب في محل رفع نائب فاعل تجوزا او اما ان يكون نائب الفاعل مستغنى عنه هنا . وكما يستغنى عن الفاعل في مواضع معينة فليس بدعا ان يستغنى عن نائبه . والفاعل اصل ونائبه فرع . ان تنوب شبه الجملة عن المفعول امر عادي فهي تقدر بخبر وبحال وبصفة وبمفعول به ثان فلا بدع ان تقدر بنائب فاعل . أما المصدر فليس له عمل ولذلك فليس من المنطق ان يكون نائب فاعل . وحينما نجعله نائب فاعل نكون كأننا بالنصب اوقعنا عليه فعل الفاعل مع ان الفعل لازم . وهذا من التناقضات . فالاحرى بنا ان نقول (جلس جلوس الامير) وما دام قصدنا التشبيه فلا يهمنا من يكون الفاعل ولا من يكون نائب الفاعل . والفعل اذا لم يكن متعديا رأسا او بالحرف فكيف نقدر له نائب فاعل وكذلك فمن الخطأ الشنيع ان تقول : « جلس امامك » بالرفع بل بالنصب وشبه الجملة في محل رفع نائب فاعل . ان فعل الجلوس وهو لازم لم يقع مباشرة على المصدر او الظرف ولذلك فهما ليسا نائبي فاعل بل هما في محل رفع نيابة عن الفاعل . أما (سير ميل) وصيم رمضان فليس ما يمنع ان يرفعا لان الفعل وقع عليهما . وليس ما يمنع ان ينصبا على الظرفية فنقول سير ميلا وصيم رمضان . ويكون كل منهما في محل رفع نائب فاعل . وميل ورمضان وامثالهما تسمى باللغة الانكليزية « اشباه المفعول به » وليس ما يمنع ان تسمى بالعربية كذلك .

ورد في صفحة (٢١٤) قوله : فقد جعل الجار والمجرور نائب فاعل والكلاب مفعول به ثان وذلك في اعراب قول جرير .

ولو ولدت قفيرة جرو كلب
لسب بذلك الجرو الكلابا .

والصحيح ان يقول: فقد جعل الجار والمجرور نائب فاعل والكلاب مفعولا به ثانيا .

صفحة (٢١٦) سطر (١٥) قوله : ثم وصفه بانه مهاب والصحيح (مهيب) لأنه اسم مفعول مشتق من فعل ثلاثي واصله مهيوب (نقلت حركة الياء الى الصحيح الساكن قبله . واستغني عن ثاني الساكنين وهو الواو . وتحركت الهاء بالكسرة مناسبة للياء) .

ورد صفحة (٢٩٨) قوله : فلا ضرورة للتأويل لايجاد الحجج لتبرير شذوذ واضح لا لبس فيه . وتأمل أيها القارىء في هذه الجملة المهلهلة الضعيفة التركيب . وما اكره هذه اللامات المتعاقبة . وكان افصح واقوى لو قال : فلا ضرورة للتأويل الطويل وخلق الحجج قصد تبرير شذوذ واضح لا لبس فيه .

وهذا مثل آخر على ضعف التركيب من صفحة (٢٤٣) عن كان واخواتها : قال « وسميت افعالا ناقصة لأن الافعال الاخرى متى اخذت مرفوعها فهي كلام تام . ولكن هذه الافعال لا يتم بها الكلام الا باسمها المرفوع وخبرها المنصوب

لست اريد ان افيض في النقد والتعليق فالتتبع والاستقصاء يكلفاني وقتا طويلا بل اكتفي بهذا القدر من التعليق على الجزء الاول من الكتاب وسأتابع التعليق على الجزأين التاليين في الاعداد القادمة راجيا ان أكون قد اصبت شاكلة الرمي وحققت ما رميت اليه من نفع للغة العربية الكريمة والله من وراء القصد .

دنيا المغتربين — تأليف جمال الفرا

من منشورات دار الكتاب الجديد في بيروت كتاب شائق قدمه لنا الاستاذ جمال الفرا بعنوان « دنيا المغتربين » وحين يتحدث الاستاذ الفرا عن هذه الدنيا في حديثه اطلاع المجرب والمشاهد لها عن قرب والمتحسس لها بكل ما يأخذ جوانبها .

ولقد عايش الاستاذ الفرا هؤلاء الاخوة الذين نزحوا عن وطنهم وبقي هذا الوطن في رعشة قلوبهم يذكرونه لحظة اثر لحظة كما هم يتنفسون ، واليهم اهدى كتابه عرفانا بالجميل .

وقد تحدث الاستاذ الفرا في مقدمة الكتاب عن مشاعره لحظة فكر بتدوينه ؛ فتحدث كيف عاش بين اخوانه المغتربين اثناء تجواله في بلادهم الجديدة كثير ثم قال : لقد بدا لي ان خير ما اصنع هو تدوين بعض الذكريات عما رأيت وسمعت بين ظهرانيهم تكون صوراً واضحة عما رافق ويرافق حياة المغتربين في حلوها ومرها، آملاً في أن يستأنس بها المغترب فيزداد مضاء وعزماً ، وأن يتعرف المقيم اليه من خلالها فيفيه حقه وعيا وتقديراً .

وقد قسم الكتاب الى عدة فصول وهي : شمس ابت ان تغيب — أبونا — فراشة الفتيات الثلاث — من رسيف الى شواطىء فلسطين — سقتني حميا الكأس — ليلى الفلونية — أبو شاكر الجوبراني — حمص في المغترب — الاسد والنمر — ابناء اللواء .

وقد رويت هـذه الفصول بشكل قصصي جذاب ، برزت من خلالها شخصيات شعبية تمت في المهجر وهي طبق الأصل عن الشخصيات الشعبية في الوطن الام .

النفط في الجزائر — تأليف محمد صابر. نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي.

في سلسلة تبسيط العلوم صدر الجزء الخامس منهـا وهو بعنوان «النفط في الجزائر تطوره ومشاكله» تأليف محمد صابر ، التزمت طبعه ونشره «دار المعرفة بدمشق» .

وقد ضم الكتاب عدة موضوعات منها : تطور الصناعة النفطية في الجزائر — مكتب البحث عن البترول — المعهد الفرنسي للبترول — الشركة الوطنيـة لاجهزة البحث — الشركة المختصة بأعمال الجيوفيزياء — الشركات المالية للاستثمار — الشركة الوطنية للبحث والاستخراج — عمليات التنقيب والحفر — الاستثمارات في الصحراء — مصادر تمويل الاستثمارات — السوق الماليـة الفرنسية — الاستثمارات الاجنبية — قانون النفط الصحراوي — الخطة الخمسية الاولى — الخطة الخمسية الثانية — الاستثمارات في عمليات الكشف والحفر — وضعية واتجاهات الاستثمارات البترولية — مصادر الاستثمارات البترولية — الرساميل الاجتماعية للشركات — القروض — الخطة الاستثمارية الرابعة — توقعات الاستثمارات لعام ١٩٦٢ .

ثم خص الكتاب فصلا عن الشركات العاملة في الجزائر وتعدادها خمس عشرة شركة .. وعدد الفصل شركات التنقيب والاستخراج في الجزائر وتعدادها ست وعشرون شركة .

أما بقية الفصول فقد ضمت الحقول النجمية في الجزائر والانتاج والنقل والتسويق ومشاكله ومصادر التمويـل . ومستقبل البترول الجزائري والشروط القانونية للانتاج ، وقانون الترخيص ومساهمات الدولة الجزائرية في الانتاج .

ثم أثبت المؤلف في نهاية الكتـاب مراجعه العربية والاجنبية .. والكتاب يقع في ٢٥٥ صفحـة من القطع الكبير والورق الابيض مع خريطة ملونة تبين مواقع البترول ويباع بـ ٢٧٠ قرشاً سورياً .

إعلام الورى — تأليف محمد بن طولون الصالحي الدمشقي — تحقيق محمـد احمد دهمان

هذا الكتاب هو الجزء الثامن في سلسلة إحياء التراث القديم التي تقدمها وزارة الثقافة والارشاد القومي ضمن سلاسلها المختلفة في العلوم والفنون والآداب .

ولهذا الكتاب قيمة كبيرة نجملها بما يلي :

١ — حيثما سار الانسان في دمشق سمع باسم مملوكي ، وقد اصبحت البنايات المملوكية اعلاما على الاحياء التي توجد فيها . انظر مثلاً جامع التيروزي ، وحمام التيروزي ، جامع يلبغا ، جامع الافرم ، جامع تنكز ، حمـام منجك ، سوق جقمق ، المدرسة الجقمقية ، سوق صاروجة ، حارة الشالق زقاق سيدي عامود ، كيف اصبحت اعلاما على

امكنة دمشق ، ويتساءل الناس عن معناها وعن اصحاب هذه الاسماء وفي أي كتاب نجد تراجمهم.

٢ — في دمشق وما حولها من قرى وبلدان مراسم كثيرة من عهد المماليك ، وهي في حاجة الى نقلها وحل مافيها من الكتابة ، وهي لاتخلو من ذكر اسم سلطان العصر ونائب دمشق ، ومن الضروري الرجوع الى الكتب التي تعيننا على حلها ، وليس أجل ولا أجدر من كتابنا هذا .

٣ — ان الكتب التي تتحدث عن العهد المملوكي ممتلئة بالاخبار والحوادث عن مصر والقاهرة ، ونحن في حاجة الى الكتب التي تذكر الحوادث والاخبار في البلدان الاخرى التابعة للقاهرة ، وكتابنا هذا يسد فراغاً غير قليل في هذا الموضوع .

٤ — ان اول العهد العثماني في سورية عهد غامض ومصادره العربية قليلة لاتعرف فيها اسماء الولاة العثمانيين ولا تسلسلهم ولا اخبارهم لذلك كان تأريخ ابن طولون له اثر كبير في ايضاح اسمائهم وقص بعض اخبارهم وذكر سني توليتهم ووفاتهم او عزلهم .

٥ — ان اخبار جان بردي الغزالي ونيابته في دمشق واعلان استقلاله فيها وانفصاله عن الدولة العثمانية هي نادرة جداً في المصادر العربية وفي هذا الكتاب اخبار مفصلة عن هذا الرجل وما جرى له مع الحكومة العثمانية .

واخيرا لانظن احداً قد اوتي حظاً من الثقافة الا ويقدر هذا الكتاب وما جاء فيه من اخبار وحوادث . وهو يقع في ٤٠٠ صفحة من الورق الابيض القطع الكبير ويباع بثلاث ليرات سورية .

الأزمنة والأنواء — تأليف ابن الاجدابي — تحقيق الدكتور عزة حسن — نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي .

وهذا الكتاب هو الجزء التاسع في سلسلة احياء التراث القديم ، وهو لأبي اسحاق ابراهيم ابن اسماعيل المعروف بابن الاجدابي المتوفي حوالي سنة ٦٥٠ هـ ، وقد حققه الدكتور عزة حسن. والتزمت طبعه ونشره دار سمير أميس للطباعة والنشر بدمشق بتكليف من وزارة الثقافة والارشاد القومي .

ويمكن لنا استخلاص اكثر معارف العرب بالانواء والازمنة من شعرهم القديم في الجاهلية وصدر الاسلام : فقد اكثر شعراء العرب من ذكر هذه الامور في اشعارهم ودواوينهم والشواهد المأخوذة من شعرهم في كتب اللغة وغيرها تفيض بذلك ، وبعد الشعر تأتي الاخبار والاحاديث والشروح التي جمعها علماء الادب واللغة من البصريين والكوفيين وغيرهم ... أو وضعوها حول هذا الشعر ، في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، ثم تأتي بعد ذلك امثال العرب واسجاعهم الموضوعة خاصة لما يكون من حوادث الطبيعة في انواء النجوم ومطالعها ومغاربها .

ولا يسعنا أن نغفل هاهنا عن الاشارة الى ان العرب قد أخذوا شيئاً من معارفهم في الازمنة والانواء من جيرانهم من الامم السامية الساكنة

في البلاد الواقعة في شمال جزيرة العرب ، ولاسيما اهل بابل من الكلدان سكان سواد العراق .

هذا وقد استعمل العرب في الجاهلية السنة القمرية التي تدور شهورها في ايام السنة ولا تثبت، لنقصان ايامها عن ايام السنة الشمسية ، فكان الشهر من شهورهم يدور في فصول السنة المختلفة خلال دورة زمنية معلومة .. فبينا هو يوافق الصيف في سنة من السنين مثلاً اذا هو يوافي في الشتاء بعد سنوات .. كما هي الحال في ايامنا هذه بالنسبة الى السنة القمرية التي نسميها بالسنة الهجرية فشهر الصوم رمضان مثلاً يدور في فصول السنة، ولا يأتي في زمن معلوم لايحول عنه في كل عام .

فكبس العرب سنتهم القمرية بطريقة خاصة ، لتوافق شهورهم ايام السنة الشمسية وتعلموا ذلك من اليهود الذين وفدوا الى الحجاز واستوطنوه، بعد زوال دولتهم في بيت المقدس على ايدي الرومان وتفرقوا في الارض تحت كل كوكب .

حول هذه الاشياء دارت مواضيع هذا الكتاب وهو يقع في ٢٣٥ صفحة من القطع الكبير والورق الابيض ويباع بثلاث ليرات سورية.

محافظة حماة ــ تأليف مؤيد الكيلاني ــ نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي

هذا هو الكتاب الثالث في سلسلة « بلادنا » التي تصدرها تباعاً وزارة الثقافة والارشاد القومي . فقد سبق للوزارة ان اخرجت من هذه السلسلة كتابي « محافظة اللاذقية » و « محافظة السويداء » وهي ذي اليوم تضع بين ايدي القراء العرب كتاب « محافظة حماة » .

والكتاب علاوة على كونه مرجعاً موجزاً ثقافياً وتاريخياً يشكل دليلاً سياحياً الى الاماكن الاثرية وسجلاً للامكانات الاقتصادية والعمرانية والطاقات البشرية والثقافية .

يجد فيه المؤرخ مصدراً لابرز الحوادث التاريخية في عصور هذه المحافظة القديمة والحديثة ويرى فيه السائح مرشداً لكثير من المعالم والاماكن التي لعبت دوراً في التاريخ . كما يعرض جانباً كبيراً من تطور الاقتصاد ومدى تقدم العمران وحركة تزايد السكان واتساع نطاق التعليم ونمو الثقافة وازدهارها في هذه المحافظة .

هذا ، ولا تفوتنا الاشارة الى ان الاحصاءات البشرية الواردة في هذا الكتاب لم تأت ــ كما تريدها الوزارة ــ دقيقة كل الدقة ، لاسباب ثلاثة :

الاول : ان الكتاب وضع منذ اواخر عام ١٩٦٠ ولا يخفى على القارىء ما حصل خلال هذه الاعوام من الزيادة في المواليد .

الثاني : ان السنوات الاخيرة لم تجر فيها احصاءات رسمية مما اضطر المؤلف الى ان يعتمد على احصاءات سابقة .

الثالث : ان المواطنين في الريف السوري ، لم يعيروا ــ للآن ــ مسألة الولادات والوفيات وتنظيمها في السجل المدني ، العناية التامة ، الامر الذي يضع في طريق هذه البحوث كثيرا من الصعوبات .

ومع ذلك ، فالكتاب جاء وافيا بالغرض من اوجه متعددة وسد فراغاً كنا نشعر به ونتوق الى ملئه ، وتداركه .

ويقع الكتاب في ٢٤٥ صفحة من القطع الكبير والورق الابيض ويباع بثلاث ليرات سورية.

من ملفات القضاء ـ تأليف اسكندر لوقا ـ نشر وكالة اولومبيا للصحافة والاعلان ـ دمشق

«من ملفات القضاء» آخر كتب الاستاذ اسكندر لوقا ، وهو الجزء الاول يطرح فيه الكاتب مشكلة الجريمة وصراعها مع الخير والشر ولقد اختلف العلماء حول هذه المشكلة عبر سنوات طويلة ، واحتدم بينهم النقاش دون التوصل الى النتيجة الحاسمة .

وقد التقينا في هذا الكتاب بطائفة من الناس لكل منهم قصته التي جعلته بطل قضية وضحيتها، واما هؤلاء الذين مازالوا في السجون فان قصصهم لم تنته بعد ، ذلك لان السجن قد يكون او أنه كذلك بداية لقصة لايدري احدنا كيف ستنتهي.

ان شخوص هذا الكتاب نماذج ثابتة متحولة معاً لمعطيات هذه الحياة التي تؤكد صدق النظرية : الحياة الاشبه بالارض التي تنبت الازهار والاشواك جنباً الى جنب وفي وقت معاً . دون ان تعطي اي مبرر لآلية هذا الخلق العجيب .

كذلك يأتي الناس . بعضهم اقدامهم مشدودة الى اقدارهم وبعضهم الآخر يمضون ضحية التحولات الاجتماعية .

وهكذا عالج الاستاذ لوقا نماذج شخصيات هذا الكتاب من هذه الزاوية . . انه بالفعل شيء جديد في ادبنا الحديث ، جدير بالاهتمام والعناية لانه تعبير حقيقي عن قضايانا ونحن . . ومآسينا ونواجعنا نحن . انه انساننا الذي نشأ في بيئتنا وتطور من خلالها الى الخير والى الشر .

وقد رافقت حوادث الكتاب مطالعات حقوقية وتربوية واجتماعية .

تقاليد وعادات من وادي الفرات ـ تأليف عبد القادر عياش

عرف الاستاذ عبد القادر عياش باهتمامه بكل ماءمت الى وادي الفرات من صلة ، فأصدر حتى الآن العديد من الكتب تشكل بمجموعها موسوعة يمكن الرجوع اليها دائما لمعرفة اثر الحضارات القديمة والحديثة في وادي الفرات . وقد صدر له اخيرا كتاب هو الثامن في سلسلة وادي الفرات وقد خص التقاليد والعادات فيه .

وقد ضم الكتاب الجديد عدة ابواب ،الباب الاول : كان عن السلام والتحية في وادي الفرات وكيف يتبادلها الناس ، وفي ختام هذا الباب يقول ان الناس يستهجنون سلوك الشخص الذي يترتب عليه السلام ولا يسلم ويحملون ذلك محمل التكبر او سوء الادب او الجهل والسذاجة ويقولون معبرين عن وجوب السلام . السلام لله . ويعجبهم الشخص الذي يسلم ببشاشة في المناسبات . ثم جاء الباب الثاني عن الادعية الشعبية . فأورد عشرات الادعية التي يستعملها الناس في وادي الفرات ورد اصولها الى منابعها . وكان للعدد باب خاص في هذا الكتاب فأشار الى مجموعة اعداد لها كنايات واسماء خاصة عند العرب واخذ الاستاذ عياش في الحديث عن الدبكة والرقصات الشعبية في باب آخر وقال : ان الدبكة تعقد في مناسبات الافراح « الزواج ، الطهور ، الاعياد ، وعند الانتهاء من عمل هام ، وكل مادعى داع للتعبير عن فرح مشترك » ـ .

كما حوت الابواب الاخرى عدة بحوث جديرة بالاهتمام والدراسة والعناية منها : الدجال ، العاب الكعاب في دير الزور وغيرهما ...

الفنان

ولد وجيه مدور في دمشق . وابتدأ حياته الفنية عام ١٩٥٩ طالباً في مركز الفنون التشكيلية بدمشق ، وهو احد اعضاء جمعية اصدقاء الفن . اشترك في المعارض الرسمية وفي معارض الجمعية . وقد اقام في شهر كانون الاول الماضي اول معرض مستقل لاعماله ، ضم نماذج عن اسلوبه خلال اربع سنوات .

اللوحة

يؤمن الفنان مدور بالواقعية كمنطلق ولقد برع في استعمال الالوان كما برهن عن قوة في الرسم . وهذه اللوحة تمثل بعض محاولاته في تجاوز الواقع . واللوحة بالالوان الترابية (غواش) وهي موسومة على ورق باستيل بقياس ٤٣ × ٣٦



محمد وجيه مدور (منظر في الغوطة)   مجلة المعرفة   المطبعة الرسمية

الصحافة الادبية العربية

- الادب الفلسطيني الى أين يتجه .. ؟

الرائد العربي ـ الكويت

- حول رفض سارتر جائزة نوبل للآداب .. ؟

الآداب ـ بيروت

الرائد العربي ـ الكويت

صدر العدد ٥٠ من مجلة « الرائد العربي » التي تنشر في الكويت وهو عـــدد خاص عن ادب النكبة .

وقد تضمن العدد مقـــابلتين عن الأدب الفلسطيني منهامع الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي .

ومن بين الأسئلة التي طرحها الاستاذ ابراهيم ابو ناب على السيدة الجيوسي هذا الـسؤال .

ـ هل الشاعر الفلسطيني مطالب بأن يكون ملتزماً وبماذا يلتزم ؟ واجابت السيدة الجيوسي قائلة : ليس امام الشاعر مجال لاختيار موضوع التزامه ، انه ان كان شاعراً اصيلاً ملتزمـــاً تلقائياً بمصير الانسان حوله ، وبهذا الالتزام يعبر عن واقع جيله ويعكس صورة الحياة التي تحيط به : اي الحياة العربية في حالتنا نحن .

غير ان الشاعر الفلسطيني ، الى جانب تحسسه بالحياة العربية عامة فانه يعاني تجربة الاغتراب والاقتلاع . وهي تجربة مفروضة عليه . لنتذكر اننا نتكلم باستمرار عن الشاعر الأصيل . فالشاعر الاصيل لا يمكن ان يتخلص ، حتى ولو اراد ، من المعاناة لما يجري في الحياة حوله .

هذا يفضي بنـــا الى الاستنتاج ان الشاعر الفلسطيني منهمك بالتعبير عن واقع المأساة الذي اتخذ شكل الغربة وعن هذا الاقتلاع اما كيف يعبر عن هذه الغربة وعن هذا الاقتلاع فهو امر فني لا يمكن تخطيطه او مواصفته سلفاً .

اننا لا نستطيع ان نقرر سلفـــاً رد فعل الانسان للواقع الذي يعانيه وكيفية وصفه له . القصيدة تنطلق احياناً من النفس كالسهم الناري وبينا نستطيع ان نتحكم احياناً باتجاه بعض قصائدنا ، ضمن اطار التجربة الصادقة ، فاننا لا نضمن هذا التحكم دائماً . واحسن قصائدي هي التي كتبتها دفعة واحدة تقريباً ، وبعـــد ان انهيتهـــا حصل عندي ذلك الشعور بالراحة القصوى ، فكأن نفسي قـــد تطهرت ، انني لا

احرزّعلى مواجهة شاعر ما بخيطة فكرية لقصائده اني انتظر ، واقرأ قصيدته واترك نفسي ان تتأثر بها او تنسى كل شيء عنها .

غير ان بامكان الشاعر ان يهيء نفسه ويجهزها على شكل افضل .

ثم تناقش الاستاذ ابو ثاب والسيدة الجيوسي في شكل اسئلة واجوبة حول موقف الشاعرة من قضية الالتزام في الادب عموماً ، وما اذا كان الشاعر اكثر الفنانين تأثيراً ... وهل يدرك الشاعر الحديث عمق مسؤوليته ولماذا هناك اقبال شديد على الشعر في العالم العربي ، وسواها من الأسئلة التي تطرح الرأي العام باستمرار .

الآداب — بيروت

رفض سارتر مؤخراً جائزة نوبل للاداب، وقد اصدرت مجلة الآداب البيروتية عدداً خاصاً بسارتر بعنوان « تحية إلى سارتر » اشترك في تحريره كثير من كتاب العربية . وتحت عنوان « نحن وسارتر » كتب الدكتور سهيل ادريس يقول : لقد كان الأدب الوجودي الذي يمثله سارتر افضل تمثيل يعبر تعبيرا عما عاناه الجيل الفرنسي منذ كارثة الهزيمة الفرنسية في الحرب وبعدها . ولعل شيوع هذا الادب في وطننا العربي معزو الى ان الاجيال العربية الجديدة تجد فيه مايشبه التعبير عما تعانيه منذ كارثة فلسطين . لقد كان من المفروض ان ينشأ لدينا بعد هذه الكارثة ادب يعكس اوضاعنا وهمومنا ويعبر عن اشواقنا نحو هذه اللطخة من تاريخنا . ولكن اجيالنا الجديدة حين افتقدت هذا الادب ، الذي ربما كان بوسعنا ان نلتمس لعدم نشوئه بعض التبريرات ، راحت تبحث في الآداب الاجنبية عما يعبر عن قلقها وتمزقها وضياعها ، وآمالها كذلك ، فوجدت هذا كله في الادب الوجودي عامة ، وفي آثار سارتر خاصة .

ان جماع فلسفة سارتر يتجه الى ان الانسان ينبغي ان يكتسب جوهره بالحياة والعمل . فهو ليس شيئا آخر غير مايكونه بنفسه ، وهو مطلق الحرية بان يصنع بنفسه ما يريد ان يكونه او بالاحرى ما « ينزع » الى ان يكونه ، وهكذا تكون غاية الفلسفة ، بكلمة مختصرة قد تؤدي الى تشويه غناها الحقيقي ، خلق الانسان خلقاً جديداً يقوم على الحرية والمسؤولية .

وليس من شك في ان حاجتنا القصوى ، نحن العرب في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخنا ، هي ان نكتسب الحرية ، وان نضطلع بالمسؤولية . وهاتان الفكرتان ، الحرية والمسؤولية ، هما قطبا الفلسفة السارترية كلها . وقد اصيبت هذه الفلسفة بتحريف وتشويه عندما اختطفها جيل من الضائعين في فرنسا اثناء الحرب وبعدها ليجعلوا منها مرتكزهم السلوكي فاذا هم يقتطعون من قطبيها القطب الاول الذي هو الحرية ليمارسوها وفق امزجتهم واهوائهم ، ويسقطون المسؤولية التي هي الضابط والرقيب لكل حرية انسانية .

وليس في الفلسفات القديمة والحديثة فلسفة كالوجودية تحفظ للانسان — كفرد — كل قيمته لانها تربط هذه القيمة بالعمل الانساني ، والعمل الانساني وحده ، ولاتلقي المسؤولية الا على

هذا العمل . بحيث يكون الفرد هو خالق نفسه اولا واخيرا ، ومنه تنبع كل قيمة وفيه تصب .

واذا كان الانسان ، عند سارتر ، بلا جذور ، فلانه هو جذر نفسه ، واذا لم يكن ثمة في الخارج مايكسبه قيمة ، فلانه هو قيمة نفسه ، ولئن كان متروكا ، فلأنه حر .

وبعد ان يستعرض الدكتور ادريس مراحل فلسفة سارتر وينفي عنها انها فلسفة لا اخلاقية يقول : ثم اننا كنا ومانزال نجد تجسيدا لهذه الفلسفة في المواقف الرائعة التي وقفها صاحبها من قضايا الحرية في العالم . اننا لانستطيع ان ننسى مقالاته وخطبه وبياناته في الدفاع عن حق الشعب الجزائري بالاستقلال ، ولا ننسى انصار في عدة مظاهرات تأييدا لهذا الحق واستنكارا لسياسة الارهاب الفاشية التي كان يتبعها المسؤولون الفرنسيون في الجزائر وفي فرنسا . ونحن نذكر ابدا تحريضه الجنود الفرنسيين على التمرد والعصيان وعدم الذهاب الى الجزائر ، حتى لقد اتهم بخيانة فرنسا ، ونذكر بيان المئة والواحد والعشرين مفكرا فرنسيا الذي اشرف على وضعه ، وحرمانه من كل نشاط رسمي ونسف بيته في باريس ، ومحاولات الاغتيال المتعددة التي تعرض لها من قبل منظمة الجيش السرية .

ونحن نذكر موقفه المشرف الصادق في حوادث المجر . يوم استنكر تدخل القوات السوفياتية ، وهو الذي كان ومايزال من اكبر المتعاطفين مع الفكر الماركسي ، وكذلك موقفه من التمييز العنصري في اميركا وتأييده الثورة الكوبية ضد الاستعمار الاقتصادي الاميركي كما عبر عن ذلك في « عاصفة على السكر » وقد صدر له اخيرا كتاب خطير جمع فيه عددا من المقالات والخطب والمقدمات التي كتبها دفاعا عن حقوق الشعوب المضطهدة ، وفيها دراسة من اعمق الدراسات التحليلية عن سياسة لومومبا والاستعمار الجديد .

ولاشك في ان منح سارتر جائزة نوبل قد جاء متأخرا جدا في اوانه . ولكننا نعتقد ان سارتر كان سيرفض هذه الجائزة ايضا لو منحها في اوانها ، لان ذلك وثيق الارتباط بمواقفه كلها ، تلك المواقف التي اراد فيها دائما ان يثبت حريته واباءه بالكرامة وزهده بالاغراء المادي .



وزير الثقافة التونسي في سورية

زار سورية في الثاني والعشرين من الشهر الماضي السيد الشاذلي القليبي وزير الثقافة التونسي يرافقه وفد ضم السادة « مصطفى زبيس مفتش الآثار . وعثمان الكعاك محافظ المكتبة الوطنية ، ومحمد النيفر الامين العام المساعد لوزارة الثقافة التونسية ، وطاهر الشريعة مدير مصلحة السينما . . »

وقد قام السيد وزير الثقافة التونسي والوفد المرافق له بزيارة كبار المسؤولين في سورية ، كما اطلع على اهم معالم مدينة دمشق والآثار التاريخية فيها ، ثم قام بجولة على المحافظات السورية ،فسافر الى حمص وحماه والمعرة وحلب واللاذقية .

وفي صباح يوم السبت ٢٦/١٢/١٩٦٤عقد في المتحف الوطني بدمشق الاجتماع الرسمي بين الجانبين التونسي والسوري لدراسة مشروع البرنامج التنفيذي للاتفاق الثقافي المعقود بين القطرين الشقيقين . نوقشت فيه موضوعات العلاقات الثقافية بين البلدين وتوطيدها ووضع مشروع برنامج تنفيذي للاتفاق الثقافي المعقود بين البلدين على أن ينفذ هذا البرنامج في غضون عام ١٩٦٥ ..وقد صدر بلاغ مشترك تضمن هذه المباحثات ...

وخلال هذه الزيارة، القى السيد الشاذلي القليبي على مدرج جامعة دمشق محاضرة قيمة بدأها بقوله : (اني لجد معتز بأن التقي في هذا اليوم باخوان لنا في العروبة ، ابناء سورية الحبيبة التي تكن لها تونس محبة خاصة . ذلك ان التونسيين لاينسون أن هذا القطر كان في الماضي ولا يزال قلب العروبة النابض ، وهو الذي عمل في الأحقاب الماضية ولا يزال لبعث الوعي العربي القومي ، وبثه ، والدفاع عنه . وانه ليسعدني ان أحمل اليكم .. الى سورية تحيات أشقائهم في تونس الذين هم ايضاً ناضلوا ليكون الانسان العربي في تونس .

ثم استطرد السيد القليبي ليتحدث عن الكفاح التونسي .. فوضح انه لم يكن الا كفاحاً عربي الهوية ، يبتغي الذود عن (الذاتية العربية) التي حاول الاستعمار الفرنسي محوها وتهديمها .

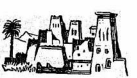
واستعرض السيد الوزير مراحل الحركة الوطنية في تونس ؛ فقسمها الى مرحلتين متميزتين: المرحلة الأولى قام بها لفيف من المثقفين ، كان تمضّهم الحالة .. إلا أنهم لم يتصوروا يوماً السبل المؤدية الى التحرر . ولذا اكتفوا بالمطالبة والتشنيع بالمظالم والشكاوى . والمرحلة الثانية .. وكان من أبرز ميزاتها أن القائمين بها نظروا الى الوضع نظرة شاملة . اذ ليست القضية أن نطالب ببعض الحقوق ، بل أن نستعيد السيادة . وقد تميز هؤلاء أيضاً بادخال فكرة التخطيط على الحركة الوطنية . وبالتحامهم الوثيق بالشعب ؛ أي (بجماهيريتهم) .. مع ابقاء الحوار مفتوحاً بين القادة والقاعدة .

(ولقد كان لهذه الاسس التي قام عليها كفاح تونس دور عظيم في تكييف العقلية التونسية بعد الاستقلال . وما نسميه الآن « الجهاد الاكبر » انما يهدف الى بناء مجتمع جديد وهيكل اجتماعي واقتصادي يضمن لتونس العزة والقوة . وكل ماينجز في أي قطر عربي هو لبنة في الصرح العربي الكبير) .

وعمد السيد الوزير بعدئذ الى شرح اهم ملامح حركة البناء الحاضرة في تونس . فأكد قبل كل شيء عروبتها . (فاذا كان هدف الكفاح ضد المستعمر هو الحفاظ على الذاتية العربية ، فان غاية – الجهاد الاكبر – هي تركيز وتمكين الذاتية العربية . ولايكون ذلك الا بتشييد مجتمع مزدهر عادل . . لقد شعرنا دائما ان الاستقلال وسيلة لتحقيق الاهداف ، ولذلك بدأنا على الفور معركة من أجل الرفاهية والقضاء على التخلف ، ووحدنا التعليم بعد أن كان مزدوجاً يقوم على لغتين . وعمدنا الى تصفية المعتقدات الدينية من كل ما علق بها من شوائب ، وحررنا المرأة ، واعتمدنا على التخطيط كأسلوب علمي للتقدم .

ثم ختم السيد الوزير محاضرته قائلا : (ان تونس مؤمنة ، وهي تخوض هذه المعركة الداخلية انها تدعم الكفاح العربي في جميع البلدان العربية . وتونس مومنة ان عملها في توحيد الشعب من الداخل هو خطوة ايجابية وواسعة لتوحيد المغرب الذي هو لبنة في صرح الامة العربية التي تصبوا الى الحرية والكرامة والى لم شمل جناحي الامة العربية في المشرق والمغرب .)

هذا وقد غادر السيد الشاذلي القليبي والوفد المرافق له دمشق في صبيحة يوم الاحد ١٢/٢٧ ١٩٦٤ ، وذلك بعد انتهاء زيارته لسورية.



حول مقال :

(العرب بين الفتوح والتحرير)

من : محمد الحسناوي - حلب

لدى مطالعتي مقال السيد سلامة عبيد « العرب بين الفتوح والتحرير » في العدد الثلاثين الماضي من مجلة المعرفة الموقرة لم استسغ المنهج الذي عالج به الكاتب هذا المقال، ولا النتائج التي انتهى اليها ، فأعدت قراءته ثانية وثالثة ، . فلم أجد بدأ من عرض وجهة نظري للسادة القراء الذين خوطبوا بهذا المقال .

لقد ذهب الكاتب الى اعتبار كلمة (الفتوح أو فتوح البلدان) تعبيراً قاصراً عن تلك الانطلاقة العربية الفكرية والعسكرية في فجر الاسلام ، لذلك يدعونا الى (ان نميز بين التحرير وبين الفتح ومن ثم ان نميز بين حركات الشعوب المغلوبة ، لا على أساس العصيان والتهديم والمجوسية والشعوبية فحسب بل على اساس من مشاعر القومية أيضاً .) وفي هذه الدعوة ما فيها من الغاء لمصطلح تاريخي معبر درج عليه أساطين مؤرخينا القدامى والمحدثين عن وعي وقصد وتدقيق ، ... هذا الالغاء الذي يحجب الاجيال والباحثين في المستقبل عن الفهم المباشر لمصطلحات المؤرخين ، شأنه شأن الغاء اسماء المخترعات والاعلام والمذاهب الادبية والفكرية وما شاكل ، وما يعقب ذلك الالغاء من بلبلة وغموض . ثم من قال ان كلمة (الفتح) لا تنطوي على (التحرير) معنى ومبنى وواقعاً ؟ أما الواقع التاريخي فقد سلم به الكاتب فيما يخص أرجاء الوطن العربي فلا خلاف فيه ، اما بالنسبة للأوطان الأخرى كبلاد فارس والهند والصين والأناضول والأندلس فان الكاتب هو الذي اختلق الحرج بسبب تصوره الخاص لمدلول كلمة (الفتح) مما حمله على تأول الاسباب

والاعتداء . فهو يتصور او يظن بل يعتقد ان كلمة (فتح) تعني بالضبط بالأجنبية Conquête على طريقة بعض المستشرقين ، وكان لزاماً عليه قبل أن يستقر في فكره هذا الاعتقاد — وهو يريد الدقة — أن يستقريء اصول الكلمتين العربية والاجنبية من الزاوية اللغوية والتاريخية والاصطلاحية . فكلمة (Conquête) تعني بالضبط (القهر والغلبة) العسكريتين على حين تعني كلمة (الفتح) غير ذلك : وهي كغيرها من الألفاظ ذات معنى حقيقي وآخر مجازي ، اما معناها الحقيقي فهو فتح الابواب المغلقة ، أما معانيها المجازية فكثيرة كالنصر ، والحكم او القضاء ، والمطر ، وتفجير ماء الساقية . ولم تنص المعاجم المتقدمة الموثوقة مثل لسان العرب وصحاح اللغة والقاموس المحيط وأساس البلاغة على ما ذهب اليه الكاتب ، وان كان الانصاف يقتضينا ان ننبه الى مسألتين : اولاهما ، هي ان معجماً متأخراً — المصباح المنير — قد اورد فيما اورد من معاني كلمة (الفتح) معنى الغلبة والقهر دون شاهد أو دليل . والمسألة الثانية ، هي ان كلمة (الفتح) ان انطوت على معنى الغلبة والقهر حقاً فإنها تنطوي على اشياء اخرى كما نعلم كالهداية والتحرير والاعمار ؛ ومن يأخذ بشق واحد للكلمة يبني عليه بناء ما فانما يسلك مسلك من أخذ بقوله تعالى : « لا تقربوا الصلاة » وأغفل تتمة الآية « وأنتم سكارى » . واذا علمنا أن مقال (العرب بين الفتوح والتحرير) مبني على هذا التحريف لمدلول كلمة (الفتح) سقط المقال كله . ولا بأس أن نشير في هذا المجال الى ان الله تعالى جعل من أسمائه الحسنى (الفتاح) : أي الحاكم ، انه لم يجد بأساً في استعمال اللفظة بمختلف اشتقاقاتها في كثير من الآيات كمثل قوله: « اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً . » بمناسبة فتح المسلمين لمكة . فما رأي الكاتب بهذا التعبير : (فتح مكة) وماذا يقترح له من اصطلاح جديد ، هل يقول : (تحرير مكة) ?! وماذا يقول في التعبيرات العربية المستحدثة (الفتوح العلمية) في ميدان الاكتشافات والاختراعات ? والمستخلص من المعنى اللغوي المعجمي الحقيقي والمجازي وكذلك المصطلح التاريخي ان كلمة الفتح تعني : فتح أبواب الهداية الاسلامية المحبوسين عنها بالجهل ام بالحصون العسكرية . ولقد جاء في تاريخ الفتوح ان قائد الجيش الفارسي قال لقائد جيش المسلمين قبل القادسية: ماذا تريدون منا ? ان كنتم فقراء اغنيناكم وأن كنتم ... فقال له ما جئنا لهذا ، وانما جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد الى عبادة الواحد القهار . قال قائد الفرس : اترجعون الى بلادكم اذا دخلنا في دينكم ? قال له : نعم ، ولا نأتيكم الا لتجارة او زيارة ...

ثم ماذا يعني الكاتب بقوله : (ان نميز بين حركات الشعوب المغلوبة ، لا على أساس العصيان والتهديم والمجوسية والشعوبية فحسب بل على اساس من المشاعر القومية أيضاً) ? ترى هل يعني التسامح الانساني والدعوة الى ما دعا اليه

الاسلام من قبل : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) (لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى) (الناس سواسية كاسنان المشط) (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا ؟) او يعني شيئاً آخر كالاعتراف بدولة كردية منفصلة ؟

ثم هل كان كاتب المقال صـــدقاً في الفاظه وتعابيره واحكامه حين دعا الى التدقيق والأمانة والاخلاص ؟ فمثلاً يقول : (ان العرب كانوا **اجمالاً على كثير** من مكارم الأخلاق في تعاملهم مع الشعوب المغلوبة) ويقول : (ولم يلاحظ **اجمالاً** فتوحاتهم أنهم تساهلوا في هذه الرسالة) ويقول : (وبالرغم من كل ما امتازت بـــه الفتوحات العربية **نسبياً** من رحمـــة وحسن معاملة ..) ـ هل يجب الكاتب ان يظهر بمظهر الباحث الموضوعي الذي لا يعمم اذ يستدرك فيستعمل كلمات مثل : (اجـــمالاً ، على كثير ، اجمالا ، نسبياً) ؟ مع ان التعميم في مثل هذا المقام لا يعني الاضطراد ، ولكن العكس يعني التشكيك . ومع ذلك هلا ضرب الكاتب أمثلة لهذه الاستثناءات او اشار اليها ؟ .

وفي مكان آخر نلاحظ التناقض في حكم واحد خلال فقرة صغيرة واحدة ، فتارة يحكم على الفتوحات بأنها بارزة عظيمة وتارة يطعن بها اذ يقول : (ان عهد الفتوحات فترة من ابرز واعظم فترات التاريخ العربي الاسلامي الا انه لم يعد من اللائق ان تظل معالجتها التاريخية ولا سيما في كتبنا المدرسية بتلك الروح التي تبدو متعطشة الى ان تعيد فتحاً وهمياً عدائياً آخر) .

انني اناقش بروح الهدوء والموضوعية التي لا بد منهـــا حتى الآن ، وانا في الحقيقة غير هادىء ومتجلد ، ولكن هل يتجلد السادة القراء حين يقفون على احكام كاتب المقال . لا سيما سخريته بشعب غينيا الشقيق الذي لا يزال يعلق على ظهور أطفاله الذكور مفاتيح بيوت اجدادهم القدامى التي كانت لهم في الانـــدلس مسقط رأسهم ، ولا يتورع الكاتب عن ان يصف ذلك بأنه (تنشئة متلبسة بالفاشية) او بـ (التحريض المبطن على الفتح والامبريالية) على حين يعتبر نكبة الأندلس الفاجعة ومحاكم التفتيش البربرية فيها وابادة حضارة بكاملها من مؤلفات وعلماء وامثالها في شرق الأرض وغربها (معارك تحرير) و (انتفاضات شعوب) !!

●

اعلام الأدب والفن

السيد رئيس تحرير المعرفة :

ورد في الصفحة (٢٤٠) في قائمة المصادر المنشورة في مؤلف « مسرح عربي قديم » ، ان (اعلام الأدب والفن هو تـــأليف الاستاذ احمد الجندي) ، والصحيح انه من تأليف ادهم الجندي ، فيرجى التنويه عن ذلك .

ادهم الجندي

(استدراك وتصحيح)

ورد في الصفحة السادسة والثمانين من عدد المعرفة رقم «٣٣» في مقال (مع العقاد الشاعر) كلام مختلط بغيره سهواً وصوابه كما يأتي :

وهذه الابيات من بحر مخترع لا يد للخليل فيه وهو على وزن : فاعِلُنْ فاعِلُنْ :

وقد سبقه للاختراع مجدد الشعر العربي في العصر الحديث ومحيي دولته ورافع رايته محمود سامي البارودي اذ نظم قصيدة خمرية على وزن فاعِلُنْ فَعَلْ : مطلعها :

أعطِني القَدَحْ
وَاعصِ مَنْ نَصَحْ

وجاراه شوقي بقوله :

مالَ واحتجبْ
وَادّعى الغَضَبْ

وجاراه الكاظمي بقوله مادحا سعد زغلول :

انتَ لا جَرَمْ
بَدْرُنا الأتمّ

وأول من خرج عن عروض الخليل الشاعر ابو العتاهية بقوله متغزلا :

عُتْبَ ما لِلخَيالِ
خَبّريني وَمالي
عُتْبَ مالي أراهُ
طارقاً من ليالِ

وهو على وزن : فاعِلُنْ فاعلاتُنْ :

فلما قيل له خرجت عن العروض أجاب انا سبقت العَروض ثم تلاه بعض الشعراء كمسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني والأندلسيون ببعض موشحاتهم .

المؤتمر الدولي للموسيقى العربية في بغداد

اعداد قلم التحرير
من مجموعة رسائل

افتتح في بغداد يوم السبت ٢٨ تشرين الثاني، نوفمبر، المنصرم، (المؤتمر الدولي للموسيقى العربية) ، بدعوة اللجنة القومية لليونسكو، في بغداد ، وإشراف التعاون الثقافي ، والفني في وزارة الثقافة والارشاد .. كما اقيم بمناسبة المؤتمر الدولي (معرض للكتب الموسيقية العربية) ، و(معرض الآلات الموسيقية المختلفة) ؛ وقد استغرق المؤتمر اسبوعاً كاملا ؛ القيت فيه المحاضرات العلمية ، والفنية ؛ واجريت فيه المناقشات حول ماجاء فيها من موضوعات ، وآراء ؛ كما اتخذ المؤتمرون في ختام اسبوع المؤتمر مقررات هامة ، للنهوض بالموسيقى العربية .

وقد استهدف المؤتمر بحث ، ومناقشة الموضوع الاساسي ، والكبير ، وهو : — تثبيت اسس الموسيقى العربية — ، ورسم الخطة لتطويرها ، والنهوض بها من النواحي الاجتماعية والعلمية ، والفنية ؛ وقد اشترك في المؤتمر ثماني دول عربية ،وتسع دول اجنبية ؛ هي : الجمهورية العربية المتحدة ، وسورية ، ولبنان ، والعراق ، وتونس ، والمغرب ، وليبيا ، والسودان ؛ ثم تركيا ، والاتحاد السوفييتي ، واسبانيا، وهنغاريا ، والهند ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمانيا الاتحادية ، وممثل من جامعة الدول العربية ، وفرق فنية من دول اخرى ..

كلمة ممثل اليونسكو

تناولت كلمة (الدكتور أسد الله كاظمي) ، ممثل اليونسكو في بغداد ، أهمية التراث الموسيقي لدى العرب ، وأثر المجتمع ، والدين فيه ؛ ودعا

الى الاهتمام بتأثير الموسيقى الغربية على الموسيقى العربية الاصيلة ؛ كما دعا الى جمع (المخطوطات العربية) حول الموسيقى ، والتي ماتزال مبعثرة في انحاء العالم ، وتخصيص البعثات لدراستها ، وتمحيصها..

كلمة ممثل جامعة الدول العربية .

وأشار (الدكتور محمود أحمد الحفني) ، ممثل جامعة الدول العربية ، في المؤتمر الى عناية الجامعة العربية بشؤون الموسيقى العربية ، وبين أنه عقد في عام ١٩٣٢ اول مؤتمر للموسيقى العربية ، كما استعرض الجهود الاخرى التي بذلت في هذا السبيل ؛ كما أضاف ان علينا ان نقيم موسيقانا ، وان نضاعف الجهد للبناء ، لكي نعوض فترات التخلف ، والضعف ؛ او بالاحرى فترات ما خلفه الاستعمار من ركود ..

كلمة أمين عام المؤتمر

وفي اليوم التالي ألقى أمين عام المؤتمر ، ورئيس الوفد العراقي الى المؤتمر السيد (زكريا يوسف) بحثا ، بعنوان ـ التخطيط الموسيقي للبلاد العربية ـ ؛ فاستعرض الجهود التي بذلت ، والتي ستبذل لرسم طريق قويم لنهضة في الموسيقى العربية ، وأشار الى ان المؤتمر الاول للموسيقى العربية قد انعقد عام ١٩٣٢ ، في القاهرة ، وانه كان بحق من اضخم المؤتمرات الفنية ، وان المقررات التي وضعها يصح ان تعتبر ، أكمل خطة لبناء النهضة المطلوبة للموسيقى العربية ؛ كما أشار الى ان تلك المقررات والتوصيات لم تنفذ ؛ وظلت (مشكلة السلم الموسيقي) ، و (مشكلة الآلات) معلقة بغير حل حتى الآن ..

وقال ان مهمتنا اليوم لاتقتصر على تقديم الآراء حول ماذا نعمل للنهوض بالموسيقى العربية بل من الضروري أن نتعداها الى كيف نعمل للنهوض بالموسيقى العربية ، لأن بلادنا اليوم تمر بمرحلة (تصميم ، وعمل) ؛ ودعا الى المبادرة الى جمع تراثنا الموسيقي ودراسته ، واستخراج القواعد منه ؛ واقترح انشاء (مجمع علمي موسيقي) ، يكون بمثابة مركز رئيسي ، وتكون له فروع في كافة البلاد العربية ، يقوم بالدراسات والبحوث اللازمة ، ويأخذ على عاتقه انشاء (متحف للآلات الموسيقية) ، ومختبر فيزيائي لاجراء البحوث الصوتية ذات العلاقة بالموسيقى وغيرها ..

وسائل احياء الموسيقى العربية

وعلى أثرها تحدث الاستاذ (مجدي العقيلي) ممثل سورية في المؤتمر ، عن الموسيقى العربية ، وعلاقته بالموسيقى الشرقية ، والغربية ، فذكر ان التراث الموسيقي العربي زاهر بتاريخه ، غني بمواده ، وقواعده ، وسلالمه ، وانغامه ، واوزانه ؛ وان اليقظة الفكرية الراهنة في الدول العربية كفيلة بأن توجد له اسباب احيائه ، وازدهاره من جديد بعد ركوده الطويل . واضاف السيد العقيلي أنه للنهوض بموسيقانا العربية يجب اقرار (السلالم الموسيقية الصحيحة) ، واحداث المعاهد الموسيقية والمناهج التعليمية على شتى المستويات ؛ وبذلك يتعرف الاحفاد على ما خطه يراع الاجداد ، وتعم المعرفة الفنية ، وتوصل حلقات السلسلة الحضارية بعضها ببعض بين الماضي والحاضر ..

معالم على طريق تطوير الموسيقى العربية

ووصفت (الدكتورة سمحة الخولي) من الجمهورية العربية المتحدة ، في بحثها الخطوات الواجب اتباعها لتطوير الموسيقى العربية ؛ وقالت انه لابد من اعادة النظر في طرق (تدريس الموسيقى) للأطفال ، على ضوء ابحاث تجريبية في التربية الموسيقية ، على ان تكون خبرة الطفل الاولى مرتبطة بجذورها المحلية الشعبية ؛ ويجب انشاء قسم للدراسات الموسيقية بالجامعة ، والعمل على اصدار كتب دراسية للآلات العربية ، واعادة طبع (مجموعة الاسطوانات) التي سجلت في مؤتمر عام ١٩٣٢ ، على نطاق واسع لتداولها في معاهد التعليم الموسيقي في البلاد العربية .

السلم العربي والموسيقى الأجنبية

أما الاستاذ (صالح المهدي) ممثل تونس في المؤتمر ، فقد تحدث عن السلم العربي ، وصلاته بموسيقى البلاد الاجنبية ، وقال أن (السلم الخماسي) الذي عرف في جنوب الجزيرة العربية والصعيد المصري ، والسودان ، وشمال افريقية وحتى الاندلس أثر في شعوب افريقية السوداء والشرق الاقصى ، مع فوارق جزئية في طريقة الأداء ، أما (سلم الدرجات الصوتية) التي لاتتجاوز الخمسة أصوات متتابعة فقد أثر في الاتراك والفرس واليونانيين وبلاد ماوراء النهر من جمهوريات الاتحاد السوفياتي ، وأثر النوع الثالث من السلالم ، وهو (سلم المجموعات الكاملة) التي تعم المقامات العربية المعروفة في بلدان البلقان وامريكا اللاتينية واسبانيا .

المقام العراقي

وكانت المحاضرة الاولى في اليوم الثالث لمطرب العراق الاول الاستاذ (محمد القبانجي) . وقد كرسها للحديث عن (المقام) الذي يعتبر القبانجي من أشهر مغنيه ، ومجدديه ، وذكر ان ليس في الغناء العراقي أية حدود تمنع من تطويره ، اوتحد منه ، على ان يكون هذا التطوير تابعاً لجوهر وفن المقام ، الزاخر بجميع النبرات الصوتية ، والانغام الشرقية . واضاف القبانجي أنه يستنكر الاغنيات التي يتعمد ملحنوها ادخال الالحان الغربية عليها ، بتوزيع موسيقي أجنبي ذلك أن (الموسيقى الشرقية) ليست بحاجة الى ان تستعير الانغام من غيرها .

ثم ألقى السيد (عبد الوهاب بلال) عضو الوفد العراقي بحثاً عن (مقام اللامي) ، وهو مقام غير معروف في البلاد العربية عدا العراق ، وأخذه بعضهم لموسيقيين من العراق ، وقال الفنان بلال انه بالامكان تنويط (المقامات العراقية) كـكلام موسيقية ، وان المقامات العراقية سبعة ومقام اللامي مقام فرعي ، وبسلم خاص . وقد قدم محمد عبد الوهاب مقام اللامي ، هذا النغم ، في اغنية ياللي زرعت البرتقال عام ١٩٣٧ . وقد استمع المؤتمرون بعد هذه المحاضرة الى الفنان (القبانجي) وهو ينشد هذا المقام ، المقام اللامي . .

مشروع الموسيقى العربية

وقدم أثرها الاستاذ (ميخائيل الله ويردي) عضو الوفد السوري ، في محاضرته — جولة في علوم الموسيقى — مشروعا وصفه بأنه يفيد الامة

العربية والانسانية جماء ، تصبح به لغة الموسيقى العربية لغة الموسيقى العالمية ، ولن يؤثر التصحيح المنشود على الفكرة الفنية في أي لحن كان .. وذكر الاستاذ الله ويردي الفوائد التي ستجنيها الانسانية من الوجهة المادية ، والوجهة المعنوية منه ، وتنفيذه عن طريق تأسيس اكاديمية الموسيقى العربية ، وتعميم (لغة الموسيقى الطبيعية) ذات الدقة التامة ، ثم يتخذ المشروع سيره الطبيعي ، خطوة ، خطوة ..

الايقاع الاوروبي، والموسيقى الشرقية

ثم القى البروفسور (ج . استاسيلاف) عضو وفد تشيكوسلوفاكيا ، بحثاً عن أهمية الايقاع الأوربي في تطوير الموسيقى الشرقية ، وقد بين أنه يؤيد الفكرة القائلة بان ليس هناك الا فن واحد في العالم ؟ كما قال ان العقل الموسيقي للموسيقيين العرب كان غنيا جدا ، مما ساعدهم على تكييف تجربة العصور القديمة بأسلوبهم الخاص ، وقال ان العرب تمكنوا من خلق (لغة موسيقية ناجحة) ، من شعورهم ، ومعرفتهم بالروح الانسانية ..

الالكترون في خدمة السلم الموسيقي العربي .

وفي اليوم التالي القى (الدكتور فؤاد رجائي) عضو الوفد السوري ، محاضرة عن الالكترون في خدمة السلم الموسيقي العربي ــ فتحدث عن اختراع جهاز الكتروني مهمته تثبيت (درجات السلم الموسيقي العربي) ، أي السلم الطبيعي ، وتحديد ابعاده ، ليكون في المستقبل السلم الموسيقي العالمي نظرا لغناه وسعة مداه ؟ وقال ان اجهزة سابقة قد سويت كانت تسجل ذبذبات متباينة ، كل ذرتين معــا ، او كل عشرة او عشرين ، او خمسين ، في حين سلمنا يحتاج الى ادق من ذلك ، وهو مايحققه الجهاز الجديد المقترح ...

محاضرات ، وبحوث اخرى

وتناولــت المحاضرات والبحوث الاخرى للمؤتمرين ، الموسيقى الوطنية ، والعقبات في طريق نموها ، والتطور الموسيقي والنمو الاجتماعي في الشرق الادنى ، والموسيقى المغربية الممياة الدلسية وفن الايقاع في المقامات العراقية ، والموسيقى العراقية القديمــة ، والشعر الاندلسي ، والموسيقى الآرامية والعربيــة في الكنائس ، والموسيقى الهندية ، وتأثير الموسيقى العربية في الموسيقى الهندارية ، وهيمنة الموسيقى العربية ، والاغاني العراقية ، وقيمتها التصويرية ، وموسيقى التلاوة والمقرؤون البغداديون ، والموسيقى في شمال السودان .. وغيرها .

مقررات المؤتمر

وقد اتخذ المؤتمر ، في ختام جلساته (مقررات هامة) ، شملت مختلف القضايا الهامــة للنهوض اجتماعيا ، وعلمياً ، وفنياً ، بالموسيقى العربية ؛ نلخصها على التالي فيما يلي :

ان هيئة المؤتمر الدولي للموسيقى العربية يوصي الدول العربية (احيــاء لتوصية المؤتمر الاول للموسيقى العربية المنعقد في القاهرة عام ١٩٣٢)

بانشاء (هيئات موسيقية قومية) في كل منها تتولى بحث مسائل الموسيقى العربية في شتى الميادين ، وخدمة (الموسيقى الشعبية ، والفنية) ؛ على أن تمثل الهيئات في (مجمع) عام للموسيقى العربية .

العناية بالتربية الموسيقية في التعليم ومراحله كافة ، خاصة الجامعية منها ؛ والمشاركة بالجمعية الدولية للتربية الموسيقية ؛ واصدار معجم لمصطلحات الموسيقى العربية ؛ مع اهتمام وسائل الاعلام العربية ، بالفرق الموسيقية الشعبية والفنية [illegible] التسجيلات فيما بينها ..

واخيراً عرض جميع الدراسات الخاصة [illegible] العربي عامة ، والابحاث التي قدمت الى [illegible] العلمية ، والفنية ، والفيزيائية ، على (مجمع الموسيقى) العربية) المزمع انشاؤه للبت فيها ؛ مع الـ[illegible] ب(اصدار مجلة) تعنى بشؤون الموسيقى والعربية خاصة ، واصدار ثبت جديد [illegible] الموسيقى العربية ..

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

يقدمها: فؤاد الشايب

نتابع البحث في نظريات فئة من القادة الأسيويين والأفريقيين الذين يدعمون نظام الحزب الواحد او الموحد في الحكم - مع جوليوس نيريره رئيس جمهورية تنغانيكا ، وهو من كبار المثقفين الافريقيين - سنشرف على طرف من المشادة بين نظامي الحزب الواحد و (المعارضة) في افريقية - وسنلم بشيء من ممارسة حكم الشورى ، على طريقة بعض المجتمعات الاسلامية التقليدية في آسيا وافريقية .

وهكذا ، يمكننا حصر الأفكار الأمات ، التي تصدر عنها فلسفة هذا المثقف السياسي الافريقي — مادبرا كينا — (*) في رفض البرلمانية الغربية، واتهاج مبدأ الحزب الواحد الحاكم بالخطوط التالية :

أولاً ، وقبل كل شيء ،ان البرلمانية ذات الأحزاب ،سبيل الى انجاح محاولات

(*) جولة الشهر — المعرفة — عدد ٣٣ لشهر تشرين الثاني ١٩٦٤ .

التفرقة والبلقنة في افريقية ، تحت ستار تمثيل الفئات والطوائف والطبقات والأجناس . والحزب الواحد أو (الموحد) ليس تمثيلاً لضرورة الوحدة الوطنية فحسب ، بل لحقيقتها القائمة التي يجب ان يكون الحرص عليها ، هدف الحكم الرئيسي .

ثانيا ـ ان الحرية السياسية لا يتهددها شكل نظام الحكم ، مهما كانت قيمته النظرية ، بقدرما يتهددها التخلف ومايعنيه من فقر وجهل وعجز . فالشرط الاجتماعي والظرف التاريخي ، انما يميزان المجتمع الافريقي عن سواه من المجتمعات الاوروبية في شروطها وظروفها الراهنة ، ويحتمان عليه ان يجعل خوض المعركة الحاسمة مع التخلف ، شعاراً له ودثارا .

ثالثا ـ ان ابرز ملامح الحكم الصالح في مجتمع متخلف هو الاستمرار والاستقرار .

رابعا ـ ان التخطيط الاقتصادي والاجتماعي ، ضرورة مبرمة ، ليس من اجل تسريع التقدم ، واحراق المراحل ، ولا من أجل تعميم العمل ، ودفع عملية الانتاج ، ورفع مستوى المواطن . فحسب بل من اجل ردع الحزب الواحد الحاكم عن ان ينقلب الى مجرد آلة حكم عشوائية ، تأكل الدولة وهي عقيم . ان السيادة هي للخطة من فوق . فاذا ما اتيح للمجتمع ربح مساقة ، وكان الشعب حول الحزب والتخطيط ، فقد يرفع الحماس جمهور المواطنين الى مثل شعور النخوة الدينية .

خامسا ـ يجب تطويع العمل الحزبي لمفاهيم الحرية البديهية ، التي ترافق عادة حياة الناس ، وامنهم ، ورزقهم ، وشعائرهم ، وللممارسة الديموقراطية بالانتخاب في اختيار ممثلي الشعب ومسؤولي السلطات .

جوليوس نيريره ـ تنغانيكا ـ

وسنتناول فيما يلي نموذجاً آخر من القيادات الافريقية ، الداعية الى نظام الحزب الواحد في الحكم ، في شخص رئيس جمهورية تنغانيكا الحالي ، جوليوس نيريره .

ليس في حياة الرئيس نيريره الشخصية مايمكن ان يقودنا الى ينبوع خفي من منابع تفكيره ، كزعيم افريقي مناضل ، وكمثقف

في المدرسة الغربية الانكليزية . وقد تكفي الاشارة العابرة ، الى أن من أهم اسباب تمسكه بنظام الحزب الواحد ، انه بالواقع مؤسس حزب (الاتحاد الوطني الافريقي في تنغانيكا عام ١٩٥٤) الذي خاض به ، وحده ، معركة الحرية ، حتى بلغت تنغانيكا استقلالها عام ١٩٦١ . انه خريج جامعة ادنبره ، وعندما انتخبه الشعب رئيساً لجمهوريته المستقلة كان لم يتخط الاربعين . ولعل أول ماتتميز به فلسفة الحكم لديه ، كأفريقي تثقف ثقافة انكليزية ، انه يرفض اسلوب الحكم الانكلو ساكسوني ، لبلاده ، رفضاً مبرماً . فلا تعدد الاحزاب واجب برلماني، ولا المعارضة شرط لممارسة الحياة الديموقراطية : ان نيريره من فئة القادة الافريقيين والاسيويين الذين لا ينظرون الى (الحزب الواحد) كأداة ضرورية للوحدة الوطنية ورص صف النضال من اجل التقدم ، فحسب ، بل هو تعبير عن حاجة نفسية ترمي الى نزع كل لباس يرتديه المستعمرون الغربيون ، مهما يكن شأنهم في الازدهاء به والتفاخر . وان ادعاءهم بأنهم يحتكرون أزياء الحكم المناسب لكل زمان ومكان ، ادعاء غرور ووهم .

وليس أدل على أن الخروج على ممارسة الديموقراطية الليبرالية الغربية ، حاجة من حاجات النفس المتمردة ، مثلما هي ضرورة من ضرورات الحياة في المجتمعات الآسيوية الافريقية الناشئة ، من وضوح هذا التباين بين المتمردين على الدول الغربية صاحبة الاستعمار العتيق ، وبين الموالين له ، سياسياً وفكرياً ، حتى بعد الحصول على الاستقلال . فالاولون يرفضون طراز الحياة الغربية ، مهما زينت لهم ، والآخرون يمارسون الاستقلال تحت جناح الرعاية الغربية ، فكرياً وعقائدياً وسياسياً ، ويجاهرون بالولاء للمعسكر الغربي ظالماً أو مظلوماً . من هؤلاء — مثلاً — القائد النيجيري ، وأحد كبار المثقفين الافريقيين ، (نامدي ازيكيوه) Nnamdi - Azikwe الذي يفاخر بشهادة بريطانيا أن بلاده نيجيريا ، قد حصلت على جدارتها بالاستقلال ، إذ من مبادىء السياسة البريطانية المقررة — كما يقول ازيكيوه — أن لا مستعمرة بمستحقة استقلالها عن

الادارة البريطانية، حتى تجعل الديموقراطية، حقيقة سياسية. **وبصراحة أن بريطانيا ترفض منح أي من مستعمراتها الاستقلال مالم يقم الحكم الوطني الجديد، نظام الأحزاب والمعارضة ..!** لأن الحزب الواحد، مهما تكن مبرراته، ليس سوى مركب الجماعة الحزبية نحو ممارسة الدكتاتورية.

ليس الرئيس نيريره، على كل حال، عدواً للعسكر الغربي، برغم رفضه الطقوس الفكرية والسياسية التي يحاول المستعمر القديم فرضها على مستعمراته المتحررة. لذلك فهو لا يزعم أن البرلمانية ذات الأحزاب، ليست ديموقراطية، ولكنها اذا صدف أن مارستها بلاد اوروبية، فان ذلك لا يمنحها العمومية لتغدو ضرورة سياسية مطلقة تبلغ حد (العقيدة). وان نيريره اذ يناقش اصحاب النظرية الغربية يتساءل عما يمكن أن يفعله جماعة حزب المحافظين أو حزب العمال في بريطانيا، في حال انتصار احدهما على الآخر انتصاراً كاملاً بحيث يستولي بالانتخاب على جميع مقاعد البرلمان !؟ يجيب نيريره على السؤال بأن الحزب الرابح سيكون مغتبطاً اذ يشكل حكومة حزب واحد ! **ولا نظن جماعة الحزب تشير الى نفسها باصبع الاتهام بأنها اصبحت تمارس الدكتاتورية في بريطانيا ..**

ان البعض في افريقية، يبتلع الفرضية بلا مناقشة، في أن طبيعة الديموقراطية البرلمانية، تفرض قيام المعارضة. والبعض الآخر، يرفض هذا الاستسلام، ويجنح الى الكثير من التأمل والدرس، والمقارنة، **والرجوع الى التقاليد المحلية التي غالباً ما تسود روح الشريعة والنظام،** يستلهمها ويستعين بها في تخطيط السلوك السياسي الذي تمارس به السلطة. ويرى نيريره أن تعددية الاحزاب انما أنشأتها ظروفها الخاصة في اوروبة، وكانت في البدء صراعاً بين من معهم، وبين من ليس معهم. فتألف حزب الى جانب الثروة والوضع الراهن، وتألف آخر الى جانب الجماهير والتبدل. فالمجتمع الطبقي هو مصدر الحاجة الى التعدد الحزبي. ويأخذ نيريره بالنظرة السائدة بين القيادات الافريقية والآسيوية ـ كما سبق أن ذكرنا في فصول

سابقة ـ أن ليس في القارتين على الغالب، مجتمعات ذات طبقات متفاوتة كل التفاوت، يصح أن تمثلها احزاب سياسية متقارعة. ومثلما صدرت التعددية عن المجتمع الطبقي في اوروبة ، نشأت الوحدوية الحزبية في افريقية من طبيعة المجتمع النضالي الذي وحده نضاله وجمع له فئات من الجمهور ليس بينها فروق اقتصادية واجتماعية شاسعة، الا القليل منها . والكل كانوا سواسية تحت نير الظلم والفقر وممارسة الاستعمار .

يقول نيريره في احدى محاولاته تبرير نظامه ، وعقيدته ، ان الحركات الوطنية في هذه القارة انما **تخوض معركة الحرية ، ضد الحكم الاجنبي ، لا ضد طبقة حاكمة** . ففي بعض المواطن الافريقية ، ربح المناضلون معركتهم ، وفي أخرى مازالون قائمين على النضال . وهم ، هنا وهناك وفي كل مكان من افريقية ليسوا ارباب اقطاع ، يبتغون من نضالهم، تعزيز نفوذهم ، او تدعيم سلطانهم، وليسوا كذلك من فئة الاثرياء الذين حد وجود الاستعمار من حرية استغلالهم الجماهير ، بل هم المناضلون من ابناء الشعب كل الشعب.

وان الحزب الآخر بالنسبة لهم ليس سوى (السلطة الاستعمارية) وحدها! وليس من مبرر بعد سقوط الحزب الخصم ، أن يبتدع الشعب حزباً جديداً لمجرد أن الديموقراطية تحرص على تعدد الاحزاب .

ثم ان معركة النضال ضد التخلف، كما يقول نيريره ، لن تقل ضراوة عن معركة التحرير الوطني ، وطالما أن ثمة معركة ، فلا بد أن تكون الى جانبها وحدة . عجباً ، كيف يمكن ان تتسرب الخصومة والتفرقة الى اسوار هذه الوحدة ، وهي ناموس المعركة ! اذن فثمة شيء يجري ضد الطبيعة والناموس .

« ... ان الديموقراطيات الغربية نفسها ، تقبل فروض التوحيد، وتؤلف حكومات قومية تتجمع لها الاطراف مهما يكن نزاعها حادا ، ابان الازمات والاخطار وحالات الطوارىء. ونحن هنا في افريقية ـ الكلام لنيريره ـ انما نعيش الآن حالة الطوارىء هذه ... ومالم نربح المعركة ضد الفقر والجهل والمرض ، فلن ندع الوحدة ، تخربها

اية رغبة في النسخ عن (كتاب قواعد الغير ..!» .

ولقد عالج نيريره ، كما عالج سواه من المثقفين في هذه المجتمعات الجديدة ، موقـــع الفرد في المجموع ، ودعوى الديموقراطية الغربية ، أن فلسفتها تقوم على صيانة حقوق الفرد، وحريته وكرامته: هل أن المجموع في نظام الحزب الواحد ، يعني عداء للفرد ، واعتداء على حرياتـه وحرماته ، وخدماتـه للمجموع الذي ينتمي اليه؟! فان يكن مفهوم النظام الحزبي يقوم على هذه الحصارية الاجتماعية ، فهو باطل وفاقد قيمته، بلا جدل . وان تكن **الحرية السياسية ، هي قـدرة الفرد على التحـــرر من الخوف والفقر والاضطهاد الاجتماعي ، فما من ريب في أن تلك الحرية منوطة الى حد بعيد بهـذه القدرة ، التي يجب أن تتوافر لكل فرد ، وان يكون السلطان السياسي ، خاضعاً لهذا الميزان وحده**

فالديموقراطية ، اذن ، ولاسيما تجـاه الفرد ، هي موقف عقلي ، اكثر مما هي وضع شكلي. بل ان الشكل هو الواجهة التي يبدو بها الموقف العقلي ومن شأنه يتخذ الشكل الملائم للظرف الملائم. ولعل الخلاف الفكري الواسع ، بين المثقفين الافريقيين والآسيويين ، ممن بايديهم تبعات السلطان اليوم، بصرف النظر عن ولاءاتهم السياسية التي ينتمون اليها بعد الاستقلال ـ نقول لعل الخلاف باضخم اشكاله الفكرية يدور حول جدارة الفرد لممارسته حريته السياسية ، في المجتمع المتخلف ، المتحرر حديثا . ففي الجانب الأفريقي صاحب الولاء للغرب عقائديا وسياسيا ، يعلن القـادة والمثقفون الذين يفلسفون الحكم ان بلادهم قد تخطت مرحلة الطفولة ، وتأهلت للحرية السياسية ، وللممارسة الديموقراطية معاً[1] بل إنها لأهانة ان يرى الافريقيون أنهم غير جديرين بعـد بممارسة الديموقراطية البرلمانية ـ كما يقول أحد القادة النيجيريين:

(١) من هذا الفريق - كما رأينا ـ الزعيم النيجيري ازيكيوه ، الذي لايستطيع ان يقنع أحدا بان شهادة الكفاءة للحرية تمنحهـا بريطانيا ، ولا تمنحها هذه ، الا لمن مارس البرلمانية الحزبية ، على الطراز الانكلو سا كسوني ..!

(اوبافيمي أوولوو) O. Awolowo (١) وان هذا القائد ليتهم البريطانيين انفسهم، وهم اصدقاؤه بالغرور وبالتعالي على الافريقيين عندما يوهمونهم فيما يكتب بعضهم أن بريطانيا قد بلغت هذا المبلغ من الذروة الديموقراطية ، بعد طول نضال ، وصبر وزمن ايضاً ، وان الافريقي يجب ان يمر بنفس المراحل ويتطور ليستحق شرف الممارسة الديموقراطيـــة . وفي الرد على التحدي يقول (اوولوو) ان العالم اليوم يعيش على بساط واحد ، بعد ان تصرمت المسافات وتقاربت الجماعات ، واصبح كل خير وكل شر ، ملكاً مشتركاً للانسانية لا يتجزأ . فالقادمون الجدد ، إنما يتمتعون بامتياز فريد ، هو قدرتهم على الافادة من تجارب الشعوب العريقة ومنجزاتها .

وأما الجانب الافريقي الثاني ، الذي يتميز بالتحرر من الولاء للمدرسة الديموقراطية الغربية ، كما لوكانت من منزلات التاريخ والتجربة الانسانيـة ، فانه لايقنع بالعموميات من الفاظ الحرية، والكرامة ، والاقتراع ، و « الحكم للأكثرية » ، و « المعارضة تقويم لاعوجاج السلطة » الخ .. بينما هو لايماري في أنها قيم سياسية وخلقية رفيعـة . على أنـه عندما ينظر الى المواطن الفرد في ممارسته الحرية ، انما ينظر اليه كواقع اجتماعي اقتصادي ، الى جانب السياسي والخلقي . وأن اي نظام سياسي ، ماهو الا التعبير عن هذا الواقع . فلنعترف أن الجهل والفقر يسودان مجتمعات الملايين من الافريقيين والاسيويين ، ولنعترف أن الافريقي تحت هذه الشروط الاجتماعية القاسية ، لايستطيـع أن يكون رأياً صحيحاً مستقلا ، يؤلف به مـع آراء زملائه ومواطنيـه رأيا عاماً ، مستقيم الاتجاه ، واضح الهدف . وان الاعتراف بهذا العجز الذي يعانيه الفرد ، ليس مُسبة تلحق بالأمـــة ، بل قد يضيرها ويمس كرامتها أن تلعب الأقلية السياسية بمصاير

---

(١) الزعيم النيجيري المنشق عن (ازيكيوه) والمؤلف حزباً سياسيا معارضا بلـغ به انتصاراً انتخابيا في الاقليم الغربي من نيجيريا حيث سمي رئيسا للوزراء . وهو في البرلـــان الاتحادي النيجيري يقود المعارضة ، منذ عام ١٩٦٠ .

الجمهور الكبير ، بينما هو يلهو بقشور الممارسة الديموقراطية ، لهواً طفوليا مخربا . ومهما يكن من شأن الاتجاهين ، سياسيا وفكريا، فمن المرجح ،لدى الباحث ان الرئيس نيريره ، في دفاعه عن الحزب الواحد ، انما يصدر عن واقع دولته وصك ميلادها ، كما ان الزعيمين النيجيريين اللذين لخصنا بعض آرائهما انما يصدران ايضا عن واقع دولتها ونشأتها السياسية . ففي الحالة الاولى ، ولدت الدولة المستقلة بنضال حزب موحد الصف والهدف . وفي الحالة الثانية ،اوجب الوضع الاتحادي النيجيري ، قيام لامركزية السلطة وتعدد القيادات ، بحيث ان وصف الديموقراطية في نيجيريا بعد الاستقلال ، غدا ملازماً لشكلين متواصلين ، هما اللامركزية في الحكم ، والاقتراع العام،سبيل الاحزاب اليه . فاذا اضيف الى هذا الواقع أن الاستقلال النيجيري ، قد تم بالتراضي لابالنضال ، بطلت حجة القول بالوحدة الوطنية ، ذريعة لنظام الحزب الواحد . بل يقول القائد النيجيري (أوولوو) **أن وحدة بلاده ، لن تتحقق الا باحترام التنوع ، والاعتراف به .**

ومهما يكن من واقع الدول الافريقية وانعكاسه على فلسفة الحكم ، ومبررات النظام ، فان الرئيس نيريره يورد حججاً اخرى في الدفاع عن (الحزب الواحد) يريدها أن تتلبس وضع (نظرية سياسية) صالحة لاي استعمال.ومن هذه الحجج أن افريقية كلها انما تستوي في كونها مجموعة دول متخلفة ، يعوزها المال والرجال ، والزمن ، لكي تصنع ماتصنعه الدول المتقدمة ، وان هذه الدول العظيمة نفسها لتتعثر اليوم بمهام الحكم وتكبو ، لان اعباءه قد تضاعفت بما اضيف اليها من تبعات جسيمة نحو جماهير الشعب . ففي الماضي كانت اقامة سيادة القانون في الداخل ، وصيانة السلامة من الخارج ، **كل اهداف الحكم الناجح،بينما المسؤولية الاجتماعية ، اليوم تكاد تضاهي الهدفين السابقين مجتمعين بالأعباء وتربي ،** فكيف تنهض الدول الافريقية بمجموع تبعاتها ، وهي على ماهي عليه من عجز وتخلف ، يزيده ارهاقاً أن ليست الدول الكبرى بمتخلية عن اهدافها في التسلط وبسط النفوذ وتكوين الولاء وتمزيق الوحدة الوطنية،من اجل بلوغ تلك الغايات.

قد يفتى بأن المعارضة الحزبية ليست في الملمات نقدا وسلبية فحسب ، بل هي شريكة اعباء ومسؤوليات ايضـــا ويتساءل نـــيريره قائلا : اين تقع هذه المعارضة النزيهة في افريقية ؟! اذا وجدت كشريكة اعباء ، فانه لاولى ان يكون في مقدمة من يدافع عن حقوقها . ولكن افتقادها ظاهرة عامة من ظواهر الحكم في الدول الناشئة . ان المعارضة كما يراها الرئيس نيريره ، في واقعها الافريقي ، ليست سوى حجة لتجمع عددمن الافراد غير المسؤولين ، الذين لااخلاص لهم ، ولاقناعة تحثهم ، ولا سياسة ذات طابع متميز ، تدل على شخصيتهم . وحسبهم انهم يجردون افكارا وشعارات مستعارة من دول اجنبية متقدمة ، ليخدعوا بها من لا يفكرون حولهم ، ويؤلفوا شيئا من ضوضاء العطف عليهم (*). «اننا لانستطيع ان نتسامح مع صانعي الاضطراب ، كما يتسامح الحكم مع معارضيه ، في الدول الراسخة في ممارسة الديموقراطية ! »

وان يكن ، الرئيس نيريره في هذا الموقف الاخير ، يبدولنا كصاحب سلطة ، لا كصاحب فلسفة أي ويهـــدد لايقنع ، فانـــه لايلبث ان يدور على نفسه نصف دورة ، ليستدرك في طرح شعاع من الامل ، بنشوء معارضة سوية ذات يوم ، لاتحجب نورها ، ولاينكرها الحاكمون « **ان ظهورها ممكن ، وان الترحيب بهـــا ، لن يكون اقـــل حفاوة في افريقية ، منه في اوروبة او اميركا .ـ»**

واذ هو يؤكد ان الديموقراطية في تنام وانها ليست مهددة في افريقية ، كما يزعم الزاعمون ، يريد ان يؤكد انهاذات تقاليد عريقة في تاريخ القارة ، وأن الاسلاف مارسوها ، ممارسة كانت في اساس ازدهار المجتمع القديم ، وصلاحه . فلنلق نظرة على تقاليد الممارسة الفعلية ، غير الشكلية ، للحياة الديموقراطية ، في افريقية ، كما يصورها الرئيس نيريره .

كيف يفهم حكم الشورى

بالحق ، ان نيريره لايتفرد بين قادة الفكر والتوجيه في آسيا وافريقيـة ،

(*) يتحدث عن بلاده ، طبعا ـ

بالرجوع الى التقاليد الوطنية لاستيحائها، واستكناه الحكمة فيها، لعل مضمونها القديم، يصب شيئا في هذا الفراغ الذي يشعر به المجتمع الجديد، وهو مقبل على صنع فلسفة لحياته، ونظام لحكمه. فقد مرت بنا، في الفصول السابقة، اقوال متعددة، لقادة اسيويين - نهرو، سوكارنو، محمد ايوب خان، يونو، وسواهم - يحرصون فيها على احترام ما تووِرث من تقاليد بممارسة الحكم في بناء الدولة الجديدة، بل يؤكدون على تفرد الشخصية الاجتماعية الوطنية، بصفات يجب عدم اغفالها عند صياغة طراز الحكم. حتى ان مثقفا وقائدا مثل الرئيس جواهر لال نهرو، يرتضي لبلاده بكل قناعة نظام الحكم البرلماني على الطراز الغربي، ويحسب هو نفسه على رأس الاصدقاء الشرقيين للثقافة الغربية السائدة في الدول المتقدمة، يؤكد مثلا أن ليس للمال، ونفوذه المادي، مقام ممتاز في الهند، شأنه في المجتمعات الغربية، بل للفضيلة والحكمة، كل المقام وكل الاحترام. لذلك فان كثيرا من المقاييس والمكاييل الاجتماعية والسياسية والاخلاقية في اوروبة، لا يقاس به ولا يكال في الهند.

ومن هؤلاء القادة الآسيويين والافريقيين من لا يدعو الى تقمص الانظمة الجديدة للتقاليد التليدة فحسب بل انهم يدافعون عن حقيقة علمية لا يزال العلم يطرحها للجدل تقول إنه على الرغم من تقلص المسافات بين اجزاء المعمورة، وتقارب الشعوب، واخذ بعضها عن البعض الآخر، وتماثل المجتمعات في تملك ثمرات العلم وتقنياته بحيث يبدو أن كل شيء الى تساوق وتماثل، فلن يأتي ذلك اليوم الذي يسود العالم فيه شكل واحد من اشكال الحكم، أو نظام واحد من انظمة الدولة السياسية. وان يكن هذا ماسيحدث فعلاً بالافتراض النظري، فليس من الضروري أن تقبل الشعوب قبولاً كلياً قبل أوانه، فتحرم التجربة الانسانية الكبرى، من مشاركة الاقوام المختلفة، في مسيرة التكوين.

أن تضع الأقوام الآسيوية والافريقية سهمها في حركة التاريخ: هذا ما يميز الحركات الاستقلالية في تلك المجتمعات،

عن مثيلتها التي جرت منذ مئة عام وأكثر في المجتمعات اللاتينية الامريكية. ولعل ما رافق تحرير افريقية خلال الاعوام العشرة الاخيرة من طموح واع ورغبة جادة في اغناء التجربة الانسانية، بدلاً من الخضوع لها كالقدر المحتوم، سيكون الدلالة الكبرى من دلالات هذا العصر، المشحون بالطاقات المتفجرة.

يقول جوليوس نيريره، في تبريره نظام الحزب الواحد، أن مجتمعه قد عرف الديموقراطية في أبسط أشكال حكم الشورى واجملها. وحكم الشورى يعني تبادل الرأي وتقليب الأمر بين أصحابه، حتى تحصل القناعة بالاتفاق العام. فقد كان القوم يجلسون تحت الشجرة، ويتداولون في شأن من شؤونهم – من حفر بئر الى صد خطر – ولا يشرعون عملاً إلا وقد انعقد عليه الاجماع. فان تكن الديموقراطية بالمعنى اليوناني القديم، من ناحية عملية، هي **(الحكم بالتباحث بين اقران متساوين)**، فان انعقاد العزم على أمر، في المجتمعات الافريقية، بعد المناقشة، وتبادل الآراء، يدل على أن المجتمعين، سواء أكانوا الجمهور كله، أم ممثليه، قد بلغوا قراراً، يصح أن يكون قرار الشعب. فليست المعارضة وحدها بدليل وجود الرأي، واحترامه، كما يزعم الغربيون، بل إن بلوغ الموافقة بعد المشاورة، أصح دليلاً وأدمغ حجة. ان مئة من الأقران المتساوين يجتمعون ليبحثوا، حتى الاتفاق، لا يمكن أن يعني اجتماعهم الا أنهم قدموا بالرأي ونقيضه، حتى استبان لهم الصواب. **فالمعارضة بالطبع قائمة فعلا في عملية المشاورة. ولكن المدرسة الغربية الليبرالية، انما تريد المعارضة منظمة الزامية، لاعفوية وحرة، كما هي في الممارسة التقليدية الموصوفة.**

فاذا سلمنا بأن الديموقراطيـة غير المنظمة، الماثلة في مبدأ (التحدث حتى الاتفاق)، هي الديموقراطيـة الخالصة الأصيلة، التي قد لا يتيسر الاخذ بها كنظام سياسي في مجتمع معقد، ودولة حديثة، وجب، في الحد الادنى، كما يرى الرئيس نيريره، أن تفهم بحسن نية روح هذه الشريعة الفطرية، التي توحي بأن حكم الشورى، لا يلازم بقيام (معارضة منظمة) كجزء من تقنيـة

النظام السياسي ، بـــل المهم في حكم **الشورى أن ينعقد الاتفاق بالرضى لا بالقسر ، من جهة ، وأن يكون التشاور بين متساوين متكافئين ، لينتفي قيام سوء الظن - من جهة ثانية .**

ويبدو أن مبدأ التباحث حتى الاتفاق ليس مقتصراً على مجتمعات افريقيـــة ، ذكرها الرئيس نيريره ، فقد رأينا الرئيس سوكارنو ، يشير الى هذا المبدأ ويؤكد أن مجتمعات كثيرة في بلاده ، من جاوه الى ميناكابو الى سولاويزي ولومبوك وبالي ، لاتزال تمارس حتى اليوم ، في معالجة أمورها المحلية ، أسلوب ماسماه الرئيس سوكارنو بديموقراطية (المشاورة والموافقة) - Musjawara and Muafakat (*) - وطريقتهم في هذه الممارسة ، أنهم يجتمعون برعاية أكبر الراشدين من بينهم، فيطرح كل منهم رأيه ، وتدور المناقشة حتى يتم بلوغ الحل الوسط،دون حاجة الى تصويت ، لان الوفاق ، هــو في الأغلب ، خاتمة البحث والتشاور .

ويدفع الرئيس سوكارنو عن هـذه الممارسة الديموقراطية تهمة الدكتاتورية ، بقوله انها (الديموقراطية الموجهة) ذات القيــادة ، وهي من تقاليد الحياة الديموقراطية في اندونوسيا ، التي توجب احترامها ، والعمل بها . **« انها اهم منابعنا التي يمكن ان نستقي منها المادة الصالحة لبناء ديموقراطية جديدة ،واضحة .. ليست امريكية ، او فرنسية ، او بريطانية ، او سوفيتية .. ولا ايـــة ديموقراطية اخرى .. »**

وسنعود مرة ثانية الى توضيح فلسفة الرئيس سوكارنو في بناء نظام الديموقراطية الموجهة - Guided Democracy

كذلك فقد رحب بمبدأ (المشاورة والموافقة) الزعيم الصيني ، نائب رئيس الوزراء ، (شن يي) الــذي اعلن في خطاب القـــاه في جاكرتا ، في المؤتمر التحضيري لمؤتمر باندونغ الثاني (**) بين

(*) اللفظان العربيان بالاحرف اللاتينية ، كما اوردهما الرئيس سوكارنو حرفيا . وواضح انه يتحدث عن تقاليد المجتمعات الاسلامية في اندونوسيا ، حيث يؤلف المسلمون ثمانين بالمئة من السكان ، اي مايزيد على سبعين مليونا .

(**) انعقد هذا المؤتمر التحضيري بين ممثلي تسع عشرين دولة اسيوية وافريقية -

العاشر والخامس عشر من نيسان عام ١٩٦٤ أن هذين اللفظين – بالعربية – المترجمين بكلمتي Consultation and Agreement – هما خير دستور لتحقيق ديموقراطية الاكفاء الانداد. وهو يرى ان نجاح اعمال المؤتمر التحضيري لباندونغ، مدين الى الاخذ بمبدأ المشاورة والموافقة، في تعامل الدول الاسيوية والافريقية، بعضها مع البعض الآخر. وان هذه الدول لتختلف العلاقات فيما بينها، عن عن العلاقات القائمة بين الدول صاحبة الاستعمار والدول الضعيفة المتخلفة بل عن العلاقات القائمة بين الدول الاستعمارية نفسها. ففي تعامل الدول الاسيوية والافريقية فيما بينها، لاتتحكم اقلية بأكثرية، ولا اكثرية تفرض نفسها على اقلية ويبدو ذلك مستحيلا. بل لاسبيل الى نجاح العمل الجماعي بينها، إلا بانعقاد الاجماع عبر النقاش والجدل وتبادل الآراء، بحيث يؤخذ ما اتفق عليه، ويهمل ما بقي موضع نظر. ان ديموقراطية المشاورة والموافقة تفرض وجود الاكفاء الانداد من جهة، وتفرض احتكاك الآراء وانتقاء الأقرب منها الى رضى الجميع، من جهة ثانية. وواضح أن الديموقراطية المنشودة على هذا الوجه المثالي، لا تقبل تحكم فئة بفئة أخرى، باية حجة، ولو كانت حجة الأكثرية. بل انها ترفض مبدأ التصويت اطلاقا، ولا ترى سبيلا الى الشرعية الا بالاجماع الذي ينعقد بين الفرقاء المتساوين، ببعض التضحيات التي لاغنى عنها. ان النصف، مضافاً اليه رقم واحد – الاكثرية المطلقة – لا يشكل اكثرية، ولا يمنح حقا، انه مجرد خط وهمي بين خطأ مفروض، وصواب مفروض.

على أن كلا من الرئيسين نيريره، وسوكارنو، يعترف بتعذر تحقيق (المشاورة والموافقة) كما مارستها المجتمعات القديمة. ولا بد من تطوير هذا المبدأ ليغدو صالحاً للمعاصرة في مجتمع كلي التعقيد. ومهما يكن من امر تعصير هذا المبدأ فلابدْ من الاقرار بأن ثلاثة قواعد اساسية، تصدر عنه:

الاولى ان حكم الشورى، هو حكم مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، لا يفرض احدهم على آخر موقفا او رأياً باي اسلوب من الاساليب. **والثانية** ان

لا اتفاق الا بحصول الرضى والقناعة والتضحية . والثالثة ان المعارضة المنظمة ليست ضرورة ديموقراطية . وان نظام الشورى ، معارضته مضمنة فيه ، وليست منفصلة عنه ، مقابلة له ...

يبقى ان الرئيس نيريره في تقريره نظام الحزب الواحد، وتبريره له، انما يصدر عن شرطين أو حقيقتين مسلم بهما اولاهما أن الحزب أو الهيئة القيادية، يجب ان تتمثل فيها وحدة الشعب بكل قواه ، وطاقاته ، وأمانيه الواسعة ، تمثلا مقترناً بالممارسة العملية ، والرضى العام . والثانية أن الحزب أو الهيئة القيادية ، قد اسلفت الشعب فضلا معترفاً به ، بحيث تحمل حجتها في يمينها ، دون منازع ، كأن تكون هي نفسها الهيئة التي اخرجت الاجنبي الغاصب من أرضها وتسلمت منه ، راضياً أم كارهاً تبعات القيادة والتوجيه، وليست (المعارضة) بعد ، في هذا الظرف التاريخي ، سوى هيئـــة غير ذات رصيد ، سوى النقد والسلبية، والتنطع لتحمل التبعات والمشاركة في الحكم .

وفي رأي نيريره أن المعارضة المنزهة عن الهوى ، المجردة من العقد ، مفتقدة في مثل مجتمعه الافريقي الجديد . ولو انها وجدت بهـــذه الصفات الجليلة لوجب احترامها .

(يتبع)